روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

خيانة وغدر



دار الأندلس

خيانة وغدر

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر

خيانة وغدر

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت ، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ١١٤٥٥٣ - تلكس ٢٣٦٨٣

١

كان معاوية قد عزل عبد الرحمن بن خالد عن الكوفة – كما قرأت في رواية فتاة الشام – واستعمل عليها الضحاك بن قيس ، وهو من المخلصين له . فعل ذلك لأن عبد الله بن خالد كان ضعيفاً مع رجال الشيعة ، ولم يستطع ، وهو صاحب السلطان في امارته ، ومعاوية وراءه يشد ازره ، ان يثبت وجوده كأمير يهابه المتشيعون ويخافون غضبه .

لقد أوصاه معاوية بالشدة ، عندما يرى ان سلطانه في خطر ، وأوصاه باللين عندما يرى ان السياسة تقضي عليه بأن يأخذ ولا يعطي .. أي ان للشدة دورها عنده ، وللين دوره ، وذلك هو الدستور الذي يجب على أولياء الأمر أن يتبعوه، ولكن عبد الله لم يعمل بما أوصاه مولاه .. تراخى حتى استضعفوه ، وغفلت عنهم عيناه فاستخفوا به ، وراحوا يجتمعون في النهار والليل ، في دار سليمان بن صرد ، وكأنه غير موجود .

وليس هذا وحده هو الذي دعا معاوية الى استبداله بالضحاك ، بل كان لما نقله اليه الربيع بن شبث أثره في النفس، وقد رأيت في روايتنا السابقة ، انه أمر وزيره سرجون الرومي بعد خروج الربيع من مجلسه ، بأن يكتب للرجل عهد الولاية ، ويوصيه بمثل ما اوصى به عبد الله .

وكان قد مرّ على الضحاك ، وهو في الكوفة ، شهران اثنان ، تبين في خلالهما امور الناس ، وقرأ احوالهم بسكون وهدوء ، ورأيه في الكوفة ، بوجه عام ، وفي الشيعة بوجه خاص ، رأي معاوية لا ينقص ولا يزيد ..

أمره بأن يقرب رجال الشيعة ، على ان يحصي عليهم الأنفاس، ففعل ، وانك

لترى هؤلاء الرجال ، في مجلسه وبين خاصته كأنهم من أنصار الأمويين ، وقد وثقوا به ، وآمنوا بأنه الوالي الشريف في غايته ، النبيل في أخلاقه ولكنهم لم يحدثوه بأمر الشيعة ولم يخطر لهم أن يسألوه رأيه في المبدأ الذي يدعون الناس اليه من وراء الستار ، ذلك لأنهم كانوا يخافون أن يخرج عن هدوئه ويمد اليهم بعد ذلك يد سوء ، أي انهم جعلوا لوثوقهم به ، حدّاً ليس من الحكمة أن يجاوزوه ؛ وكان هو بدوره ، يتظاهر بالوفاء لهم ، ويلبس في كل يوم ثوباً خلاباً من أثواب الاخلاص والحب ، وله من وراء ذلك غاية واحدة هي ان يحملهم ، بمظاهر حبه ، على أن يتركوا التشيع ويسيروا تحت لواء أمير المؤمنين ، حتى رأى بعد ذينك الشهرين أن الأمر لا يتم له من هذه الناحية ، فعمد الى الدهاء من ناحية أخرى يبلغ بها الغاية ، وهو يعلم ان مسلما يغضب لكرامته ، ويزعزع أركان الشيعة بكلمة منه . فقال لحاجبه : أتعرف ابن عوسجة ؟ — نعم يا مولاي .

— إذن فاذهب الى المسجد وقف عند بابه حتى يخرج الناس فاذا رأيته فقل له ان الأمير يدعوك اليه ، واحذر أن تقول له هذا على مسمع من القوم .

وكان ذلك في مساء يوم كثر مطره واشتد برده ، فانصرف الغلام حتى أتى المسجد ففعل ما أمره به ، وأقبل الليل ، فدخل مسلم على الضحاك وعنده طائفة من أتباع الأمويين الذين يتغنون نهارهم وليلهم ، بفضائل معاوية ويزيد .

فهشّ له ، وأومأ اليه بأن يجلس بالقرب منه ثم قال :

نحن نحدث وجوه القوم الآن ، بأخبار ثلاثة انتهت الينا في هذا الصباح ونسألهم رأيهم فيما يتعلق بالكوفة .

فقال مسلم : وما هي هذه الأخبار ؟

— أولها ان نار الحرب اشتعلت في سمرقند . — ولاية خراسان ؟

— أجل وقد سعرتها قبائل الصغد ، وحملت السيف في وجه سعيد بن عثمان ، عندما وضع قدمه في ارضها .

— ولكن هذه القبائل لا تستطيع ان تثبت في المجال ، فقد تعودت أن

تخرج عن الطاعة وتعوّد الولاة المسلمون أن يخضعوها بقوة السيف .

قال : يظهر انك شهدت حربها أيام الفتح .

– شهدتها أيام الفتح وبعدها واقتحمت الصفوف وراء نهر سمرقند عشر مرات وكان النصر في كل مرة حليفاً لي .

– وهل يطيب لك اليوم يا ابن عوسجة أن تخرج غازياً الى خراسان على رأس جيش من الكوفة ؟

– ان خراسان اقليم يتبع البصرة ، ووالي البصرة عبيد الله بن زياد ، هو الذي يسيّر اليها الجيش .

قال : هب أن أمير المؤمنين أمرنا بأن نجعل الكوفة عوناً لسعيد بن عثمان ، وخطر لنا نحن أن نوليك أمر الحرب فماذا تفعل ؟

– أخرج الى الحرب دفاعاً عن الاسلام ولا أقول كلمة ..!

قال ذلك وهو يعلم ان الأمير يريد أن يختبر وفاءه للخلافة .

فأشرق جبين الضحاك وقال : ولكنك من رجال الشيعة ، وهؤلاء الرجال لا يغضبون لغضب معاوية امير المؤمنين .

قال . اذا لم يغضبوا لمعاوية ، غضبوا للخلافة التي يجب أن تبقى ، وكرهوا أن تمتد اليها أيدي الغادرين ..!

فقال لجلسائه : أرأيتم وفاء مثل هذا ؟.. يقول الناس ان المتشيعين لا يدافعون عن الخلافة ، وهذا ابن عوسجة ، وهو من سادتهم ، يبذل نفسه في سبيل هذا الدفاع .. انك يا مسلم من اشراف الناس ، ويكفي ما سمعناه الآن ..

قال : اني راضٍ بأن أكون جندياً صادقاً من جنود الاسلام .

– بارك الله فيك وفي اسلامك ..

قال : خير لي أن تقول هذه الكلمة بعد رجوعي من سمرقند .

فضحك قائلاً : انك لا تسير اليها لأن الحرب قد انتهت .

– وانتصر ابن عثمان ؟

– أجل ، هزم ابن عثمان أعداءه ، ثم حصرهم في بلدهم فصالحوه ، وأعطوه

رهناً ، خمسين غلاماً من أبناء الأشراف .   — ولم يقتل أحد من رجاله ؟

— قتل بضعة عشر رجلاً بينهم قثم بن عباس ، بن عبد المطلب .

— رحم الله ابن عباس فقد كان من الأبطال. . .ثم قال : يقول الأمير ان اخباراً ثلاثة انتهت اليه عند الصباح ، وقد قص علينا الآن الخبر الأول وبقي اثنان .

— أما الثاني فهو ان امير المؤمنين عزل مروان بن الحكم عن المدينة . .

فابتسم مسلم ولم يجاوب ، ودخل رجل في تلك الساعة يحمل نعي عبد الله بن عامر . فقال الضحاك : مسكين عبد الله .

فقال مسلم : ومسكين مروان بن الحكم ، يوليه معاوية ، ثم يعزله ، ثم يوليه ، فكأن العيش لا يطيب له إلا اذا عزل عماله كل يوم ، كما يموت الناس كل يوم . . .

وسكت قليلاً ثم قال : ومن هو عامل المدينة بعده ؟

— الوليد بن عتبة ، ابن ابي سفيان . .

قال : عذر معاوية أن الوليد ابن اخيه . . . وهذا يكفي . . والخبر الآخر أيها الأمير ؟   — الخوارج . .   — أما الخوارج فقد تفرق شملهم وانتهى أمرهم.

قال : ألا تذكر أن المغيرة ابن شعبة كان قد وضع في السجن طائفة من هؤلاء؟

— بلى .   — وان هذه الطائفة خرجت من سجنها بعد عام ؟

— أعلم ذلك . .   — ولكنك لا تعلم انهم يعدون اليوم ، عدة الحرب . .

— وهم في ولاية الكوفة ؟

— أجل ، وسيجتمعون في مكان يقال له بانقيا ، وأنت تعرفه كما يعرفه جميع الناس .   — ورئيسهم ؟

— حيان بن ظبيان ، يساعده في أمره ، معاذ بن جوين من بني طيء ، وهذا هو الخبر الذي اسأل وجوه الكوفة الليلة ، رأيهم فيه .

— وماذا ترون يا أهل الكوفة ؟

— نرى أن يخرج اليهم الجيش ويضع فيهم السيف .

فقال الضحاك : وماذا ترى انت يا ابن عوسجة ؟

— تجاهل وجودهم أيها الأمير .

قال : أتنصح لعامل الكوفة بأن يتجاهل وجود عدوه ؟ — نعم .
— وماذا يحدث بعد ذلك ؟
— يستخف بك هذا العدو ثم يبرز الى الساحة .. — وعندئذ ؟
— يفاجئهم الجيش ويحيط بهم من الجهات الأربع دون أن يجعل لهم سبيلاً الى الفرار . قال : همنا بأن نفعل غير هذا . — ماذا ؟
— نأمر أبطال الكوفة بأن يتهيأوا للقتال ، ثم نخرج على رأسهم الى الموضع الذي عرفت . — ولكن الجيش ينتهي الى بانقيا فلا يجد أحداً ..
قال : ماذا تعني بقولك ؟ — ألم تقل الآن أن القوم سيجتمعون ؟
— هذا ما خبروني به . — اذن فاصبر حتى يجتمعوا .
— بل اصبر حتى تضطرم نار الفتنة ..! — نعم ..
ويقول أمير المؤمنين ان الضحاك بن قيس لم يستطع ان يخنق هذه الفتنة وهي في المهد ...
— خير لك ان يقول هذا من ان يقول : ان الضحاك يروع الناس ، ويقود جيشه الى مكان لا فتنة فيه ...
— ولكني اقبض على رؤسائهم وارسلهم الى دمشق ..
— ومع ذلك فقد نسيت ، ان الخوارج يعمدون بعد ان ترحل عنهم ، الى اختيار رؤساء آخرين ، وقد يخطر لهؤلاء الرؤساء ان يسعروا النار في موضع لا ينتهي خبره اليك ..
فتمتم قائلاً : والله هذا هو الرأي .. ثم قال للقوم : ان رأي مسلم رأي خبير فلنصبر حتى تنضم الصفوف الى حيان بن ظبيان ، وسنرسل الى بانقيا من يحمل الينا أخبار القوم . — وهل بقي لك ما تقوله ؟
— بقي ان تكتموا الناس خبر الخوارج فان لهم في الكوفة عيوناً ينقلون اليهم ما يسمعون ، وأذن لهم في الانصراف ، فخرجوا جميعهم إلا مسلماً ، فقال الضحاك : ليس في هذه القاعة كوفي يسمع ما نقول أتعلم لماذا دعوناك ؟
قال : ليس بيننا اسرار فأنا أظن انك ستحدثني بأمر الشيعة ..

— أصبت ، وان هنالك سرّاً أريد ان ابوح لك به .
— اني مصغ اليك أيها الأمير ...
قال . ألا ترى ان رجال الشيعة يتآمرون على الخلافة ...!
فرأى مسلم ان الأمر خطير ، وانه يجب ان يعتصم بالصبر ، ويستعين بالدهاء فقال : ان الشيعة تحب علياً وآل علي ولا تتآمر على أحد .
— واذا أحب احدهم رجلاً آثره على سواه .. — نعم .
— وأنتم تؤثرون الحسين بن علي على معاوية .
قال : ايها الأمير .. لقد خلق الله الناس احراراً ..
— ولكنه أمرهم بالطاعة والخضوع للسلطان . — ونحن خاضعون كما ترى .
— اجل ، غير ان خضوعكم ستارٌ يكمن وراءه البغض .. ولو استطعتم الليلة لخلعتم معاوية وجعلتم الحسين خليفة المسلمين .
قال : اعترف لك بأننا نؤثر الحسين على معاوية كما قلت ، ولكن لم يخطر لنا أن نخلع هذا ونولي الآخر ، وانت تعلم اننا أضعف من ان نخلع ونولي الخلفاء ..
قال : هذا اعتراف صريح بضعف الشيعة يا ابن عوسجة .
— نعم ، ونحن لا نحاول ان نخفي هذا الضعف وراء مظاهر القوة . . ان معاوية والكوفة ، وامير الكوفة ، يعلمون ان الشيعة ليس لها جيش تستعين به على خلع الخليفة ، وليس لها مال تشتري به الرجال ، وتقذف بهم الى ساحات القتال ...
— ومع ذلك فهي تعيش بالأمل ، ومن رأي رجالها ان يصبروا حتى يموت معاوية فيبايعوا الحسين ... فخفق قلب مسلم ثم قال : انها تهمة باطلة ...
— بل هو حديث ترددونه عندما يجمعكم منزل سليمان بن صرد ..!
قال : كذب الذي نقله اليك ...
— لا تقل هذا فقد يكون الناقل من اخوانك ... — من اخواني ؟
— اجل يا ابن عوسجة من اخوانك الذين يعرفون الأسرار وهم من اصحاب الرأي ... قال : يظهر ان الأمير يريد أن يهزأ بي .

– ما دعوناك لنهزأ بك بل لنذكر لك ما سمعناه من رجل يتشيع مثلك !

– ويقوم في ذهنك ان هذا الرجل صادق في قوله ؟ – هذا ما نراه .

قال : سمه لي ايها الأمير . – سأفعل عندما تذكر كل شيء .

– اسأل عما تشاء وانا اجيبك دون أن أتردد .

– ألم تقل انت لرجال الشيعة ان الصبر ريثما يموت معاوية خير من أن يحملوا السيف ؟

فقال في نفسه : إن في الشيعة خائناً يبوح بأسرارها للضحاك . ثم قال له : لا ، لم أقل هذا ولم نتحدث به ...

– وتستطيع ان تثبت لي ما تقول الآن ؟ – نعم .

– افعل ، اذا كنت قادراً .

– قال : ان الشيعة لا تستسلم الى الأمل من الناحية التي ذكرت إلا اذا كان رجالها جميعهم من المجانين .. – لماذا ؟

– لأن الحسين قد يموت قبل معاوية كما مات اخوه الحسن ، وقد نموت نحن جميعنا ومعاوية حي .

ومع ذلك فقد تحدثتم بالأمر وآثرتم الصبر على المجاهرة بالعداوة .

قال : لنفترض الآن ان معاوية قد مات ، فماذا نصنع ؟

– تخرجون على يزيد وتبايعون الحسين ..

– ثم يشهر يزيد الحرب على جميع الذين لم يبايعوه ، وتخرج جيوشه الظافرة من دمشق لتؤدب المسلمين المتمردين .. أليس كذلك ؟ – بلى .

– وهل تظن أن اهل الشيعة يخرجون الى القتال ؟

– يفعلون ذلك إذا كان في الصفوف رجال حرب .

– ولكني قلت الآن ان الشيعة ليس لها جيش تستعين به ..

قال : يكثر انصار الشيعة إذا طالت حياة أمير المؤمنين .

– أما انا فأقول ، ان امير المؤمنين سيضرب الشيعة ضربة قاضية عندما يرى ان دعوتها تنتشر وتمتد ..

فأطرق الضحاك قليلاً ثم قال : يا مسلم ، ألست من فرسان المسلمين ؟

– حسبي اني مسلم صادق العقيدة ..

– ألم يكن لك في حروب الفتح البلاء الحسن الذي يتحدث به الناس ؟

– أبليت كما أبلى سواي من رجال السيف ..

– وتذكر رفاقك الأبطال الذين اقتحموا الأسوار والرجال وهم بالقرب منك.

– اذكر الأموات والأحياء من هؤلاء ..

قال : دع الأموات الآن واذكر الآخرين ...

قال : ان لكلام الأمير مغزى لم افهم شيئاً منه .

– اسمع ، فستفهم كل شيء .. اين هم رفاقك اليوم ؟ – فرقتهم النوى .

– أجل فرقتهم النوى وأبعدتهم الحادثات ولكن الى أين ؟

– الى ما وراء البحار ، والى اليمن وفارس والشام ومصر ..

– وأي شأن لهم في البلاد التي ذكرت ؟

فعرف ما يريد ، فقال : لهم في بلادهم شأن يحسدهم عليه المسلمون .

– بل لهم مقاعد الإمارة والقيادة والخراج في كل قطر ..

– اجل وهم يجرون أذيال السؤدد والعز . – وانت ؟

– أما انا فكما ترى ، رجـل من بني أسد ، مقيم بالكوفة وليس له شيء من هذا .. – ولا تعرف السبب ؟

– بلى اعرفه ايها الأمير .. إني بعيد عن معاوية ..

– قل إنك عدوه وحامل لواء المتشيعين ..

قال : احمل هذا اللواء احتراماً لعلي وعلي قد مات. – ولكن بنيه أحياء..

– ويمنعني معاوية من ان أحب علياً وبنيه ؟

– للمرء ان يحب من يشاء ويبغض من يشاء ، ولكن ليس له ان يقول للناس ان معاوية لا يصلح للخلافة ، وان الإمامة لا تخرج عن عـلي وعن اولاده . . ثم قال : ألم تقل الآن ان الشيعة اضعف من ان تخلع خليفة وتولي آخر ؟

– قلت ذلك .

- واي خير لمسلم بن عوسجة ، وهو من سادة بني اسد ، في جماعـــة ضعيفة تلنحى عنها الأمة ، ويغضب عليها امير المؤمنين ؟

- إني انظر الى الآخرة فيما اصنع وهذا امر عقدت عليه الضمير والقلب .

- اي انك اعتقدت ان الإمامة لأبناء علي . - نعم .

قال : ألا يجوز أن يكون اعتقاد الضحاك بن قيس الذي يخاطبك الآن ، هو نفسه اعتقاد مسلم بن عوسجة ؟ - يجوز .

- ولكن ، أيرى الضحاك من الحكمة ان يخرج على الخليفـة لاعناً من يباركه ومباركاً من يلعن ؟ - ليس لي رأي فيما يفعله الأمير .

- اما الأمير فله رأي فيما تفعله انت . - ما هو ؟

- كن مع معاوية واعتقد ما شئت .. - واغضب الله عز وجل ؟

- ترضي الله باعتقادك ، وترضي امير المؤمنين بإخلاصك له .

- إن الاخلاص لمعاوية تسليم بحقه وانا لست من المسلمين بهذا الحق ..

- افعل ذلك حفظاً لمقامك في الكوفة ، وفي بلاط معاوية .

- بل افعله طمعاً بمقعد من مقاعد الامارة ..

- إذا كانت لك هذه الغاية فأنا أضمنها لك ..

- لا ايها الأمير .. لا اطمع إلا برحمة الله .

قال : انصح لك بأن تنزل عن هذا الرأي قبل ان تتفرق الشيعة .

- يستطيع معاوية ان يفرقنا عندما يخطر له .

- ولكن معاوية لا يفعل ذلك كما تظن . - ومن يفعله ؟

- الشيعة نفسها ففيها رجال يرغبون في أن يصافحوا الأمويين !!

فذعر مسلم ثم قال : يأذن لي الأمير ان اقول انهـا أكاذيب نقلوهـــا اليه ؛ فالشيعة لا تتفرق إلا بقوة السيف الذي يشهره رجال الشام .

- لو أراد اهل الشام ان يضربوا ضربتهم ، بأمر امير المؤمنين لمـــا ثبت في وجههم شيعي ... انها حقيقة يعترف بها العراق كله وانت اول من يعترف بذلك.

- نعم اني اول المعترفين .

– إذن نصدّق ان الخليفة لن يعمد الى سيفه من هـذه الناحية ولو كانت له رغبة في ذلك لأمرني بأن أضع الشدة في موضع اللين .

– اذا كان هذا فأرجو ان تصدق انت أن الشيعة لا تنقسم على نفسها ..

قال : أعلم من امركم يا ابن عوسجة ما تعلمه انت .. وكل كلمة تقولونهـا همساً في منزل سليمان كل ليلة ، تنقل الي عند الصباح .

– ولكنا لا نقول غير الذي ذكرته لك الآن .

– بل تقولون غير ذلك ويطيب لك انت ان تغـادر العراق اذا طلب اليك عامل الكوفة ان تبايع ولي العهد .!

فأيقن مسلم عندئذ بأن أسرار الشيعة كلها في صدر الضحاك ، فقال : أهـذا ما خبروك به ؟

– خبروني أشياء اخرى تتميز غضباً عندما اقصها عليك .

– ما هي ايها الأمير ؟

– ابدأ بذكر امامة الزبيدية التي خطبتها لولدك عبد الرحمن !

– انها خطبة لم نكتم الناس أمرها وقد تحدث بها اهل الكوفة ..

– على انهم لم يتحدثوا بأمر آخر يتعلق بشبث بن ربعي .

– وأي شأن لشبث ؟

– خطب أمامة لولده الربيع ، يوم خطبتها انت ، فخاب أمله ..

– وهذا امر يعرفه الكوفيون لأن ابن ربعي نفسه يقصـــه على الناس وهو راض بما جرى ، وواثق بأن امامة هي التي اختارت عبد الرحمن .

– ويعرف الكوفيون ان الرجل حقد عليك وعلى ولدك ؟

– شبث بن ربعي يحقد على ابن عوسجة ؟! – نعم .

– وهل كان ابن عوسجة شاهراً سيفه في وجه أمامة ، لتختار ابنه ؟!

– لا اعلم هذا ولكني اعلم ان الرجـل عدو لك وهو يلبس لباس الاصدقاء

فأحس الشيعي الجريء بأن النار تتأجج في أحشائه ! أيكون الأمير صادقاً في حكايته ، ويكون شبث هو النمام الواشي الذي يخون المتشيعين ؟ وأطرق ملياً ،

والالفاظ تتردد في صدره ولا تقذف بها شفتاه .

فقال الضحاك : قلت انك ستتميز غيظاً عندما تعرف كل شيء !

قال : أسألك سؤالاً واحداً وانا أرجو ان تجيبني عنه .

– امضي في حديثي الى النهاية ثم أجيب عن كل ما تسأل .

– وهل بقي شيء لم تقله ؟

– بقي ان أقول كلمة هي ان تحذر ابن ربعي وابنه الربيع !

– وماذا يصنع الرجلان ؟ – قد يغدر بك احدهما ، ويغدر الآخر بولدك !

– ألى هذا الحد أيها الأمير ؟

– أجل الى هذا الحد ، وليس لك ان تظن أني من اولئك الوشاة الذين يطيب لهم ان يشعلوا النار .

قال : خذها مني كلمة جريئة أقولها ولو فاجأني بعدها الموت . قال : هات ..

قال : ما صدقت كلمة مما قلت ! مع انه كان قد صدق كل ما سمع .

فقهقه الضحاك ثم قال : اغض الطرف عن الاهانة واغفر لك ذنبك .. ولكن ماذا تقول اذا أعدت عليك كلاماً قلته انت ، وقاله شبث في منزل سليمان ، قبل أن اجيء انا الى الكوفة ؟

– اسكت عندئذ وانا واثق بك .

قال : تحدثتم بأمر البيعة عندما بلغ خبرها العراق . – نعم .

– وقال احدكم : سيسألنا امير المؤمنين أو احد من عماله ان نبايع . – نعم .

فقال شبث : تقضي علينا السياسة بأن نعطي البيعة ، ونبقى على العهد .

– أي عهد ؟

– عهد الشيعة ، أما انت فكنت تقول والله لا أبايع ولو رأيت الموت بعيني .. ثم قلت : اذا خفت ان يكرهوني على الأمر رحلت الى الحجاز . أصحيح هذا ؟

فكره ذلك البطل ان يتردد في الجواب ، وفي التردد خوف ، فقال : صحيح ..

– ورأيت الآن اني مطلع على الأسرار ؟ – نعم رأيت .

— وتعتقد يا ابن عوسجة ، اني استطيع الآن ، وفي هذه اللحظة ، ان آمر رجال الشرط بأن يحملوك الى السجن ، ويخرجوا بعد ذلك الى منازل المتشيعين فيقبضوا عليهم جميعهم واحداً بعد واحد قبل ان يرتفع لهم صوت ؟

— القوة في يدك ، ومعاوية من ورائك ، فأنت قادر على كل ما ذكرت .

— ولكنك تراني ساكتاً ، ادعو الى منزلي عدو الخلافة ، وأحادثه ، وابتسم له ، وهذا العدو هو انت !

فملأت العقيدة الراسخة ، صدر ذلك الرجل ، جرأة وقوة ، وهو يعلم انه كوفيٌّ ضعيف ماثل امام اعظم رجل في الكوفة ، فقال : لا ادري اي شيء يوحي الى الأمير بهذا الحلم .. أتخاف الفتنة ؟

— ومن يحمل لواء الفتنة والسلاح في ايدي الجند ؟

— يحمله بنو أسد وتميم وزبيد وغير هؤلاء .

— ولكنهم لا يثبتون في المجال .

— اجل لا يثبتون فجيش معاوية لا يغلب.ولو كنت انا عامل الكوفة لقبضت على مسلم بن عوسجة ، وأمرت رجالي بأن يهاجموا منازل رفاقه ويقيدوا اصحابها بالحديد فينتهي الأمر .

— تقول هذا يا مسلم وانت غير خائف ؟

— ولماذا اخاف ايها الأمير والحق لي وليس لك ؟

قال : دعنا الآن من ذكر الحق فنحن لا نعرض له ، وخبرني بما تحس به في هذه الساعة . — احس الليلة اني ارسخ قدماً واقوى ايماناً مني امس !!

فقال وهو معجب بصلابته ورباطة جأشه : وشبث بن ربعي ؟

— اما شبث فله شأنه وسأحذره كما قلت .

— واحذر الربيع فهو اشد حقداً منه ، ثم قال : وهل عولت على ان تخبر ابن ربعي ما سمعت ؟ — اذا امرني الأمير بأن اعاتبه فعلت .

إذن تظن انه هو الذي نقل اليَّ اخبار الشيعة .

— بل انا مؤمن بأنه الفاعل ..

قال : اخطأت فشبث لا يراني ولا أراه ، إلا في وضح النهار ، والمجلس يغص بالناس ..   — ومن هو الساعي برجال الشيعة ؟
- اتكتم الناس اسمه إذا ذكرته لك ؟
- يكفي أن اعرف انا هذا الاسم فالناس لا شأن لهم به ..
- إنه الربيع بن شبث !..

فجعل يقول : الربيع بن شبث . . . الربيع . . ثم ذكر قول ولده عبد الرحمن : ان الربيع يخون الشيعة ، وان الحقد يطل من عينيه ، ثم قال : ويخطر للربيع أن يغدر بنا ؟   — قد يخطر له ان يفعل كل شيء ليبلغ غايته .
— وما هي هذه الغاية ؟   — الحصول على امامة ..
— وهو يريد أن يسلبنا إياها ؟   — هذا ما يفكر فيه .
- انه لا يستطيع ان يفعل ذلك إلا اذا قتل عبد الرحمن وقتل أبوه ..
— أو إذا أمر أمير المؤمنين بإخراج الاثنين من العراق ..
- وهل يأمر معاوية بذلك ؟.
- من يعلم فقد يعمد الى مثل هذا .   — ومن يحمله عليه ؟
- شبث نفسه فقد يقدر الربيع على جعله من أتباع معاوية ..!
- إذن فليسجن عامل الكوفة مسلماً ، وليبعده معاوية الى أقاصي الأرض..

وليقتله شبث بن ربعي في ظلام الليل ... إنا لله وإنا اليه راجعون . . . ثم قال : لقد دارت الدوائر على مسلم بن عوسجة ولكنه يستعين بالله ...

ونهض قائلاً : ليأذن لي الأمير في الانصراف .

قال : اجلس فلا نأذن لك إلا إذا خبرتنا بما يتردد في صدرك .
- وبماذا أخبرك وفي الصدر عواطف هائجة لا أعلم ما هي ..

قال : أخشى أن ترى ابن ربعي فتبدر منك بادرة غضب ..
- وماذا يحدث أيها الأمير إن فعلت ؟

– تمتد يـد شبث الى سيفه ثم تسيل الدمـــاء . فهمّ بالكلام ثم سكت وهو يبتسم . . .

فقال الضحاك : ماذا تريد أن تقول ؟

– أريد أن اقول ان هـذه الدماء عندما تسيل في ساحات الكوفـة يهتز لها فرحاً قلب معاوية وهو في الخضراء . . !!

– كأنك تقول أن معاوية يريد ذلك وهو الذي أمر عامل الكوفة بأن يوغر الصدور ويفسد بين رجال الشيعة ؟!

قال : لم يخطر لي أن اتهم معاوية بهذا فهو قادر على الأمر من وجـه آخر . . قلت انه يطيب نفساً إذا رأى دماء المتشيعين تسيل في الساحات وانا لا ألومه .

– وما الذي يمنعه من أن يهرق الدماء بسيوف رجاله ؟

– لا يحب ان ينفر المسلمين بسيف الظلم .

قال : تبغض معاوية وهو لا يضمر لك غـــير الحب وأنا أرى ان الحادثات ستقضي عليك بعد حين ، بأن تضع يدك بيده . .

قال : يخلق الله أيها الأمير ما لم نعلم ، فالى اللقاء .

وصافحه وخرج وركبتاه ترتجفان ، والغضب يملأ صدره . .

وكان الضحـاك يقول في نفسه : سيدب الخلاف في الصفوف إذا عاتب مسلم ابن ربعي ، وهذا ما أرغب فيه . .

وبينا هو يهم بالذهـــاب الى المنزل ، أقبل كبير حجابه يقول : ما رأيت يا مولاي ، في كل ما رأيت ، رجلاً صلب العود مثل هذا الأسدي .

– وهل سمعت قوله ؟

– سمعت كل شيء ، وأنا اظن ان رجال الشيعة سيتفرقون .

– تتفرق الشيعة إذا تعاتب الرجلان وخرج العتاب عن حده .

– وهذا العتاب يا مولاي لا بد منه . .

قال : سنرى . . فاحفظ ما سمعت ولا تبح به لأحد من الناس .

ودخل منزله وهو معجب بنفسه ، والخيلاء في بردتيه . .

٢

مثل بين يدي معاوية ، في الخضراء ، رجل أرسله الضحـــاك بن قيس وهو يحمل كتاباً منه الى امير المؤمنين ، والكتاب في يد يزيد وهو يقرأ : أما بعــد فإن الخوارج الذين كانوا في سجن المغيرة بن شعبة ، بايعوا حيان بن ظبيان وقد بلغني أنهم سيخرجون الى بانقيا فمُر بما اصنع .. !

فاكفهر وجه معاوية ، ثم استوى جالساً وجعل يقول :

بايعوا حيان بن ظبيان .. وطاب للضحاك بعد هذه المبايعة أن يسأل أمـير المؤمنين عما يصنع . !

وظهر الغضب في عينيه ثم قال للرسول : هذا كتاب أميرك ؟

– نعم يا أمير المؤمنين . – ولم يقل لك كلاماً تنقله الينا ؟

– بلى ، أمرني بأن أخبرك ما جرى بينه وبين رجال الشيعة ..

– وماذا جرى ؟ – قربهم اليه وجعل لهم المقاعد الخاصة في مجلسه ..

– ثم ماذا ؟ – ثم جعل أحدهم عينا عليهم يطلعه على الأسرار .

– أصاب ، وماذا أيضاً ؟

– أوغر صدر مسلم بن عوسجة ، على شبث بن ربعي وولده الربيع .

– ويلك وأي شيء دعاه الى ذلك ؟ – رغبته في إيقاد النار .

فرفع صوته قائلاً : ولكن هذه النار ستحرق الضحاك نفسه ..

فقال يزيد : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟

قال : يظن الضحاك أن مسلماً سيخرج من قصر الامارة وهـو ثائر على شبث ومن وراءه من المتشيعين ، وأن السيف سيكون الرسول بين الاثنين ..

– وأنا اظن مثل ظنه .

– ولكنك مخطىء فابن عوسجة داهية بعيد النظر لا يسقط في الشرك الذي

نصبه له ، ولا يستسلم الى الغضب .

– ومع ذلك فأنا أرى انه سيعتب ابن ربعي .

– إذا عتبه فكالأخ يعتب أخاه ثم ينتهي الامر بينهما الى ما يحبان .

قال : نسيت يا أمير المؤمنين أن الربيع عدو الشيعة .

فقال للرسول : اخرج ، ثم قال ليزيد : بل نسيت انت ان الربيع عاشق.. وانه عدو عبد الرحمن ليس غير .

قال : لو كان على دعوة القوم لما رضي بأن ينقل أخبارهم الى الضحاك ..

– يفعل ذلك ليغضب أمير المؤمنين على مسلم ، فيأمر بقتله أو بإبعاده فيخلو له الجو ، وتمسي الزبيدية زوجة له .

قال : لو أذن لي أمير المؤمنين لأمرت اليوم بابعاد مسلم ..

– وما هي الغاية من هذا الابعاد ؟ – القاء الهيبة في نفوس القوم .

– تبعد مسلماً وتترك الآخرين فتهب لمسلم سلاحاً جديداً ، وصلابة في العقيدة لا يعقبها لين وقد ينشر دعوته في البلد الذي يرحل اليه .

– ولكن الشيعة تلين بعد إبعاده .

– بل تشتد ففيها رجال مثل مسلم .. انه رأي عامل ضعيف يتردد في أمره وليس عنده أثر من آثار الدهاء . ثم قال : لقد ضيع عامل الكوفة أمله بأمرين اثنين ، أحدهما ان الربيع لن يستطيع بعد أن فضحه ، أن يكون عيناً له على المتشيعين . – والآخر ؟

– اما الآخر فالشيعة التي وثقت بالضحاك ستسترد ثقتها منه ، ويقوم في ذهنها انه الوالي الذي لا يعرف شيئاً من امور الناس .. وهذا يكفي ..

– اذا كان هذا فاضرب الشيعة يا امير المؤمنين ..

– نؤثر أن نستميل القائمين بها ، بقوة الدهاء والحلم ، على أن نخمد أصواتهم بحراب الجنود .. ما رأيك يا سرجون ؟

– في الشيعة أم في ضعف الضحاك يا مولانا ؟ – في الأمرين .

– أما الشيعة فقد قتلها الضحاك بسعايته ، من ناحية لم تخطر له .

– دلنا على هذه الناحية .

– اذا فضح مسلم أمر الربيع بن شبث ، عرفت الشيعة جميعها أن الفتى من الأعداء .. ألا ترى هذا يا أمير المؤمنين ؟ – بلى .

– واذا احتفظ بسره ، كان احتفاظه دهاء .. ولكن هذا الدهاء لا يمنعه من أن ينظر الى الربيع ثم إلى شبث ، نظره الى عدوين ... وأنت تعلم يا أمير المؤمنين ان صبر الرجل ، على عدوه ، لا يطول عمره ..

– تريد أن تقول أن الخلاف لا بد منه . – نعم .

قال : لأمير المؤمنين رأي آخر هو أن المتشيعين سيخرجون الربيع من صفهم وينتهي الأمر ...

– ويفعلون ذلك برضى أبيه ؟ – لا نعلم فظن ما تشاء .

قال : اما أن يطرد الربيع وشبث راض فلا .. إن ابن ربعي لا ينام على هذا الذل .. – إذن يطرد الاثنان .

وتكون الفتنة عندئذ وهذا ما يريده مولانا الخليفة . ثم قال : لا تنس يا مولانا أن انصار شبث في الشيعة ، اكثر عدداً من أنصار مسلم .

– أنت تعني اولئك المتشيعين المترددين ..

– لا أعني سواهم . – وتظن انهم سينتصرون للرجل .

– هذا ما يبدو لي إلا إذا احتفظ مسلم بسره واستطاع أن يصبر على عدوه كما قلت .

قال : يكفي أن تعلم ان الضحاك نفر الربيع وقد كان من أعوانه فضيع بذلك هيبة الامارة والخلافة في وقت واحد ... ورأيك في الخوارج ؟

– أما الخوارج فقد شاورك الضحاك في أمرهم وهذا خير ما يلجأ اليه ...

قال : نراك تحسن الدفاع عن الوالي الضعيف ..

– بل أقول ما اعلم يا مولانا . – وأين هو الخير الذي لجأ اليه صاحبك ؟

– لم يشأ ان يخرج الى قتال الخوارج إلا إذا أمرته بذلك .

قال : لو خطر لحيان بن ظبيان أن يهاجم الكوفة فماذا يفعل الضحاك ؟

– يبرز عندئذ الى الساحة . – وكيف يحمل السيف قبل أن نأمره بحمله ؟
فتردد في الجواب .. فقال معاوية : صف لنا الخوارج يا سرجون .
– انهم فئة أنكرت التحكيم ثم خرجت عن الطاعة .
– وما هو جزاء من يخرج عن الطاعة ؟ – الموت ..
– اذن فحيان بن ظبيان الذي بايعه القوم يجب أن يقتل .
– نعم يا أمير المؤمنين .
– ومن يتولى أمر قتله ؟.. الخليفة أم عماله ؟ – العمال الذين ذكرت .
قال : لنفترض ان أمير المؤمنين عهد اليك في أمور الخلافة شهراً واحداً ثم عرفت أن عامل الكوفة يتردد في الخروج الى قتال حيان ، فماذا تكتب اليه ؟

فسكت سرجون ، وهو واثق بأن دفاعه كان واهياً ، وكان عبد الرحمن بن عبد الله ، بن عثمان الثقفي ، في مجلس معاوية ، وهو ابن اخته ام الحكم ، وام الحكم في الخضراء ، وكانت قد سألت أخاها غير مرة ، أن يرفع مقام ولدها ويوليه ، ولكن عبد الرحمن ، رجل مستهتر سيء السيرة والخلق ، ومعاوية لا يولي غير الأكفاء المخلصين ، رجال السيف والرأي ، فلما سكت سرجون ، جعل معاوية ينظر الى جانبيه ، ثم اومأ الى من في المجلس بأن يخرجوا ، إلا عبد الرحمن وولي العهد وسرجون .

ثم قال لعبد الرحمن : لقد طلبت الينا أمك أن نجعلك عاملاً لنا وكنا نرد عليها طلبها والألم في القلب ، والكآبة في النفس ، أتعرف لماذا ؟
– لماذا يا أمير المؤمنين ؟
– لأنك من أولئك الفتيان الذين لا يطلبون في حياتهم غير اللذة ..
فرفع المستهتر رأسه قائلاً : لو كانت لي ولاية أرفع رأسي بها بين القوم لما كنت كما وصفت .

فابتسم وقال : لا تخلق الولاية رجلاً بل تخلق الرجال الولايات .. أتعدنا الآن بترك ماضيك الذي لا خير فيه ؟ – أفعل ما يأمرني به أمير المؤمنين .
– نأمرك بأن تعرف مقام نفسك وتذكر دائماً انك ابن أم الحكم ..

فأيقن سرجون بأنه سيوليه الكوفة وهو أمر لا يرضي أهـل الكوفة بل لا يرضي أحداً من الناس، فقال : لا يصلح للكوفة غير الرجال الذين لهم عزيمة زياد..

قال : رحم الله زياداً .. ولكن سيأتي يوم يولي فيه عبد الله بن زياد فقد بدا لنا أن له حزم أبيه ، وصلابته ، وقوة إرادته .

– وتولي اليوم عبد الرحمن ؟ — أجل .

قال : لي كلمة أقولها إذا أذن امير المؤمنين . — قل .

– وتضمن لي رضى اختك أم الحكم ؟ — نضمن ذلك .

قال : إذا أردت ان تنظر من جديد، في أمر الكوفة ، فدع عبد الرحمن !..

– تريد أن تقول ان عبد الرحمن لم يكن قط من الأمراء ...

– بل أريد ان اقول أنه اضعف من أن يتولى أمر الكوفيين .

– ولكنه وعدنا بترك ماضيه .

– الوعد شيء والبر فيـه شيء آخر وليس لك إلا ان تختار رجلاً لا تذكر مع حيلته ودهائه ، حيل الخوارج ودهاء المتشيعين .

قال : يطيب لنا أن نجرب عبد الرحمن بضعة أشهر .

– نخشى أن نهدم في هذه الأشهر ما بناه الضحاك .

– وهذا ايضاً دفاع عن رجل نهمّ بعزله .. لقد قال عبـد الرحمن الآن أن الامارة ستجعله من الرجال وقد اكتفينا بقوله ... ادعُ أم الحكم يا سعد .

فخرج كبير الحجاب يدعوها الى المجلس ولم تلبث حتى أقبلت وهي تقول : لو لم يكن لأمير المؤمنين كلام يتعلق بولدي عبد الرحمن لما دعاني الى مجلسه .

قال : نعم الأمر يتعلق بعبد الرحمن ، فاجلسي ... تكلم يا سرجون .

– أنا ؟ — أجل ، وخبر أم الحكم ما سمعت .

– واذكر لها ما نقله الرسول اليك ؟ — اذكر كل شيء .

قال : جاء رجل من الكوفة يحمل الى أمير المؤمنين كتاباً من الضحاك يقول له فيـه : ان الخوارج سيجتمعون في مكانٍ سمـاه له ، وقد بايعوا أحـدهم حيان بن ظبيان .

فنظرت الى القوم وهي لم تفهم ما يقوله ذلك الرومي ثم جعلت تقول : وقد بايعوا حيان بن ظبيان وأمير المؤمنين يسأل ام الحكم أن تبدي رأيها في هـــذه المبايعة أليس كذلك ؟

– لا ، بل يسألها سرجون الرومي أن تصبر حتى تسمع حكاية الكوفة ..

– إني صابرة ...

– ثم خبر الرسول أمير المؤمنين حـكاية أخرى جرت بين الضحاك وأهـل الشيعة ، فغضب أمير المؤمنين على عامله وأراد أن يعزله ... أفهمت الآن ؟

– أما الآن فقد فهمت ..

– وقد دعاك اليه ليقول لك بالصراحة التي تعلمين ، ان ولدك عبد الرحمن لا يصلح للامارة بل لا يصلح لأمر من أمور الدولة ولو كانت له صفات الرجال لولا"ه.

فقال معاوية : كذب اللعين فهو الذي قال ذلك ..

قالت : يا أمير المؤمنين ، تذل ابن اختك على مسمع من القوم وأنت معاوية ؟

قال : لا تصدقيه فهو أكذب الناس ونحن لم نقل ما ذكره الآن ..

فوضع سرجون يده على جبينه ثم قال : لقد ذكرت كلام أمـير المؤمنين وأنا أعيده عليك الساعة .. لقــد قال : ان عبد الرحمن من اولئك الفتيــان الذين لا يطلبون في حياتهم غـير اللذة .. نعم .. هذا ما قاله أمـير المؤمنين وأظن انه سيرد"ده الساعة ..

فضربه بوسادة كانت بـين يديه وقال لأخته : لا يخطر لأم الحكم أن اخاهـا يسيء الى عبد الرحمن .

– وهل يخطر لها أن سرجون يجسر على الاساءة اليه وأمير المؤمنين حاضر؟.

قال : أمرناك ان تخبرها ما سمعت فكذبت ... قل انك كاذب .

– كلمة صعبة يا مولانا .. لتسأل ام الحكم ابنها .

فقالت لعبد الرحمن : قل ما تعلم .

قال : كان أمـير المؤمنين ينصح لي بأن أترك الماضي ، أمـا هذا فقـد كان مفتاح الشر ...

فضحك الجميع ثم قال معاوية لأم الحكم : لقد ترك سرجون المزاح الآن فماذا ترين ؟

– في أي شيء ؟ – في أمر عبد الرحمن أنوليه الكوفة ؟

– اذا فعل أمير المؤمنين فقد غمرني بفضله .

– ولكن يجب ان تعلمي ان الشيعة في قلب الكوفة والخوارج حولها ، وأن على عبد الرحمن ان يتصدى للفئتين بدهائه وسيفه ..

قالت : لا خير فيه إن لم يفعل ما يرضي أمير المؤمنين .

فقال سرجون : أعود فأقول لمولانا الخليفة أن الكوفة تحتاج الى رجل اصلب عوداً واكثر دهاء من ابن اخته . فقالت أم الحكم : لا تعرض لولدي يا سرجون.

قال : أنا لا اعرض للأشخاص ولكني انظر باخلاص الى هذه الدولة التي يرأسها اخوك وأكره أن يفضحها مظهر من مظاهر الضعف .

قالت : سيكون ولدي أقوى على الأمر من الضحاك .

– ان العين التي ترين بها عبد الرحمن لا يراه بها وزير أمير المؤمنين .. تقولين أن عبد الرحمن أقوى على الأمر من ابن قيس وأنا ارى انه سيتعثر بالفشل والخيبة في أول شهر . – ولمَ ذلك ؟

– لأن الكوفة تخلق الفتنة في كل ساعة ، ولأن الأعداء ، أعداء الخلافة ، يتغللون في احيائها ، ويحيطون بها من النواحي الاربع ، وعبد الرحمن لم يكن قط من رجال السياسة ورجال السيف ولم يألف حياة العمال والأمراء .

– وأي حادث يحدث للدولة إذا امسى من عمالها ؟

– لا تهتز أركان الخلافة ولا يميد العرش .. ولكن يقول الناس ، في جميع الاقطار : عاد الخوارج الى الظهور وامتدت دعوة الشيعة ، والعار ، في مثل هذا القول .

فقال عبد الرحمن : إن لي عدواً بين رجال بلاطك يا أمير المؤمنين .

– لا يا بني ، ليس سرجون عدواً لك ولكنه يعرف ما في الكوفة ..

ونظر الى سرجون قائلاً : كفى ، فقد عزلنا الضحاك ولكن لا يبلغه خبر

عزله إلا بعد ان يقيم عبد الرحمن بيننا بضعة أشهر يحاول في خلالها ان ينسى ماضيه . . ويحسن سيرته . . واكتب أنت الى عامل الكوفة جواباً عن كتابه في هذا المساء .

فرأى سرجون ان الأمر قد انتهى فقال : وماذا اكتب يا مولانا ؟

– اكتب الآن : أما الخوارج ، فاضربهم ، اذا اجتمعوا ، ضربة لا يرتفع لهم بعدها صوت ، واما فيما يعني الشيعة فلا تنسَ ما أمرناك به ولا تضيع آمال أمير المؤمنين .

ثم هامس اخته قائلاً : أرضيت الآن ؟

– الشكر لك يا أمير المؤمنين .

– ولكننا نخشى ما يخشاه سرجون فأهل الكوفة أهل سياسة وفتنة .

– يكفي أن يعلم الناس انه ابن اختك وانك تعطف عليه .

قال : إذا رأيناه أهلاً للامارة جعلنا الكوفة ، ما بقينا ، مقاماً له . . .

وقال لعبد الرحمن أما انت فسيعلم الناس عند غروب الشمس ، أنك أمسيت من الأمراء .

وكان يزيد ساكتاً فقال له : يظهر أنك لا تريد أن يكون لك رأي في هذا .

– كنت معجباً برأي امير المؤمنين وإني لأرى العزل أقل ما يستحقه الضحاك بن قيس .

قال : لا ننسى فضل الضحاك ولو عزلناه ، ألم ترَ أنه كان اسبق الناس الى البيعة ، وهو الذي تولى امرها في هذا المجلس وبين وفود المسلمين ؟ – ما نسيت ذلك.

– ويجب أن تعلم يا بني أنك لا تجد بين الرجال المخلصين لدولتك ، اثنين أو ثلاثة لهم إخلاص الضحاك ، ووفاؤه وجرأته .

فأطرق وجعل يقول : هذا صحيح يا أمير المؤمنين فلا تعزله . . !

فابتسم الداهية بمرارة وألم ثم قال : تطلب عزله يا يزيد ثم تعدل عن طلبك ، في لحظة واحدة ؟

– عفواً يا أمير المؤمنين فهي بادرة غضب . .

– وفي أي شيء استحق الضحاك غضبك ؟
– في هذا السؤال الذي وجهه اليك عن الخوارج .
قال انه سؤال ضعف لا يحجب الإخلاص والوفـاء ، واذا عزلناه فلكي ندله على ضعفه ، عندما يتجهّم له وجـه الزمان . . ثم قال : احفظ كلمتنا هـذه ولا تلسَ : ان الضحاك خـير الرجال وخـير الأنصار ولننصرف الآن ، وخرج الى الرواق وأم الحكم تقول في سرها : وانا اخشى ما يخشاه امـير المؤمنين فعبد الرحمن لا يصلح للامارة . . . !

٣

بات مسلم بن عوسجة ليلته دون ان يرى احداً من رفاقه ، وكان مضطرباً ولم يغمض له جفن ، فلما طلع الصباح ، خرج مع ولده الى منزل هانىء ، والابتسامة على شفتيه ، ولكن النار تتأجج في صدره ، حتى دخل الاثنان ولقيا هانئا وعمراً على احدى الشرفات .

فقال هانىء : لا تخرج صباحاً يا مسلم إلا لأمر .. اين كنت امس ؟
واقبلت النساء الثلاث في تلك اللحظة ، فقال : كنت في قصر الامارة . .
– عند الضحاك ؟ – اجل وكانت هنالك اسرار . .
قال : ليس بينك وبين الضحاك سر . . ومن رأيت في مجلسه ؟
– طائفة من الأمويين وانصارهم .
فقال عمرو : يجب ان يقال ان الضحاك خير العمال الذين تولوا أمر الكوفة ؟
– بل هو اخبث هؤلاء العمال واكثرهم حيلة .
– أيكون خبيثاً ، هذا الظل الخفيف ، الذي نراه ؟
– بل قل انه مكر وخداع .

– يظهر ان الأمر الذي تحدثتما به ، اعظم مما أظن ؟

– بل هو اعظم امور الشيعة منذ وجدت الى اليوم ..

فمد عبد الرحمن والنساء اعناقهم ليسمعوا ما يقرله ، ودنا هانىء منه وهو ينظر اليه نظرات الاستغراب ثم قال : اعظم امور الشيعة منذ وجدت ؟؟

– نعم . – وما هو ؟

– هو ان هذا العامل الذي لا تفارق الابتسامة ثغره ، يعرف كل ما يقال في منزل سليمان بن صرد لا تفوته كلمة . !

فضحك قائلاً : وهذا هو الأمر العظيم الذي ذكرت ؟ ان جميع العمال يعلمون ما يعلم ، وانت ترى ان رجال الشرط عيون له .

– وماذا تقول الآن اذا عرفت ان عيونه لم يكونوا من رجال الشرط ؟

– اقول انهم من انصار معاوية .. – واذا لم يكونوا من هؤلاء ؟

فتردد قليلاً ثم قال : اذن فالضحاك نفسه هو الذي يطوف في الليل ، حول منزل سليمان ، ليسمع اقوال رجال الشيعة ويحصي عليهم الأنفاس .

فجعل يهز رأسه وهو لا يقول كلمة .

فقال عبد الرحمن : اما انا فقد عرفت ..

ثم رفع صوته قائلاً : عرفت ان في رجال الشيعة نماماً يسعى بنا عند الضحاك هو الربيع بن شبث !!

فخفقت القلوب ، واتجهت النظرات الى مسلم ..

فقال : صدق والله عبد الرحمن . . . ان ابن شبث ينم علينا ويبوح لعامل الكوفة بجميع الأسرار !

قال : ألم اقل لك يا ابي ، يوم خطبت امامة ، ان هذا الفتى ينظر الينا كما ينظر المرء الى عدوه ، وهو لا يلبث حتى يخون الشيعة ؟

– بلى قلت ذلك ، ولم يخطر لي في ذلك الحين ، ان الحسد والكبرياء يدفعانه الى هذا الحد . – والآن ؟

– اما الآن فقد امسى الربيع من انصار معاوية وانتهى الأمر .

فقال عمرو : ومن قال لك هذا ؟ — الضحاك .

— وذكر لك شبث بن ربعي ؟

— ذكره لي ولكنه لم يقل انه يشارك ولده في الوشاية .

— يخيل الي ان ابن قيس الذي وثقنا به ، يخدع الشيعة . — بماذا ؟

— بهذا الحديث الذي نقله اليك .

— اي انك تظن ان الربيع بريء . — نعم .

فابتسم قائلاً : ولكن هـذه البراءة ستضمحل من نفسك بعد ساعة ، أتذكر يا عمرو اننا تحدثنا بأمر البيعة وكان لي في ذلك رأي هو غير رأيك ورأي شبث؟

— نعم .

— وتذكر قولي اني سأرحل مع اهـلي الى الحجاز إذا اكرهنا الأمويون على المبايعة ؟ — نعم .

— واعتقد انك لم تنس رغبتي في الدفاع عن الشيعة بقوة السيف ؟.

— لم انس ذلك .

— إذن فاعلم ان الضحاك يعيد عليك الألفاظ التي قلتها انا وقلتها انت وقالها شبث دون ان يتردد في لفظة واحدة .

— وهذا يعني ان رجاله يحفظون ما يقال وينقلونه اليه .

— وهل يقوم في الذهن ان الضحاك يسمي لك الربيع والربيع من الأبرياء .

— اجل ، يفعل ذلك ليزرع الفتنة ثم يحصد الظفر ..

قال : ما تقول يا هانىء ؟

— انظروا في أمر شبث قبل ان تنظروا في امر ولده . — من اي وجه ؟

— من هذا الوجه الذي تتحدثون به الآن .. اني واثق بما ذكره الضحاك عن الربيع ، ولكني لا أريد ان اظن ان لشبث يداً في الخيانة .

فقال عبد الرحمن : لي رأي في ذلك .

فأسكته ابوه قائلاً : هو الرأي الذي أبديته لي بعد الخطبة ؟ — اجل .

قال : اسمع الآن ما يقال واترك رأيك .. وماذا تظن انت يا عمرو ؟

– عندما يثبت ان الربيع هو الواشي ، يثبت لنا في الوقت نفسه ان أباه لا علم له بما يصنع . – واي دليل لك ؟

– منزلة شبث وماضيه ، وبعده عن معاوية وانضمامه الى الشيعة وقد كان من الخوارج كما تعلم .

– اما بعده عن معاوية فالربيع بعيد مثله وقد انضمَّ الى الشيعة كما انضم ابوه. واما ماضيه ، فماضٍ تغيرت فيه الآراء والوجوه ، في عهد علي وعهد معاوية .

– إذن فأنت تتهمه بالخروج عن الدعوة .

– لا ، ولكني اعتقد انه إن لم يخرج اليوم خرج غداً .

– انها ظنون تقتل الشيعة يا مسلم .

– لقد لمست هذه الظنون بيديّ الاثنتين .

قال : بقي عليك ان تعمد الى الصراحة في الامر .

– اي ان أخبر الرجل بما فعله ابنه . – نعم .

– ولكن هذه الصراحة التي تنصح لي بها هي الغاية التي يسعى اليها الضحاك.

– وكيف ذلك ؟

– أتظن ان الحب هو الذي أملى على الضحاك ان يفضح الربيع ؟

– بل اعتقد ان الدهاء هو الذي املى عليه ان يفعل .

– إذن فالضحاك يريد ان اعاتب شبث بن ربعي ، فيدافع شبث عن ولده ، ويخطر له عندئذ أني العب بالنار لغاية لي .

– ولكنك تنقل اليه حكاية الضحاك ، فيحني رأسه للحق ، ثم يدعو ولده ويسأله على مسمع من الرفاق .

– بل يمشي مضطرباً ثائراً الى قصر الامارة ، ليسأل الأمير عن حكايته ، وهذه هي الفضيحة ، بل هذه هي الفتنة . – وماذا تصنع إذن ؟

– احفظ سري في الصدر لا ابوح به لأحد ، واستحلفكم بالله والشرف أن تحفظوه مثلي ، ثم أعد عدة الرحيل وانا هادىء مطمئن النفس .

– الى اين ؟ – الى الحجاز !!

فاصفر وجه امامة وخفق قلب عبد الرحمن ، الى الحجـاز .. انه إذن فراق قد لا يعقبه لقاء ، وتلألأ الحب في العيون ، ثم حبسا أنفاسهما ليحفظا الكلمات التي تقذف بها الشفاه .

فقال هانيء : أتفر من وجه الربيع بن شبث وانت ابن عوسجة ؟

– بل افرُ من معاوية الذي ينظر اليّ اليوم كما كان ينظر الى حجر بن عدي.. بل افر من الموت ، الذي سينشب مخالبه في عنقيَ ، اذا بقيت في الكوفة .

قال : أتخاف الموت وانت في الكوفة ، ولم تخف منه قط وانت في الميادين ؟

– اجل أخافه لأني اريد ان احيا من اجل عبد الرحمن .. كما اريد ان ارى امامة زوجة له . – ستحيا وترى ذلك وانت بيننا .

– قلت ان الموت يمشي في أثري اليوم . – ومن دلـّك عليه ؟

– ذلك الذي دلني على خيانة ابن شبث .. اسمع يا هـانيء واسمع يا عمرو ان العيون ، عيون معـاوية والضحاك ، ترسل اليّ اليوم شعاعاً من نار .. وانا اخشى ان تمتد اليّ في ساعة لا أعلمها ، يد الجلاد الذي ضرب عنق حجر .

– ستمتد يد الجلاد الينا جميعنا عندما تمتد اليك .

قال : ليس في الساحة اليوم غير فارس واحد هو مسلم بن عوسجة .. ان مسلماً هو الذي يدعو الشيعة الى الفتنــة ، والى حمل السيف ، والى تحطيم عرش الأموي المغتصب ، وهو الذي يمنع الناس من ان يبايعوا ولي عهده . . اجل مسلم وحده هو الذي يفعل كل هذا ، وشبث بن ربعي يعرض لي ، ويدعو الشيعــة في الوقت نفسه ، الى الهدوء وسيحملها بنفوذه وفصاحة لسانه ، الى اعطاء البيعة.. أفهمتم الآن ؟ – والله انها لحكاية رهيبة رواها الضحاك لك ..

– نعم ، رهيبة وطويلة .. فهي تتناول الشيعة وأسرارها منذ شب الربيع اللعين .وانا لا اعلم وانتم لا تعلمون ، متى تنتهي هذه الحكاية بالموت الذي وصفت.

قال : يحاول الفتى ان يجعل اباه في صفوف الامويين ؟

– بل يظهر لعامل الكوفة ان أباه صديق الشيعــة في الظاهر ، وعدوها من وراء الستار ، وان معـاوية إذا ندب الناس الى حرب ، كان شبث بن ربعي في

طليعة جيشه ، يضرب بسيفه ، ويدافع عن عرشه !! — ونحن ؟

— اما انتم فمن انصار شبث ، ومن اتباعه ، وليس في الشيعة من يرى رأي مسلم غير فتى ورجلين ، هم عبد الرحمن هـذا ، وحبيب بن مطهر ، وسويد بن المطاع .. ثم قال : هذا ما قاله الضحاك ، وهو قول صحيح كما ترون ، فقد كنتم جميعكم من انصار شبث ، وكنت انا والثلاثة الذين ذكرت ، نهم بحمل السيف ، ونلعن القائمين بالبيعة ليزيد

فقال عمرو : لو لم نخف ان يفرق معاوية المتشيعين ، لما رأينا ذلك الرأي .

— ولكن الربيع استغل الموقف لمصلحة ابيه ، وسأل الأمير ان يأمر بأخذ البيعة من الشيعة فيثبت له عندئذ انه كان صادقاً فيما نقله اليه .

— ولماذا لم يأمر الضحاك بما اشار عليه به ؟

— لأن معاوية لم يرد ان يكون للمتشيعين يدٌ في المبايعة وقد اراد بذلك ان يظهر لمن حوله ان الشيعة فئة ضعيفة لا شأن لها ولا صوت .

— ولم يعلم الضحاك ما هي غاية الربيع من السعاية ؟

— عرف الضحاك كل شيء بعد ان باح له النمام بكل شيء ..

— وما هي غايته ؟

— ان يملأ قلب الضحاك وقلب معاوية غضباً على مسلم وولده ، فيأمر معاوية عندئذ بقتل الاثنين او بابعادهما عن الكوفة .. — وبعد ذلك ؟

— يخلو الجو بعد ذلك للربيع وتمسي امامة له .

فتفجر الدمع من عيني الفتاة وهي لا تحاول ان تخفيه ، اما عبد الرحمن فلم يبك ، بل كان في تلك الساعة نمراً جريحاً يهم بالوثوب ، ثم سمعوه يقول : بيني وبين الربيع النذل هذا السيف .

فقال مسلم : اسكت يا عبد الرحمن .

قال : يحاول التميمي الغدار ان يسلبني حياتي لتكون امامة له ، وتأمرني بأن اسكت ؟

— واي شأن للسيف الآن ؟ أرأيت اباك في هذه الساعة ، يحارب الناس

مسلحين بالسيوف .

لا ... ولكني رأيته يشير الى الموت ، الذي يدفعه الربيع ، الينا بيديه الاثنين .. — وعلى أي شيء عولت ؟

على ان أرسل اليه هذا الموت فتسلم الشيعة .

فأراد ان يمازحه لتخف لوعته ولوعة امامة ، فقال : وهل تستطيع يا بني ان تظفر بالربيع ، وانت فتى لم تبلغ الثامنة عشرة ، وهو من الأبطال ؟

قال : ليست الشجاعة في عدد السنين يا مولاي .

— ولكنها في التجارب ، وانت لم تشهد حرباً ولم تقتحم الخيل .

قال : احس انها في هذا القلب ، وسأقتل عدوي . — وكيف تقتله ؟

— أدعوه إذا لقيته ، الى الدفاع عن نفسه ، ثم أفاجئه بسيفي .

وأنت واثق بقوتك ؟ — أجل ، وسيتحدث الناس غداً بهذه القوة .

قال : احذر أن تفعل ، فالشيعة اليوم ، أحوج الى الاتحاد والهدوء منها الى القتال . — ولكن الربيع هو البادىء كما ترى .

ليفعل الآن ما يطيب له فسيجيء يوم يندم فيه على ما بدر منه .

قال : اخشى ان أخالفك غداً فيما تأمرني به الآن .

لا تتردد في الطاعة فأنا أنهاك عن هذا .. وإذا لقيت الربيع فصافحه وابتسم له كأنه أحب الناس اليك .

قال : ما تعود مسلم بن عوسجة ان يصبر على ذل .

ولكنه تعود أن يغض الطرف عن إساءة الضعيف ولؤم الغدار الجبان ..

اسمع وأطع واعلم ان الرحيل الى الحجاز لا بد منه .

فقال هانيء وهو يبتسم : أترحل اليوم ؟ — لا . — ومتى إذن ؟

من يعلم فقد أترك الكوفة بعد شهر او بعد عام .. إني عولت على السفر ولست براجع . قال : تقيم بين يدي الحسين وتترك اخوانك في الكوفة ؟

– أفعل ذلك لينجو هؤلاء الاخوان من أهوال الحرب .

– واين هي هذه الحرب ؟

– ان نارها تكمن اليوم في الكوفة ، وهي التي ستستعر بين الحيين ، بني أسد وبني تميم ، اذا انا لم أرحل .

– ولكنك قلت انك ستحفظ سرك في الصدر لا تبوح به لأحد .

– قلت هذا وانا خائف من أن تأتي ساعة شؤم انسى فيها نفسي ..

فخطر لهانيء خاطر فقال : ألم تكن غاية الربيع ان يخلو له الجوّ . – بلى.

– وكيف يطيب لك ان يخلو له هذا الجو بعد رحيلك؟؟ انت تخشى أن يأمر معاوية بابعادك ، ثم تحكم انت على نفسك بهذا الابعاد ،وليس في ذلك حكمة ورأي .

– يصعب علي الرجوع الى الكوفة اذا أبعدني معاوية ، ولكني استطيع اذا أبعدت نفسي ان اعود اليها عندما أشاء .

قال : لا تنسَ ان في الكوفة حياة امامة وعبد الرحمن ...

– اخطأت فحياتها خارج الكوفة .. – ذلك بعد الزواج لا قبله ..

وضحك قائلاً لعبد الرحمن : أي البلدين أحب اليك الكوفة ام الحجاز ؟

فاحمرت وجنتا الفتى من الخجل ثم قال : تقضي عليّ الطاعة والوفاء لأبي بأن أوثر الحجاز على الكوفة ويقضي علي الحب بأن أوثر هذا على ذاك .

– وانت يا امامة ؟

فكفكفت دموعها وهي تنظر الى سلمى كأنها تستعين بها على الأمر .

فقال أبوها : اذا ترك عبد الرحمن الكوفة ، كان الحجاز في نظرها خيراً من الجنة ... اسألوا خولة رأيها فهي تعلم من أمر امامة ما لا نعلم .

قالت : اسألوا سلمى فأنا لا رأي لي ...

وكانت سلمى مطرقة ، وقلبها يضطرب ، والدمع يجول في عينيها اشفاقاً على أمامة ، وهي تخاف ان تخسر خطيبها فيبرح بهـــا الغرام ، فقالت : أما انا فلي رأي ابديه اذا أذنتم لي . – ما هو ؟

– أسأل عمراً سؤالاً قبل ان افعل ... لقد عول مسلم على ترك الكوفة وليس

راجع كما يقول ، فهل يطيب لك يا عمرو أن تتركها انت وتنتقل الى الحجاز ؟
- لا استطيع أن اترك الكوفة اليوم . - ومتى تستطيع ذلك ؟
- لا أعلم فالأمر يعود الى الرخاء والشدة اللذين يظهرهما معاوية .
- اي انه يعود الى موقف الشيعة . - نعم .
- وهل تجد من الرأي ان يكون عبد الرحمن في الحجاز وامامة في العراق ؟
- هذا ما يزيده مسلم فاسأليه .
- أراد مسلم ان ينقذ اخوانه وهو لا يعلم انه سيقتل العاشقين ..
- ليس لي يد فيما تقولين .. ان امامـــة ستبقى لعبد الرحمن سواء أبقي في الكوفة أم رحل . - لا يضمن ذلك غير الله ..
- اذن فأنت تظنين انها ستكون للربيع ، بعد رحيل مسلم .
- بل أظن ان الفراق سيصرع الفتيين كما قلت ، واذا بقيـــا فلكي يكتنفهما اليأس من اللقاء . - ثم ماذا ؟
- ثم يمد القضاء يده ويلعب دوره ، وقد تحول الحادثات ، بين الاثنين ...
- لا تقدر الحادثات يا سلمى ، على ان تجعل امامة لغير الفتى الذي أحبت .. أقول هذا وأعاهد عليه الله عز وجل .
قالت : هب ان شرطة الكوفة ، أرادوا ، بأمر معاوية ، ان يهدموا ما بنيتم ووضعوا السيف في اهل الشيعة ، ثم خطر لمعاوية ان يزف امامة ، وهي من أحسن نساء العرب الى فتى اختاره هو ، فماذا تفعل ؟
قال : لو أراد معاوية ان يعمد الى القوة اليوم ، وعبد الرحمن في الكوفة ، فماذا يفعل ؟
- أتعني عبد الرحمن ؟ - اجل ولا أعني سواه .
قالت : اذا امتدت يد معاوية الى امامة، تزوجها عبد الرحمن، فينتهي الأمر.
فقال هانيء : صدقت سلمى .
ورأى عمرو أن الحجة لا ترد فقال : وماذا تريدين الآن ؟
أريد واحـــداً من أمرين ، اما أن تزوج امامـــة ثم ترحل مع زوجها الى

الحجاز ، واما أن نبقى جميعنا في الكوفة .

قال : أما الزواج فلا سبيل اليوم اليه .

– اذن فليبق ابو عبد الرحمن ، وانا ارجو منه ألا يخيب الرجاء ..

ورفعت خولة رأسها فقالت : وانا أضم صوتي الى صوت سلمى واسألك ان تعدل عن السفر .

قال : ولكن في البقاء خطراً .

– تضيع الحكمة هذا الخطر ، والصبر في مثل هذا الموقف ، خير ما تلجأ اليه ، فوضع رأسه بين يديه وغاص في لجة التفكير .

فقال هانيء : قل كلمتك يا مسلم ..

وقال عمرو : لقد انتهينا الأن فنحن لا نأذن لك في الرحيل .

قال : أبقى اذا عاهدكم عبد الرحمن ، على ان يحتمل كل ما يراه من غضب الربيع ومظاهر حقده . فقال الفتى : أعد بهذا يا مولاي .

– وبأن تصبر على الاساءة اذا بدرت منه ؟ – نعم .

– وتترك الاجتماع مع المتشيعين في منزل سليمان ؟ – نعم .

قال : اني باق ، فاحذروا الضحاك ، واحذروا الربيع ، دون ان تتمّ عليكم الدلائل ، ونهض وهو يهم بالخروج ، ثم تردد ، فقال ابن عروة : بقيت كلمة لم تقلها . – اجل ، فقد خطر لي ان احدث شبث بن ربعي بالأمر ..

– ولا تخشى ان تخرج السيوف من الأغماد ؟

– يضمن لي سكوت ولده قبل ان أبوح له بشيء ، وانا اضمن لكم سكوت شبث . – ولكن اذكر ما اوصيت به ولدك الآن .

– لا تخف فمسلم بن عوسجة لا يوقد النار . – ومتى تراه ؟

– أدعوه الى هذا المنزل بعد بضعة ايام فتسمعون واسمع . فوافقه القوم ، الا امامة ، فقد كانت خائفة ، ولكنها لم تقل كلمة ، وانصرف الرجال الى المسجد وبقيت النساء .

كفي يا امامة عن البكاء فعبد الرحمن باق كما ترين .

– ولكن قلبي يحدثني بأني سأخسره الى الأبد .

– وكيف تخسرينه ، وأبوه يسأل اباك في كل يوم ، ان يقرب اجل الزواج .

قالت : وهذه العراقيل التي تحيط بي ؟؟ – اني لا اجدها فأين هي ؟

– هي في كل ناحيـــة من نواحي غرامي . . الشيعـة من جانب ، ومعاوية والضحاك من جانب آخر ، والربيـع اللعين يعد عـدة القضاء على الأمل الباقي في هذا الصدر .

– ومع ذلك فلا يستطيـع أحد من هؤلاء ان يعرض للحب الذي تحسين به .

– يكفي ان أبي نفسه يعرض له !. بماذا ؟

– يسألونه ان يأذن اليوم في الزواج فيأبى .

قالت : ألم يرض مسلم بأن يصبر حتى تبلغي العشرين من العمر ؟

– بلى ، رضي بذلك وهو لا يعلم ان الحادثات ستغير وجه السماء . .

– وهل تريدين ان يكون أبوك كاذباً في نظر شبث بن ربعي ؟

– يقدر ان يقول لشبث ، ان عبـد الرحمن يهم بترك الكوفة ، فلا استطيـع الا أن ازف امامة اليه ، قبل سفره .

ولكنه يقول له : انك من اشراف بني زبيد والشريف يبر في قوله . . .

– وما الذي يمنع أبي من الرحيل الى الحجـــاز ، والحجاز مقر الحسين الذي يعترف بإمامته ، ويبذل نفسه من اجله ؟

– وما الذي يمنعك يا ابنتي من البقاء مع عبد الرحمن ، في الكوفة ؟

– خوفي من أن يمد الموت يده الى عبد الرحمن او الى أبيه . .

– ذلك وهم ليس من الرأي ان تفكري فيه .

– بل هو امر واقع ذكره امير الكوفة نفسه .

قالت : سترين غداً ان ابن ربعي أبعد نظراً من ولده ، وسينهاه عن الأمر الذي بدأ به ... — وان لم يفعل ؟

— يعتصم مسلم بالهدوء ريثما ينتهي الأمر الى ما يحب .

قالت : ارجو ان تنظري الى هذا الأمر من وجه آخر يحدثني قلبي به .

— اذكري لي هذا الوجه .

— ألا ترين ان عبد الرحمن يطوف في الأحياء، ويخرج الى ميدان الكوفة على فرسه كل يوم ؟ — بلى .

— والربيع بن شبث ، أليس مقيماً بالكوفة ، وهو يروح ويجيء ، في وضح النهار وظلام الليل ، منتقلاً من حي الى آخر ؟ — بلى .

— وأية عاطفة تجيش في صدره ؟ — عاطفة الحب ...

— قولي عاطفة الحسد فقلب الربيع لا يعرف حباً .

— ولكنه يفعل ما يفعل من اجل غاية واحدة ذكرها مسلم منذ ساعة .

— وهذه الغاية هي ان يمد معاوية اصبعه فيأمر بالنفي والقتل فتمسي امامة للربيع . — نعم .

فبدت على ثغرها ابتسامة الاستخفاف ثم قالت : ومن قال لهذا الغدار الجبان اني أمسي له ؟

— يستعين بأمير الكوفة او بمعاوية نفسه فيكره احدهما أباك وامك على الرضى بما يريد . قالت : هبي ان والديّ رضيا مكرهين فمن يكره امامة .

— ذلك الذي يكره الاثنين .

قالت : مسكين معاوية ومسكين الضحاك .. ان ذلك الرجل الذي يسمونه أمير المؤمنين ، لا يساوي في نظري قلامة من ظفر عبد الرحمن ، وامير الكوفة، الذي تحيط به الشرط ورجال الحرس ، أضعف من ان يستبد بهذا الغرام الذي يملأ نفسي .!! — ولكن الربيع يظن أنه قادر على ذلك .

— بل هو يعلم أني لا احبه ولا ارضى به ، وقد اراد ، إرضاء لكبريائه ان يسعى بخطيبي وابيه ، بدلاً من ان يختار له زوجة من بنات العشائر النازلة في

العراق . ثم قالت : إذن فالجو لا يخلو للربيع ولو قتل مسلم وعبد الرحمن .. إن الجو يكفهر عندئذ ، وتمسي امامة المنكودة الحظ ، التي لم تعرف الهوى من قبل ، جثة خرساء ، يحملونها الى القبر الذي هو أحب اليها من بيت شبث بن ربعي .. وبكت ، حتى بلت الدموع ثوبها ، وهي تنظر الى امها والى سلمى ، نظرات الاستعطاف ، كأنها تسألهما ، أن تجدا لها سبيلاً الى الرجاء ..

فخافت خولة ان تسوء العاقبة ، فقالت : أنا اعلم يا امامة أن هذا الحب لا تصل اليه الأيدي .. وأرغب كما ترغبين ، في أن ازفك اليوم الى عبد الرحمن . غير ان أباك ، وهو من اشراف الناس ، لا يطيق ان يقول له شبث بن ربعي غداً : انك كاذب ، كما إني لا اطيق ان يظن ، وانا زوجته ، اني خدعته بقولي له يوم الخطبة : حلفت أني لا أزوج امامة إلا عندما تبلغ العشرين ...

وغيرت لهجتها قائلة : طلبت اليّ ان انظر في الامر ، من وجه يحدثك به القلب ولم تذكريه لي فما هو ؟

فقالت وهي تمسح الدمع : هنالك صور رهيبة يتمشى الخوف مع دمي عندما اراها امام عيني ..

قالت : خبريني كل شيء يا بنية فأنا أم ، وانت تعلمين ان هواي في عبد الرحمن لا في سواه .

قالت : كأني أرى عبد الرحمن خارجاً من المسجد ، ووراءه الربيع ، وقد افترق الناس . فعرفت ما تعنيه فقالت : وترين ذلك عند غروب الشمس .

- نعم ، ثم يخطر لعبد الرحمن أن يسير الى الساحة التي تجاور قصر الامارة ، أو يتمشى في الطريق التي تؤدي الى الخلاء .

- ثم يسدل الليل ستاره أليس كذلك ؟

بلى ، وبينا هو يهم بالرجوع الى المنزل ، يفاجئه نذل بطعنة خنجر من الوراء فيسقط مضرجاً بدمه ، وهذا النذل هو الربيع !! واختنق صوتها ...

فضمتها امها الى صدرها وجعلت تقول : لا يا بنية .. إن الربيع لا يجسر على ذلك ولو كان وراءه جند معاوية .

فتمتمت تقول : بل يجسر عليه بأمر من الجالس على العرش ...

فوضعت سلمى يدها على جبين الفتـــاة وقالت : اما انا فأقول انه لا يفعل أتعلمين لماذا ؟ — لماذا ؟

— لأنه يعلم ان امامة لا ترضى به زوجاً إذا أقدم على القتل .

— قلت ان اللعين لا يفكر في الزواج بل في الانتقام..

— وهل تظنين انه لا يخاف مسلماً .؟ إن الخوف يملأ قلبه ، وهو يرى بعينيه كل يوم ، طوائف من بني أسد ، في الأحياء والأسواق .

— إذا أغراه معاوية فعل ولم يبال .

— ولكن معاوية لا يغريه فهو قادر على قتل رجال الشيعة جميعهم في يوم واحد.

ثم قالت خولة : أقول لك كلمة واحدة تضمحل بعدها من الذهن ،صورة القتل.

— وما هي ؟

— هي ان يبدي مسلم ، في رواح عبد الرحمن ومجيئه ، شيئاً من الحـــذر ، فيزول الخطر ...

فأحست ان حملها قد خف فقالت : افعلي يا أمي ما تشائين على شرط ان يعلم أبي ويعلم جميع الناس ، أني لعبد الرحمن ..

— وأنا أعدك يا بنية ، باسمي واسم ابيك ، انا لا نحاول ان نزفك الى سواه .

وجعلت تمسح دموعها وتقول : سيتحدث مسلم وشبث بالأمر بعد بضعة أيام وسينتهي كل شيء ان شاء الله ، وأحاطتها الاثنتان بالعنـــاية حتى نسيت ذلك المشهد الرهيب الذي وصفته لها ، وانصرفت الى التفكير في ذلك الحبيب ، الذي يقاسي ما تقاسيه ...

٥

لم يكن شبث يعلم شيئاً مما يجري حوله ، بلى كان يعلم أن ولده يشايع معاوية

وهو لا ينهاه ، وليس ذلك عن استخفاف بمظاهر المشايعة ، بل هو دهـاء منه ، وامعان في الحيلة والخداع . وانت قد عرفت ، تقلب شبث ، وتردده في عقيدته ؛ كان مع علي ، في الحرب والسلم ، ثم صار بعد التحكيم من الخوارج .. ثم امسى بعد موت علي من الشيعة كما قرأت .

وهو اليوم ينظر الى ولده ، في عهده الجديد ، بعين تستطيع ان تقول انهـا عين الرضى ، ولكن لم يخطر له ، أن الربيع مثل بين يدي معاوية في الخضراء ، وحدثه بأمر الشيعة ، وان بينه وبين الضحاك اسراراً تدور حول مسلم بن عوسجة وعبد الرحمن ، ولو عرف ذلك لما عتب الربيع إلا من ناحية واحدة ، هي مثوله بين يدي الخليفـــة ، وقد أوصاه قبل سفره الى دمشق بألاّ يدنو من الخضراء ، ولكل ما رأيت ، معنى واحد ، هو أن ابن ربعي لا يطيب له إلا ان يمسك الحبل من طرفيه دون أن يراه الناس ، إذا مات معاوية وتربع الحسين بن علي في العرش فهو من أقرب المقربين اليه ، وإذا فشل في الأمر ، ودارت الدائرة على أنصار علي ، فولده الربيع من المقربين الى الأمويين وهو يضمن رضاهم عنه . على ان هنالك فكرة اخرى آمن بأنها الفكرة الصادقـة والرأي الصائب هي أن الحسين أعجز من أن يسترجع الخلافة ، فمن الحكمة إذن ان يلعب على الحبلين ويغض طرفه عما يفعله ابنــه ، ولك ان تقول ، ان ذلك البطل الذي شهدت له الميادين ضعيف في رأيه ، ضعيف في عقيدته ، متقلب في جميع مواقفه ، حتى أنه كان يهزأ في سره ، بذلك الاخلاص الذي يظهره مسلم ومن حـوله لآل علي ، وكان يقول في نفسه : إن اخلاص مسلم سينتهي به الى الموت .

وقد لمس شبث ، بيديه الاثنتين إيمان اخوانه المتشيعين ، فهو يعرف الرجال الذين يبذلون دمهم في سبيل الشيعة ، والرجال الذين يميلون مع الهواء كما يقولون: من هؤلاء ، عمرو بن الحجاج ، الذي كان شبث مؤمناً بأنه اول من يحمل السيف في وجه الحسين ، إذا ندبه معاوية لقتاله ...

وقد قرأت ان المتشيعين الذين يقولون قول مسلم طائفة قليلة ، تتراجع في كل موقف يتصدى لها فيه شبث وانصاره . ولا تظن ان مسلماً غافل عن هذا. فهو يرى

ما يراه ولده عبد الرحمن ، من هـــذه الناحية ، وكان يحاول بالحسنى أن يحفظ للشيعة تضامنها الذي لا تعيش إذا امتدت اليه يد سوء . وقد عول على السير في طريق الصبر واللين ، الى النهاية . . وكان قد مرّ بضعة ايام على ذلك الاجتماع الذي خبّر فيه حكاية الضحاك والربيع ، فقال لشبث وهما في المسجد : لي ما أقوله لك في منزل هانيء ، في هذه الليلة .

وشبث لا يعلم ما هي الغاية من هذه الدعوة ، فقال : اذهب الساعة .

وخرج الاثنان حتى انتهيـا الى ذلك المنزل وعمرو وهـــانيء وعبد الرحمن ينتظرونها فيه ، وقد جلست النساء في حجرة يسمعن منها كل ما يقال .

فلما جلس شبث قال مسلم : سأقص عليك ما سمعت من أحـدهم وليس لي في ذلك رأي ، ولكني اسألك قبل ان افعل ، ان تعاهدني على أمر . .

قال : عاهدتك عليه ، وانا لا أعرف ما هو .

قال : تضمن لي سكوت الرجل الذي سأذكره لك .

— وأقدر على ذلك ؟ — نعم فأمره في يدك . .

قال : اضمن سكوته . — وتعدني بالكتمان ؟

قال : يظهر ان الأمر خطير يا أبا عبد الرحمن .

— اجل ولو لم يكن خطيراً لما فكرت فيه .

قال : أعدك بما تشاء وإني مصغ اليك .

قال : دعاني الضحاك فقصّ علي اخبار الشيعة واسرارها واقوال رجالها ، لم ينس كلمة ولم يبالغ في خبر .

فاضطرب لحظة ثم قال : متى كان هذا ؟

— منذ بضعة ايام . — وتريد ان تعيد علي قوله ؟

— فأعاد ما سمعه كأن الضحاك نفسه يتكلم .

فقال : أتسألني رأيي ؟ — نعم .

— لا يستطيع رجال الشرط ان يحفظوا جميع هذه الأقوال ولو احتجبوا ، ونحن لا نعلم ، في منزل سليمان . — وماذا تظن إذن ؟

– اظن ان واحداً منا ، نحن المتشيعين ، يبوح لأمير الكوفة بأسرار الشيعة.
– وهل يخطر لك غير ذلك ؟ – لا .
قال : صدقت ظنونك فأنا اعرف الرجل الذي يجالس الأمير ويطلعه على كل شيء . – وامر هذا الرجل في يدي كما قلت ؟
– نعم وهو لا يخرج عن طاعتك ..
فعرف عندئذ انه الربيع ، فقال : الربيع ؟ فقال الجميع : الربيع !
فعمد الى الدهاء فقال وقد خفض صوته : ويل له . . . يسعى بالشيعة ويخون أباه ؟!
– اما انه يسعى بالشيعة فنعم ، واما انه يخون أباه فلا . . ألم اقص عليك الآن ما قاله الضحاك ؟ – لقد نسيت فماذا قال ؟
– قال ان ابن ربعي يمنع القوم من ان يشهروا السيف فهو عدو معاوية في الظاهر وصديقه عند الحاجة ..
فجعل يقول : لقد خسر الربيع عطف أبيه وعنايته به . . فهو يستحق اللعن ... ولكن ما هي الغاية التي يفعل من اجلها ما يفعل ؟
– اعرف ايضاً هذه الغاية فهي الحصول على امامة ..
وذكر له عندئذ مشاهد الفصل الآخر من الرواية حتى انتهى الى قوله : اما القتل او الابعاد ...
قال : لا أدافع عنه لأني لم ألمس براءته ، ولكني اتردد في الحكم عليه ريثما اسأل امير الكوفة . قال : أتفعلها يا شبث ؟
– اجل فأنا اخشى ان اسأل الربيع فيعمد الى الانكار .
– ولكن في السؤال عاراً يلحق بك .. أيطيب لك ان يعرف الضحاك انك عالم بخيانة ولدك ؟ – يطيب لي ان اعرف الحقيقة ولو كانت من فم معاوية .
– إذن تسير اليه واسير وراءك .
فقال عمرو : ليس في هذا شيء من الرأي ... تسألان الأمير عن ذلك فيقوم في ذهنه أن الخلاف دب في الجماعة ، فيشمت ، ويدعو الآخرين الى ان يشمتوا

بنا جميعاً ويتحدثوا بالقضية .

فأجابه شبث قائلاً : ونسكت عند هذا الحد ؟

– يكفي ان تسأل الربيع . – ولكنه لا يعترف .

– اذا اعترف وندم فقد انتهى الأمر . – وان لم يفعل ؟

– تبث حوله العيون حتى تتبين البراءة او الذنب .

– سأفعل ما يريده أبو عبد الرحمن .

فقال مسلم : لا أريد إلا ان يبسط السلام جناحيه فوق رجال الشيعة .

– وانت خائف من هذه الناحية ؟

– نعم وأكاد ارى الدماء بعيني . – وكيف ذلك ؟

– اخشى ان تمتد يد الربيع الى عبد الرحمن ، او تمتد يد هذا الى الآخر .

– ثم تمتد أيدي الوالدين ، وتتلاحم صفوف بني تميم وبني اسد ، وتغرق عشائر الكوفة في بحر من الدم أليس كذلك ؟ – بلى وهذا ما أخافه .

قال : ان الشيعة لا تفرقها غير يد الله .. ولا يستطيع معاوية والضحاك ان ينالا من هذا الاتحاد الذي ينشر فوقنا ظله . . وهذا شبث بن ربعي يحلف لك الآن ، أن اليد التي تمتد الى ولدك يقطعها ولو كانت يد ولده ...

فقال هانيء عندئذ : دعوا أبا الربيع يفعل ما يشاء فنحن واثقون به وليضمن ولده وانت تضمن يا مسلم عبد الرحمن .

واراد شبث ان يزيد القوم وثوقاً به ، فمد يده الى ابن عوسجة قائلاً له : هات يدك .

فصافحه ، فقال : قل انا على العهد .. – قال : انا العهد ...

فنهض وقال : نحن كما كنا ، واما الربيع فسأنظر في امره وانا اضمن رجوعه الى الهدى فلا تفكروا فيه ، ولم يشأ ان يزيد كلمة ، بل خرج من المنزل وهو يتظاهر بأن الغضب على ولده يملأ صدره ...

فقال عمرو : ماذا رأيت يا مسلم ؟

وكان قد رأى دهاء وحيلة ، فقال : رأيت إباء ووفاء ...

– وهل تشك في شبث بعد ان سمعت ما سمعت ؟

فكاد يقول : أشك فيك قبل ان اشك فيه .. ولكنه تجلد ، ولم يذكر في تلك الساعة غير مصلحة الحسين ، التي تقضي عليه بأن يبتسم لاخوانه المتشيعين ، المترددين . . فقال : لقد ذهب الشك الآن ..

وجعل ينصح لولده بأن يرافقه في خروجه الى البلد ، وطوافه في الأحياء ، وكان يقول له : يكفي أني احفظ حياتك وحياة الشيعة ، والاتكال على الله ..

وعادت المياه الى مجاريها في الظاهر كما يقولون ، وخفت لوعة امامة لأنها لم تكن تعلم ان مسلماً يسيء ظنه بشبث ..

٦

كل شيء هادىء في الكوفة ، الشيعة تجتمع مرة كل شهر أو شهرين .. والصلة بينها وبين الضحاك صلة طيبة يسندها الدهاء من الجانبين ، على ان ابن ربعي ، – وكان قد عرف كل شيء ، لم يمنع الربيع من السعاية ، ولم ينهه عن الامعان في الاغراء ، حسبه انه من المتشيعين ، وان الربيع من الأمويين ، وحسبه ان المظاهر الخداعة تحجب دهاءه عن العيون . . ! وامامة وعبد الرحمن ، يتشاكيان الهوى ، ويتعللان بالأمل ، واهل الكوفة جميعهم راضون عن أميرهم ، وهذا الأمير يتهيأ للخروج الى قتال الخوارج الذين يهددون الخلافة .

وكان ذلك في مطلع السنة الثامنة والخمسين ، وبينا هو يعد العدة ، أقبل عبد الرحمن بن أم الحكم ، اخت معاوية ، يحمل كتاب العزل الى الضحاك ، ليجلس هو في مقعد الأمارة بدلاً منه ، والكوفيون يعلمون ؛ كما يعلم جميع الناس ، ان أميرهم الجديد رجل لا أخلاق له ولا أدب في نفسه ، وليس في الكوفة من يحتمل سوء سيرته وسوء خلقه ، فذعروا لهذه الهدية العجيبة يتحفهم بها معاوية ، وهمّ

بعضهم بأن يعيدوه اليه محمولاً على الأكف!! ولكن العقلاء ، كرهوا أن يعرضوا، على هذه الصورة، لأمير المؤمنين ونصحوا للقوم بأن يصبروا ريثما يعود الجيش من قتال الخوارج ، ولم يلبثوا حتى أقنعوهم بأن يفدوا عليه لأنه ابن اخت معاوية .

ففعلوا ، وعبد الرحمن يظهر بمظاهر الأمراء ، ويتكلف الرصانة والهدوء ، وكان الربيع، قد عظم عليه امر عزل الضحاك ،وأيقن بأن عبد الرحمن، سيهدم له ما بناه ، ثم خطر له ، ان معاوية أوصى ابن اخته ، بأن يثق بإخلاصه ويصدق كل ما يقوله له ..

فاستأذن عليه في مساء يوم ، وليس في مجلسه احد ، فقال له : أتعرفني ايها الأمير ؟

قال : لا فمن انت ؟ — انا الربيع بن شبث بن ربعي .

قال : مرحبا بك . . ما هي حاجتك ؟ — الم يحدثك بأمري امير المؤمنين ؟ — لم يذكر لي احد اسمك قبل هذه الساعة .

— اني رجل انقل اخبار الشيعة الى امير الكوفة، لينقلها بدوره الى الخليفة.

— وانت من رجال الشرط ؟ — بل انا من رجال الشيعة يا مولاي .

— صف لي هؤلاء الرجال .

— انهم يبذلون القوى ليرفعوا الحسين بن علي الى العرش .

— وكيف يفعلون ذلك وعلى العرش معاوية ؟

— يفعلونه بعد موته ، ان لم يجسروا عليه ، وهو حي .

— قال : لم يقل لي امير المؤمنين شيئاً من هذا .

— ولم تسمع انت حديثاً عن الشيعة في دمشق ؟

— هب اني سمعت فماذا تطلب ؟ — اقص عليك ما ينتهي اليّ كل يوم ..

— لست بحاجة الى ذلك . — ولكن الضحاك كان يأمرني بان احمل اليه اخبار القوم . — لي رأي وللضحاك رأي ..

قال : ان وجود الشيعة في الكوفة خطر عليك .

— وانت تمنع هذا الخطر ؟ — لا ولكني ادلك عليه ..

فغضب قائلاً : اعلم من امرك وأمر الضحاك ما لا تعلمه انت ...

- وهل وجدت فيما علمت ما يغضب أمير المؤمنين ؟

– اجل ، وجدت شيئاً كان الضحاك مغفلاً عندما باح به .. نقلت اليه انت اخبار الشيعة ، فنقلها هو بدوره الى مسلم بن عوسجة الذي تبغضه كما تبغض ولده.

فدهش قائلاً : وتعرف هذا ايها الامير .

– نعم ، ويعرفه امير المؤمنين ، وهو سبب من أسباب عزل الضحاك عن الكوفة ذكره الخليفة لي .. – وكيف بلغ الخبر دمشق ؟

– رواه لامير المؤمنين رسول الضحاك نفسه .

وسكت قليلاً ثم قال : لقد غضب امير المؤمنين على الضحاك ، عندما بلغه انه خبر مسلما بما خبرته به انت .

– ولماذا يغضب والضحاك يريد أن يشعل النار ؟

– لانه يجب ان يتسع صدر الامير لاخبار الناس ، وكان عليه ان يحتفظ بكل ما يقال له دون ان يبوح به .. قل لي الآن ماذا فعل مسلم ؟

– عاتب ابي وشكاني اليه . – وما فعل ابوك ؟

– اثبت له انه باق على العهد وانه سينظر في امري ثم انتهى الحادث عند هذا الحد .. – وهل تشهد انت اليوم اجتماع المتشيعين ؟

– انهم لا يجتمعون غير مرة في الشهرين . – وتكون انت معهم ؟

– نعم . – ولكنهم لا يتكلمون وانت حاضر ..

– ومن قال لك ذلك؟ – امير المؤمنين فقد كان يعلم ان القوم سيكتمونك أسرارهم بعد ان فضح الضحاك امرك .

– قال : لنترك الماضي يا مولاي ولننظر في الحاضر .

قال : اما حاضرنا فهو قتال الخوارج وسنزحف اليهم بعد يومين .

– والشيعة ؟ – واما الشيعة فلا اعرض لها الآن لان امير المؤمنين لم يأمرني بذلك وسأندب رجالها الى الخروج مع الجيش للقتال .

قال : انك تستغني بجند الكوفة عن هؤلاء الرجال .

– ولكني لا اريد الا ان يكونوا في الطليعة وسأدعوهم غداً صباحاً الى هذا القصر فاسمع جوابهم .   – واذا ترددوا في المسير ؟

– اعرف عندئذ انهم خارجون عن طاعة امير المؤمنين ، فأضع فيهم السيف بدون اذنه واملأ الكوفة دما !..   قال : افعل ذلك الليلة .

– بل نصبر الى الصباح وكن انت معهم فترى وتسمع .

قال هذا وأمره بالانصراف .   فخرج الربيع وهو يقول في نفسه :

امير مجنون لا يعرف ماذا يصنع .   وكان الامير يقول :   فتى مجنون برح به الغرام فخان قومه ...

٧

خرج حاجب عبد الرحمن ، عند الصباح ، يدعو المتشيعين .. ويستعجلهم في المجيء الى القصر ، لأمر يريده مولاه ، فعرف القوم انها دعوة الى الحرب ، وعهدوا الى مسلم وشبث ان يتكلما باسمهم ، بعد ان نظروا في الامر متحدين ، وجمعهم الرأي ، فلما أقبلوا صافحم قائلاً : بلغني ان الخوارج اجتمعوا في بانقيا وعلى رأسهم حيان بن ظبيان ، وانا ارى ان نفاجئهم بالجيش ، وكان ينظر وهو يخاطبهم ، الى مسلم بن عوسجة .

فقال مسلم : كم هو عددهم ؟   – انهم اكثر من مئتين .

– وتوجه اليهم جيش الكوفة كله ؟

– بل نختار من هذا الجيش ، طوائف من الابطال الذين عركتهم الحرب وانتم منهم ، وقد دعوتكم من اجل هذه الغاية .

قال : وتريد ان يخرج البعض منا او يخرج الجميع ؟

– تخرجون جميعكم فالخلافة تحتاج الى سيوف المسلمين المخلصين .

– أما الخلافة فنحن رجالها ولا نتردد في حمل السيف .
– بارك الله فيك ، وهل تستطيعون الزحف غداً ؟
– نزحف الساعة فالخيل مسرجة والسيوف في الايدي ..
فجعل يقول : اذن كنت مخدوعاً عندما خطر لي انكم لا تحملون السيف في سبيل الدفاع عن امير المؤمنين ..
– لو لم يكن هنالك من يدعوك الى اساءة الظن لما خطر لك ذلك .. ألم يقل لك الناس ان الشيعة لا تنقل قدماً الى القتال ؟
– قيل لي انكم اعداء الخليفة ، والعدو لا يدافع عن عدوه .
– ولكن الخوارج ليسوا اعداء معاوية ، كما انهم لم يكونوا اعداء عليّ ، بل هم اعداء الخلافة ، فاذا خرج المتشيعون الى قتالهم فلكي يدافعوا عن الخلافة الباقية لا عن معاوية الزائل ...
– ومعاوية نفسه ، يا ابن عوسجة ، يستحق ان تدافعوا عنه .
– ذلك شيء آخر لا ننظر فيه الآن ايها الامير .. نحن مسلمون ، وليس للمسلم ان يهدم بيديه ، هذا البناء الذي بناه الخلفاء لله .
قال : وانتم ، اتقولون قوله ؟
فاجابه شبث : نعم ولم يبق الا ان تأمر بالمسير .
قال : يجتمع الجيش في ساحة القصر عند الفجر ، ثم يسير فرقتين ..
– وبماذا تشير علينا ، انأسر عدو الخلافة ام نقتله ؟
– لا اريد ولا يريد امير المؤمنين ان تأسروا احداً.. اجعلوا الخوارج جميعهم طعاماً للوحش والطير ، ليعلم اخوانهم المقيمون بالبصرة ، ان امير المؤمنين لا يرحم عدوه ، ولا يغضّ طرفه عن خارجي ...
– ومن هو سيد الخوارج في البصرة ؟
– ابو بلال بن ادية واخوه عروة والاثنان من تميم ... وهنالك رجل آخر

يقال له طواف بن غلاّق .

قال : مر جيش الكوفة بان يقتل حيـــان بن ظبيان ، ثم يسير الى البصرة فيقتل من ذكرت .. — ذلك شأن عبيد الله بن زياد..

قال : اكتب غداً الى معاوية ان خوارج بانقيا قتلوا جميعاً ..

— لا افعل ذلك قبل ان ارى بعينيّ . — وتذهب معنا عند الصباح ؟

— نعم فعلى الامير ان يكون في مقدمة الجيش ..

ولكن الجيش خرج في اليوم الثاني ولم يخرج عبد الرحمن .

وقد قيل لاهل الشيعة وانصار معاوية :

انه يؤثر الاقامة بالقصر ، مستسلما الى لذته ، على ان يمشي مـــع رجاله الى ميادين الحرب .. فتحدث القوم قائلين : هذا اول مظهر من مظاهر خلاعتـه وسوء سيرته .

ولم يكن في ذلك غلو ، فابن ام الحكم ، عندما خلا له الجو ، طلق رصانته وهدؤه ، وعمد الى الامعان في الاستهتار .

وكان قد قال لرجال الجيش قبل زحفهم :

ان الخوارج لا يستحقون ان يخرج اليهم الامير مع الجند .

على ان اهل الكوفة لم يبالوا به ولم يستغربوا ما ظهر منه ، فهم يعلمون من هو ، وكانت رغبتهم في ان يقضوا على عدوهم ، وينظروا في امر هذا الوالي بعد رجوعهم ظافرين .

وكان عبد الرحمن بن مسلم مع ابيه ، والربيع مع ابيه ، والواحد منهما ينظر الى الآخر نظرات الحقد ، ولكن مسلماً لم يغفل قط عن عبد الرحمن ولم يكن له هم الا ان يرعاه .

وكذلك كان هم شبث ، فعداوة العشيرتين ، تميم واسد ليست من رأيه ، وقد نهى ولده عن ان يعرض بسوء ، للفتى الاسدي .

حتى انتهى الجيش الى المكان الذي اختاره حيان .

والخوارج على الخيل ، وقد تهيأوا لاستقبال القوة الزاحفة اليهم من الكوفة

وآثروا الموت على الفرار ...

فنادى منادي الكوفيين : القوا السلاح ايها الخوارج فذلك خير لكم .

فاجابوه : ستنزع سلاحنا يد الموت ..

واغارت الخيل .. فدار جيش الكوفة الكبير ، حول ذلك الجيش الصغير ، ثم ضيق النطاق فامسى الخوارج داخل قفص من السيوف والرماح ، وما هي الا ساعة ، حتى حصد الموت حيان ورجاله ولم يبق منهم أحد .

وقد رأى الناس مسلما وولده يقاتلان ، فقال انصار الامويين :

ليس في الكوفة مثل مسلم .

وقالت الشيعة : الويل لجيش لا يكون مسلم فيه .

وسمع الربيع اقوال القوم ، فقال لابيه :

ايطيب لك ان تبقى يدك في يد هذين الاسديين ؟

فقال : يطيب لي اليوم ما يطيب لهما ، ولا يعلم ما في الغد غير الله .

٨

فتنة في ضواحي الكوفة ، وفتنة في البصرة .

والخوارج يوقدون نار الفتنتين .

ولكن عبيد الله بن زياد ، رجل بطاش مثل ابيه كما عرفت ، اذا خطر له ان يجرد سيف قسوته ، قتل بحق وبغير حق .

قبض على جماعة من الخوارج كانت تعيب معاوية ، في منزل رجل من اهل البصرة بعيد عن الاحياء ، وامر بهم فجعلوا في السجون .

ثم دعاهم الى ساحة من ساحات البلد ، وعرض عليهم ان يقتل بعضهم البعض الآخر ثم يخلي سبيل القاتلين .

فذملوا ذلك رغبة في النجاة ... وهذا هو الضعف .

فأطلق الاحياء ، وبينهم طواف بن غلاق

على ان طوافا ندم على ما فعل وكان يقول: اما من توبة .

وكان يبكي هو واصحابه كما تبكي الاطفال ..

ثم عرضوا الدية على اولياء القتلى ، فأبوا ، فدعا طواف اصحابه الى الخروج والى الفتك بابن زياد، وكانوا سبعين رجلاً من بني عبد القيس .

فسعى بهم رجل من اصحابهم ، فتعجلوا في الخروج ، وقتلوا رجلاً تصدى لهم عندما تركوا البصرة . فندب ابن زياد لقتالهم ، طائفة من الشرط .

ولكن الخوارج كانوا اشد بأساً ، وقد عجز الشرط عن قتـــالهم ورجعوا مذعورين الى البصرة ، وهم وراءهم ، وذلك يوم عيد الفطر .

ودب فيهم الغرور فتغلغلوا بين المنازل وفي الاسواق .

وكثر الناس ، فقاتلوا وهم يرون الموت ، ثم قتلوا ، وقتل طواف بسهم رماه به شرطي ، ثم صلبوه .

وجار عبيد الله على الخوارج بعد ذلك ، فقتل منهم جماعة كثيرة ، وابقى على بعضهم ، وعينه يقظى لا تنام .

من هذا البعض ، عروة بن ادية واخوه ابو بلال .

وكان ابو بلال ، عابداً مجتهداً عظيم القدر في الخوارج ، شهد صفين مع علي فانكر التحكيم ، وشهد النهروان مع اخوانـــه ، والخوارج كلهم يقولون قوله ويرون رأيه .

وكانت بالبصرة امرأة من بني يربوع ، تدعى البثجاء ، تحرض الناس على ابن زياد ، وتذكر قسوته ..

فذكرها ابن زياد يوما وهو في مجلسه .

فقال لها ابو بلال : تغيبي فان هذا الجبار قد ذكرك اليوم .

قالت : اخشى ان يلقى احد بسببي مكروها .

ولم تغرب شمس ذلك اليوم ، حتى اخذها عبيد الله فقطع يديها ورجليهـــا

وامر رجاله بان يحملوها الى السوق .

فمر بها ابو بلال ، فعضّ على لحيته وجعل يقول :

أهذه أطيب نفسا بالموت منك يا أبا بلال .. ما ميتة أحب اليّ من ميتـة البلجاء !.. فقال عبيد الله لصاحب شرطته :

اقبض عليه واجعله في السجن . ثم خرج الى ميدان السباق في رهان له .

فلما جلس ينتظر الخيل ، اجتمع حوله الناس وفيهم عروة بن أدية وابن زياد ينظر اليه بحذر وخوف .

ثم اقبل عروة يعظه ويتلو عليه بعض الآيات حتى انتهى الى قوله :

« واذا بطشتم بطشتم جبارين .. »

فظن عبيد الله انه لم يقل ذلك الا ومعه جماعة .

فقام وركب ، وترك رهانه . فقيل لعروة : لقد جاء دورك ..

فاحتجب عن العيون .

ولكن عبيد الله لجّ في طلبه حتى قبض عليه ومثل بين يديه .

فقال له : نعم يا ابن ادية ، انا اذا بطشنا نبطش جبارين ... اقطعوا يديه ورجليه فعروة مثـــل اخيه ابي بلال يطيب له ان يموت كما ماتت البلجاء ألا أخاف الموت .

ـ اخاف امراً واحداً هو ان اموت والله غير راض عني في هذه الدنيا وفي الآخرة . اضرب يا ابن زياد .

فغاصت الشفرات في الرجلين واليدين وعروة لا يصيح ولا يستغيث ، حتى سال دمه كله واسلم الروح ..

وعبيد الله يرى ذلك ، وكأنه يرى شاة مذبوحة في مسلخ ..

انه مشهد تعود ان يراه كل يوم ..

ثم طلب الخوارج ، في كل حي ، وكل ناحية ، فملأ منهم سجونه .

وأبو بلال يصلي في سجنه ويذكر الله .

فلما رأى السجان عبادته ، اذن له كل ليلة ، في ان يأتي أهله فكان يخرج ليلاً

اليهم ويعود مع الصبح . والسجان اخو عبيد الله في الرضاع .
وكان هنالك صديق لأبي بلال يسامر ابن زياد .
فقال له ليلة : اي رأي لك في الخوارج ايها الامير ؟
قال : اقتلهم جميعهم غداً فتنجو الخلافة .
فانطلق ذلك الصديق فخبر أبا بلال .
وخاف السجان خوفاً شديداً ولم يغمض له جفن .
لقد قام في ذهنه ان أبا بلال لا يرجع الى السجن .
ولكن لم يطلع الفجر حتى اقبل ، فقال له :
ألم يبلغك ما عول عليه الامير : قال : بلى . — ثم جئت ؟!
— نعم ، فلم يكن جزاؤك مني ، مع احسانك الي ، ان تعاقب .
واصبح عبيد الله ، فقتل الخوارج .
فلما أحضر ابو بلال ، قام السجان فشفع فيه وقص عليه قصته ، فوهبه له وخلى سبيله . على ان ابا بلال خاف عبيد الله .

فخرج في اربعين رجلاً الى الاهواز ، وكان اذا اجتاز به ما الخراج يأخذ منه عطاءه وعطاء اصحابه ، ثم يرد الباقي .

فلما سمع ابن زياد خبرهم ، وجه اليهم جيشاً عليه اسلم بن زرعة الكلابي واوصاه بان يضع فيهم السيف . وكان الجيش الفي رجل !..

فلما وقعت العين على العين ، ناشدهم ابو بلال الله ان لا يقاتلوه ، ولا يهرقوا دماء المسلمين . فقال اسلم : لا نفعل حتى ترجعوا الى البصرة وتتوبوا ..

قال : أتردوننا الى ابن زياد الفاسق ؟
فرمى اصحاب اسلم رجلاً من الخوارج ، فقتلوه .
فقال ابو بلال لاصحابه : لقد بدأوا فجردوا السيوف .
وحمل وحمل رجاله ففرقوا القوم ثم هزموهم واكرهوهم على الرجوع الى البصرة . فقال ابن زياد لاسلم :

هزمك اربعون وانت في الفين ؟ انك اذن من ابطال المسلمين بل انت اشجع

الناس اذهب فلا خير فيك .

قال : لأن تلومني وأنا حي ، خير من ان تثني عليّ وأنا ميت .

وكان الصبيان يصيحون بأسلم اذا رأوه :

احذر فأبو بلال وراءك . فشكا ذلك الى ابن زياد فنهاهم عنه .

وقال رجل من الخوارج :

أألفا مؤمن منكم زعمتم ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا

٩

رجع الجيش من بانقيا الى الكوفة يحمل علم النصر .

وكان رجاله اصحاب الرأي ، قد أيقنوا ، وهم راجعون ، بان عبد الرحمن ابن ام الحكم ، لا يصلح للامارة ، وستسوء سيرته بينهم حتى يصبح مضغة في الافواه .

فلما قدموا الكوفة ، رأوا بالعيون ، ولمسوا بالايدي ، انه امسى حديث الناس ، وان خلقه الرديء ملأ الجو فساداً .

فقال بعضهم : ننصح له بان يكف عن استهتاره .

وقال آخرون : بل نطرده من الكوفة ليعلم معاوية اننا لا نرضى بان يكون اميرنا من السفهاء . — ومن يتولى امر طرده ؟

— رؤساء العشائر دون استثناء . — ومتى تفعلون ذلك ؟

— عندما يطلع الصباح . وباتوا ليلتهم على هذا الامل .

فلما طلع الصبح ، مشوا الى القصر جماعات واهل القصر يرون ذلك وهم لا يعلمون اي حادث جرى في الكوفة . فلما دخلوا قال عبد الرحمن :

اری وجوهاً کتب الشر علیها سطوره .. ماذا جری ؟

فاجابه أحدهم قائلاً : جئنا نحمل الیك بشری الظفر بالخوارج ..

قال : عرفت ذلك وكان علیكم ان تحملوا هذه البشری امس .

– لم نشأ ان نزعج الامیر وهو في قصره یجالس ندماءه ویتمرغ في احضان اللذة .. قال : أمجنون انت ؟

– نعم ، وهؤلاء جمیعهم من المجانین .. ألم ترَ یا عبد الرحمن ان امیر المؤمنین لو لم یرَ جنوننا لما ولاك ...

فقال للقوم : من هذا المتكلم فیكم ؟

قال : رجل یعرف مقامه في عشیرته وتحفظ له عشیرته هذا المقـام .. اما انت فرجل لا مقام له ، فضح نفسه وفضح خاله ...

فالتفت الی جانبیه وعیناه تلمعان .

فقال : اتطلب صاحب الشرط ؟ انه هنا فمره بان یقبض علي وعلی وجوه الناس الذین یغص بهم مجلسك .

قال : ماذا تریدون ایها الناس ؟ فلم یقل احدهم كلمة .

فقال : أجیبوا ... ما هي غایتكم من المجيء ؟

فقال ذلك الرجل: یریدون ان ینقلوا الیك بشری اخری غیر بشری النصر .

– ما هي ؟ – هي ان یأمروا حراس الامیر بالقبض علیه !!.

– انا ؟! – نعم انت لا سواك فمن رأي المجانـین الذي جعلك معاویة امیرهم ، ان یعیدوك الی البلد الذي خرجت منه ..

فجعل یصیح : اليَّ ایها الحراس .

قال : كان حراسك امس من العقلاء ، اما الیوم فقد اصبحوا مجانین مثلنـا وسیرافقونك بحرابهم الی خارج الكوفة ..

ثم قال : اقبضوا علیه ایها الحراس ..

فما راع عبد الرحمن ، غیر حراسه یدورون حوله والحراب بالایدي ، وهم ینظرون الیه كما ینظرون الی المجرمین .

قال : الا تخافون امير المؤمنين يا اهل الكوفة ؟

– لو لم يكن لامير المؤمنين حرمة عندنا لقتلناك .

– وفي اي شيء استحققت هذا ؟

– في هذه المآثر الغر التي ملأت العراق .. ترسل الجيش الى قتـــال اعداء الخلافة ، وتلهو انت في هذا القصر تحيط بك الجواري الحسان ويغني لك المغنون والقول في اي شيء استحققت ذلك ؟؟ ان اللهو والغناء اذن ، وصية يوصي بهـا امير المؤمنين عماله ...

قال : بقيت في الكوفة لانظر في امور أهلها .

– وهذه الاعمال التي تتحدث بها النساء والرجال ؟

– انها اخبار لا يثبت منها شيء .

– بل هي حقيقة رائعة يكره اهل الكوفة ان يروها في هذا القصر .. فارجع الى دمشق ففيها طوائف المغنين والندماء . وقل لأمير المؤمنين انرجال العراق لا يطيقون ان تولي المستهترين .. فحاول ان يجاوب فاسكته قائلاً :

لا تزد كلمة فالكلام لا ينفع . تهيأ للرحيل ..

قال : لا اخرج الا اذا امرني امير المؤمنين .

– بل تخرج عندما نأمرك نحن بالخروج .. احملوه .

فارخى نظره الى الارض وجعل يقول : دعوني أعدّ العدة .

– تفعل ذلك الآن وتخرج عند العصر ، وهؤلاء الحراس يساعدونك فـيما تكلفهم اياه .

ولم يرد الناس ان يتفرقوا الا بعد رحيله ، وعهـدوا الى صاحب الشرط في الولاية ، ريثما يأتيهم عامل آخر ، وكان الخبر قد سبق عبـد الرحمن الى دمشق وبلغ معاوية ، فلما استأذن عليه قال لسرجون : هذا عبد الرحمن قد عاد .

– كنت أعلم يا امير المؤمنين انه سيعود على هذا الوجه .

–وكنا نحن نعلم ما تعلم ، ولكن ماذا نصنع وهو ابناختنا ام الحكم ، ونحن نحبها ونريد ان نرفع مقام ابنها .

قال : خير لأم الحكم ان تحجبه في بادية او دير .

قال : ستأتينا الآن وتسألنا ان نوليه غير الكوفة .

– وتوليه يا امير المؤمنين ؟

– أجل نوليه ، لتعلم ام الحكم ان اخاها لا يبخل بولاية على عبد الرحمن كما كانت تظن .. – وبعد ذلك ؟

– يطرد الناس عبد الرحمن مرة ثانية فتسكت وتؤمن عندئذ بان ولدها الذي تريد ان ترفعه يحطها ويحط نفسه .

– انه رأي يا مولانا ولكني اخاف أن يظن الناس الظنون بأمير المؤمنين ، ويقوم في الاذهان ؛ انك تريد اكراههم على قبول ابن اختك .

– تضمحل هذه الظنون بعد ان نغضّ الطرف عنه .

– ليفعل امير المؤمنين ما يشاء فهو أعلم .

قال : يا سعد ، أليس في الوفود ناس من مصر ؟

– بلى يا مولانا . – ومتى يتركون دمشق ؟

– يرون أمير المؤمنين اليوم ثم يرحلون غداً .

– تقول لهم غداً عندما يهمون بالرحيل ، ان امير المؤمنين ولّى امرهم ، عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي . – واذا سألوني سؤالا آخر ؟

– تجيب بقولك ان واليهم الجديد يكون عندهم بعد شهر ... أما الآن فقل لعبد الرحمن أن يدخل .

فقال سرجون : يريد امير المؤمنين ان ينتهي الخبر الى مصر قبل ان يأتيها اميرها . – نعم . – والغاية من هذا ؟

فضحك ثم قال : لو كان لك شيء من الدهاء لعرفت غاية مولاك .

قال : اعرفها يا مولانا . – وما هي ؟

– هي ان يثور المصريون ويسألوك ان تعدل عما تهم به فيكون لك في ذلك عذر ..

قال : انك اشد دهاء من ابليس ونحن راضون عنك ، واقبل عندئـــذ عبد الرحمن ، فقال معاوية : مرحبا بامير الكوفة المخلوع عن عرشه ... ماذا

جرى لك ؟ قال : لم ارَ في الكوفة يا امير المؤمنين رجلاً له عقل ورأي !..
– اصبت فأهل الكوفة جميعهم لا يعلمون ماذا يفعلون ... انهم أهـل شر وفتنة لا يطيب لهم الا ان يعكروا الماء ... وانت تذكر ان سرجون نصح لنا من قبل بان نختار لك بلداً غير الكوفة فلم نفعل ، والذنب ذنب امير المؤمنين وحده !.. قال : اهانوني ولم يرعوا حرمة ام الحكم ..

قال : مثلك من يصبر على الاهانة . – ولم يرعوا حرمة امير المؤمنين..
– ومع ذلك فامير المؤمنين يصبر مثلما تصبر ويغض طرفـه عما يرى ويسمع ...

قال : اسألك يا مولانا ان تعرف حقي فانا ابن اختك ...
– ما رأينا أحداً يعرف هذا الحق اكثر مما نعرفه نحن ..
– اذن فانصفني من اهل الكوفة . – بماذا ؟
– بان تدعو اشرافهم الى دمشق وتأمر بجلدهم في ساحة الخضراء !!
– سنفعل ذلك بعد ان تسير الى مصر لانا سنعهد في ولايتها اليك ...
– ومتى يكون ذلك يا امير المؤمنين ؟
– بعد شهر . – وفي مصر جماعة من العقلاء ؟...
– انت اعقـل القوم فكن لهم ناصحا ومرشداً عندما يكفهر الجو ... ثم قال : خبرنا الآن ما رأيت في قتال الخوارج ..

قال : لم اخرج الى بانقيا مع الجيش .. – ومن تولى امر الحرب ؟
– رجال الكوفة جميعهم دون ان يكون لهم رأس ..

قال : انها بدعة في نظام الحروب خطرت لك .. تسير الجيوش الى الميادين ولا قائد لها وتبقى انت في قصرك ... ما هذا يا عبد الرحمن ؟
– رأيت من العار ان احمل السيف وعندي طوائف من الرجال ..
– اي انك اردت ان تقابل ثورة الخوارج بالاستخفاف ...
– نعم يا مولانا .
– وكرهت ان يقول الناس ، ان امير الكوفة ينزل عن مقامه ويقاتل اعداء

الخلافة ... فسكت وهو ينظر الى الارض .

فقال معاوية : وماذا صنعت بعد خروج الناس ؟

– صنعت ما يصنعه جميع الامراء .. اجلس للمظالم وانظر في الحاجات ...

– ولكن اهل الكوفة خرجوا جميعهم الى بانقيا ولم يبق غير الشيوخ والاطفال والنساء .. – لم اشأ ان اترك المدينة بدون امير .

قال : الوالي الذي يترك الجيش بدون قائد يترك كل شيء ولا يبالي .. قل انك رأيت مجال اللذة رحباً فآثرت البقاء ..

فتحير الرجل في امره ... لقد رأى منذ لحظة ، ان اسلوب خاله ، اسلوب ناعم فيه مظاهر الرضى ونغمات اللين ، ثم رأى الآن ان ذلك الاسلوب قد تغير وهو يسمع كلمات الجفاء ويقرأ الغضب على جبين امير المؤمنين .

وتلجلج صوته ، ثم تلعثم فلم يدر اي جواب يختار .

وبينا هو في حيرته ، سمع خاله يردد كلمته قائلاً : قل يا عبد الرحمن انك آثرت اللذة على الدفاع ..

فقال وهو مطرق : لقد اخطأت يا مولانا ولن اعود الى مثلها .

قال : غفرنا لك ذنبك فلنتحدث عن الكوفة .

– اسأل يا امير المؤمنين . – من هي العشائر التي حاربت الخوارج ؟

– عشائر البلد جميعها دون استثناء . – ورجال الشيعة ؟

– هم أول من حمل السيف من رجال الحرب .

– وخرج معهم قومهم ؟ – لم يبق منهم في الكوفة غير العاجز .

– وأنت ندبتهم الى القتال ؟ – نعم .

– كنا نظن ان ابن عوسجة ومن معه لا يقاتلون في سبيلنا أحداً من الناس . – قالوا انهم يقاتلون دفاعاً عن خلافة المسلمين ..

– والدفاع عن الخلافة معناه الدفاع عن امير المؤمنين ... وماذا حدث بين مسلم وشبث ؟

– عاتب احدهما الآخر ثم انتهى الأمر الى ما تحب الشيعة .

– هذا ما خطر لنا من قبل ... وأي موقف وقفه الربيع ؟
– هو يقول انه باق كما كان وليس له هم غير السماية بمسلم وعبد الرحمن .
– ولكننا نرى ان الشيعة لا تفضي اليه باسرارها .
– تجتمع الشيعة مرة كل شهر وهي تكتم الربيع ما تتحدث به .
قال : أرأيت يا سرجون ان أمير المؤمنين كان صادقاً في ظنونه !
قال : انا مؤمن بان امير المؤمنين يعرف كل شيء .
– وما هو رايك في الرجل الذي نوليه الكوفة ؟
– اسأل مولانا ان يختاره من رجاله الاشداء ... ولا اقول غير هذا .
– سنفعل ذلك بعد بضعة اشهر ..! – ومن يتولى امرها اليوم ؟
– صاحب الشرطة .
– وهل يذكر لي امير المؤمنين غايته من ذلك ؟
– لنا غاية واحدة هي ان يلج اهل الكوفة في طلب الامير الذي يريدون .
– اي ان امير المؤمنين يريد ان يولي الرجل الذي يسمونه له ...
– لا ، ولكن يريد ان يسموه ثم ينظر في امره .
– خير لك يا مولانا ان تختار عاملك في هذه الساعة .. – لماذا ؟
– لانك لم تترك قبل اليوم اقليما من اقاليم الدولة بدون والٍ .
–اما اليوم فسنترك الكوفة لنلمس باليدين هيبة امير المؤمنين فيها... ثم قال: اكتب الليلة كتاباً الى صاحب الشرطة، وقل له ان امر الكوفة في يدك حتى يأتيها عاملنا والويل لك اذا خرج احد الكوفيين عن الطاعة... اما انت يا عبد الرحمن فانصرف الى امك وقل لها ان الكوفيين لا يحفظون عهداً ولا يعرفون للامراء حرمة ... – وتأذن لي ان احدثها بأمر مصر ؟.
– حدثها بما شئت فام الحكم يجب ان تبقى راضية .

فخرج الوالي المخلوع وهو يفكر في هذا الحظ الذي اصبح عبداً له .
سيصير بعد شهر امير مصر، وسيذكر المسلمون اسمه ، كلما ذكروا اسم عمرو ابن العاص . واي اقليم من اقاليم معاوية يشبه مصر الخصبة التي يجري في واديها

النيل ؟ اجل، في مصر المال الكثير، وطوائف الحسان من كل بلد وكل جنس ... وفيها العز الذي لا يبلى والمجد الذي لا يزول ...

تلك هي الفكرة العذبة التي رددها صدر عبد الرحمن ، وهو في الحجرة التي جعلت له ، وقد دعا امه اليه .

اما معاوية فكان في تلك الساعة ينادي سعداً .

فلما اقبل قال له : نحتاج الى رجل كثير الكلام وفيه دهاء .

– وماذا يصنع هذا الرجل يا أمير المؤمنين ؟

– نعهد اليه في قضاء حاجة . – في دمشق ام في الخارج ؟

– سنرسله الى مصر يحمل منا كلاما . قال : فهمت . – ماذا فهمت ؟

– تريد ان ينقل الكلام الذي ذكرت الى اهلها ..

– احسنت وينشر هذا الكلام في المساجد والاحياء .

– وما هو الكلام يا مولانا ؟

– يقول لاهل مصر ان امير المؤمنين استعمل عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفي وسيأتيكم بعد ايام . – وهل بقي شيء ؟

– بقي ان ينقل هذا القول ، بوسيلة من الوسائل ، الى معاوية بن حديج .

– ثم يعود ؟ – ثم يعود دون ان يزيد كلمة على ما توصيه به .

– ومتى يذهب ؟ – يذهب الآن على ان لا يضيع ساعة واحدة .

قال : بين الحجاب رجل يقال له عامر بن شيبة . قال : عرفناه .

– وهو من الرجال الذين اثق بهم في قضاء الحاجات .

– اذن مره بان يتهيأ للسفر واذكر له ما سمعت .. اما انت يا سرجون فاخرج واكتب الى الكوفة ما امرناك به .

وأومأ الى من عنده بالانصرف كأنه يريد ان يخلو الى نفسه .

ولم يلبث حتى دعا ولي عهده وجعلا يتحدثان .

وامر سعداً بان لا يأذن لاحد في الدخول عليه .

١٠

تحدث اهل مصر فقالوا : من هو عامر بن شيبة القادم من الشام ؟
وكان بعضهم يقول: هو رسول معاوية ارسله في مهمة خاصة لم يشأ أن يبوح بها لاحد .. حتى بلغ معاوية بن حديج ما يقولون .
فدعا عامراً فقال له : ألست من حجاب امير المؤمنين ؟ — بلى
— وانت رسوله ؟ — نعم . — وفي اي شيء قدمت ؟
— في امر ليس لي ان اذكره لاحد من الناس .
— اني لا اعرض لامور امير المؤمنين ولكنه سؤال خطر لي. وماذا في دمشق؟
— يتناقل اهل دمشق خبر الحادث الذي جرى في الكوفة .
— ذلك هو خبر الخوارج على ما اظن .
— بل هو خبر العامل الذي طردوه وارسلوه الى الشام .
— عبد الرحمن بن عبد الله ؟ — اجل، وهو ابن اخت امير المؤمنين كما تعلم.
— وكيف يجسر اهل الكوفة على ما طرده ؟
فخفض صوته كأنه لا يريد ان يسمعه احد وجعل يقول :
— انهم لا يطيقون ان يكون اميرهم سيء السيرة فاسد الخلق ..
— اصبت، فقد اشتهر امر عبد الرحمن في كل مكان. وهل غضب امير المؤمنين؟
— لم يغضب على الكوفيين بل غضب على ابن اخته .
— ولكني أعلم ان الخليفة يؤثر ام الحكم على جميع اهله وهي أحب الناس اليه . — وأنا أعلم ما تعلمه انت .
— ومع ذلك فقد غضب على ابنها كما تقول ولم يحفظ لها حرمة .
قال : ان الحرمة التي خسرتها في الكوفة تجدها في مصر !
فذعر قائلاً : في مصر ؟! وهل تولاها عبد الرحمن ؟

— أجل وسيأتيكم بعد شهر .

فأطرق قليلاً ثم قال : لو لم يرَ أمير المؤمنين ان أهـل مصر يحتملون ما لا يحتمله أهل الكوفة لما شرّفهم بابن اخته.. انها ولاية لا نرضاها وليس فيالمصريين من يبتسم لهذا الثقفي الخليع .

ثم خيل اليه ، ان عامرا سمع ما سمع من افواه الغلمان فقال : وانت واثق يا ابن شيبة !

— نعم ايها الامير ، وقد رأيت سرجون الرومي يكتب عهد الولاية،في اليوم الذي تركت فيه دمشق قادماً الى هذا القطر .

— ولم يخطر للخليفة وهو أدهى الناس ان المصريين سيفعلون مع هذا الوالي، كما فعل اخوانهم الكوفيون ؟ قال : ان السكوت عن الجواب خير لي .

قال : أما نحن فخير لنا ان نتكلم .. متى تعود الى دمشق ؟

— أخرج من مصر غداً قبل ان يبزغ الفجر .

— وتظن ان عبد الرحمن يجيء بعد رجوعك ؟

— ستراه بعد شهر كما قلت . — وهل انتهى الامر الذي قدمت من أجله ؟

— انتهى امس وآثرت البقاء في مصر يوماً آخر .

قال : اذا مثلت بين يدي أمير المؤمنين فقل له ان معاوية ابن حديج ينتظر ابن اختك . وصرفه قائلاً لغلامه : ادعُ وجوه الناس

فلما دخلوا عليه قال : أعرفتم ماذا فعل معاوية ؟

— عرفنا انه ولى عبد الرحمن بن عبد الله - ومن خبركم بذلك ؟

— هذا الشامي الذي دعوته اليك منذ ساعة .

— تعلمون ذلك ولا تنقلون الينا قدماً ولا يرتفع لكم صوت ؟

— كنا نهم بالمجيء اليك قبل أن يأتينا غلامك .

— وما الرأي الآن ؟ — نصنع مثلما صنع اهل الكوفة .

— اي انكم تطردون الرجل . — نعم .

— ولا تخافون الجالس على العرش ؟

– لا نخاف في الحق احداً من الناس .. ان معاوية يستخف بنا ارضاء لاخته ام الحكم ولا يبالي .. ونحن لا نرضى ان يولي ابن اخته .

فجعل ابن حديج يوغر الصدور بقوله: اذا فعلتم ذلك فاجأكم معاوية بالجيوش.

– ونفاجئه نحن بالسيوف حتى يأمر بارجاع الرجل الذي لا نريد .

– أما انا فأرى ان نخضع لخليفتنا الذي بايعناه .

فقام أحدهم فقال : ليس لك ان ترضى ايها الامير بما لا نرضى بـه .. نحن جميعنا من انصـار معاوية كما تعلم ولكننا نأبى ان نكون عبيداً لرجل طرده الكوفيون . – إذن فاكتبوا اليه كتابكم .

– بل نصبر حتى يجيء عامله فنعيده اليه . قال : تلك هي الاهانة التي لا يغفرها لنا . – وكيف غفرها لرجال الكوفة دون ان يسألهم عما فعلوه ؟

قال : اخشى أن تجعلوني وتجعلوا انفسكم هدفا لغضبه .

فقال الرجل عندئذ : لا يصل معاوية اليك الا اذا سالت دماء قومك .

فأشرق جبينه قائلاً : أشيروا عليّ .

قال : يخرج رجلان منا الى الطريق التي تنتهي الى مصر ويمكثان هنالك حتى يجيء عبد الرحمن . – وبعد ذلك ؟

– ينقل أحدهما اليك خبر قدومه ، فتخرج للقائه وانت أدرى بمـا تقول وتفعل . فقال للقوم : أتوافقونه في هذا ؟ قالوا : نعم .

– وتكتفون بطرده من مصر دون ان تكتبوا الى معاوية .

– خير لك ان تسير الى دمشق مع طائفة من الرجال ، من ان تكتب اليه .

– لماذا ؟

– لانك تستطيع ، اذا رأيته ، ان تحدثه بالامر ، وتسترضيه اذا غضب.

– ولكن ام الحكم ستشهد مجلسه وستعرض لي فيه على مرأى ومسمع من الناس .

فقال رجل من قومه يا ابن حديج ، اتخاف النساء وانت قاهر الرجال ؟

قال : لا يجد فيّ الناس مظهراً من مظاهر الخوف ، ولكني اخشى ان يسمعني امير المؤمنين ما لا احب فأعمد الى السيف وتستعر النار .

— افعل ما شئت فالقتال خير من الذل .

قال : لقد انتهى الامر فاختاروا الرجلين اللذين يستقبلان عبد الرحمن في ضواحي مصر .

فاشاروا الى اثنين منهم فقال : اذا خرجتما فاحفظا الطريق ولا تضيعا امير المصريين ... ثم قال : وسأعد منذ هذه الساعة عدة السفر الى الشام والويل لام الحكم اذا نسيت من انا ... ان امير المؤمنين نفسه لا يجسر عندئذ على الانتصار لاخته . وقام فانصرف وانصرف القوم .

حتى مرت الايام وخرج الرجلان فنزلا في بعض الطريق ، واقبلا يتبينان وجوه الناس ، في الروح والمجيء ، ويسألان عن الاسماء ، ففي صباح يوم ، رأيا غلامين من غلمان الشام ، يتقدمان فرساً ابيض على ظهره رجل حسن الوجه حسن الثياب ، ووراءهم ثلاثة من العبيد معهم ناقتان ..فقال احدهما للآخر : هذا هو الثقفي .

ومشى الى الغلامين فقال لهما : من هو هذا ؟ — هذا امير مصر .

— عبد الرحمن بن عبد الله ؟ — نعم .

فالتفت اليه قائلاً : السلام على الامير .

فابتسم عبد الرحمن وقال : من انت ؟

— رجل من اهل هذا القطر اوفدني لاستقبالك معاوية بن حديج مع رفيق لي ونحن بانتظارك ...

قال : يبخل علينا معاوية ببضعة عشر رجلاً من رجال حرسه !..

— أمرنا بان ننقل اليه خبر وصولك .

— وهل عول على الخروج من قصر الامارة ؟

— نعم وسيجيء بنفسه عندما ينتهي اليه انك قدمت .

ونبقى هنا ريثما يجيء ؟

اجل وهذا رفيقي ينقل اليه الخبر الساعة ، وأومأ الى الرجل بالذهاب ،
ثم سأل عبد الرحمن ان يدخل الخيمة ويمكث بها حتى يرى موكب المصريين
القادم لاستقباله ، فنزل عن فرسه وجعل يتمشى وهو يجر ذيل غروره ..
حتى انتهى ذلك المصري الى قصر معاوية فقال له : قدم صاحبك يا مولاي .
قال : ومن معه ؟ — غلامان وثلاثة عبيد .
وهو ينتظر الآن خروج المصريين الى لقائه ؟ — نعم .
فنهض قائلا : قل لرئيس الحرس ان يتقدمنا بعشرة رجال ، ثم قال لغلامه :
فرسنا يا غلام ، وركب بعد ساعة حتى بلغ مكان عبد الرحمن فقال له : يا ابن
ام الحكم .. من ارسلك الينا ؟

فنظر اليه نظرة الاستخفاف وقال : انه سؤال لا نجيبك عنه لانك تعلم من
ارسلنا .. اين اهل مصر ؟
في الشرفات وعلى سطوح المنازل ... — وهكذا يستقبلون اميرهم ؟!
— ليس في مصر غير امير واحد هو انا .. — كنت اميراً من قبل ..
وانا امير المصريين اليوم على رغم املك ام الحكم ..
قال : خالي الذي ارسلني .

اذن فارجع الى خالك فلعمري لا تسير فينا سيرتك في اخواننا اهل
الكوفة الذين طردوك .. قال : هذا كثير يا ابن حديج .
بل هو قليل على الرجال الذين يفسدون الامة .. — وان لم ارجع ؟
ان لم ترجع مختاراً رجعت وانت مكره . قال : لا افعل .
قال : انظر الى هذا السوط انه قادر على ارجاعك .
فالتفت الى غلاميه وقد جالت الدموع في عينيه .
ثم وثب الى ظهر فرسه وجعل يقول : اني راجع يا معاوية وسترى ..
وانا لاحق بك وسترى ..
ومكث قليلاً وهو يشيعه بنظراته حتى ابتعد ، فقال لمن حوله : لنعد الآن

فقد انتهى امر عبد الرحمن من هذه الناحية . فقال رئيس الحرس : وبقيت ناحية اخرى ايها الامير ؟

– اجل بقي ان يرضى امير المؤمنين . – انه راض انشاء الله .

– من يعلم فقد تغوص مصر في بحر من الدماء .

– ولكنك ستسير الى الشام وتحدثه بالامر .

– نعم سنحدثه به والويل للامة جميعها اذا غضب .

ورجع الى قصره يستشير قومه من جديد ، ثم خرج من مصر بعد ثلاثة ايام ، يريد دمشق ، ووراءه خمسة عشر رجلاً من حراسه ، والخيبة والرجاء يترددان في صدره .

١١

خبر عبد الرحمن امه بجميع ما جرى له مع معاوية بن حديج ، وذلك قبل ان يدخل على امير المؤمنين .

فقالت له : خبر خالك وسأشهد مجلسه كل يوم لاسمع ما يقوله لخاصته ، وارى ماذا يصنع . وقيل لمعاوية : عاد ابن اختك عبد الرحمن . فابتسم ابتسامته التي لا لون لها وقال : لا حول ولا قوة الا بالله لقد فعل اهل مصر ما فعله اهل الكوفة .. اين ام الحكم .. انا نريد ان تسمع كل شيء ، ودخل عبد الرحمن ثم اقبلت امه .

فقال معاوية : يخيل الينا يا عبد الرحمن انك لم تدخل مصر .

– لا يا أمير المؤمنين .

– والى اي مكان انتهيت ؟

– الى غابة النخيل التي تنتهي عند السور : – وما وراءك ؟

قال : لقيني معاوية بن حديج وأمرني بان أرجع لان اهل مصر لا يريدون اميراً غيره .

- ولم تذكر له امير المؤمنين ؟

- بلى ولكنه قال ان المصريين هم الذين يختارون اميرهم .

- ومن كان معه ؟ — طائفة من حراسه .

- ورجعت دون ان تقول كلمة ؟

حاولت الدخول فهز سوطه قائلاً لي : هذا قادر على ارجاعك .

فقالت ام الحكم : لو كنت مكانك ، وانا امرأة ، لما رجعت .

قال : ما ذهبت لأشهر حربا

- ولكنك ذهبت لتكون اميراً فلم تقدر .

- وهل أدخل قصر الامارة بالقوة وأجلس للناس ؟

فمد معاوية اصبعه قائلاً : كان عليك ان تصر على الدخول .

- واذا فعلت ؟

- يضربك معاوية وفي هذا الضرب انتهاك لحرمة الخليفة .

- خفت ان افعل ذلك فتغضب .

- بل نغضب الآن لانك من الرجال الجبناء .. ألم تسمع ما قالت امك .. اما لو كانت مكانك لما خضعت لابن حديج .

قالت : قلت يا مولانا كلمة اسألك عنها . — اسألي .

- قلت ان ابن حديج اذا ضرب عبد الرحمن انتهك حرمة الخلافة .

- وأقولها مرة ثانية .

ولكني أعلم ان كل رجل يخالف امير المؤمنين فيما يريده ينتهك هذه الحرمة ، ألم يرد امير مصر عبد الرحمن ؟ — بلى .

- وما معنى هذا الرد . — ما معناه ؟

- معناه ان معاوية لم يخضع لك ، ومن لم يخضع لك فهو خارج عن الطاعة ، وكيف لا ينتهك الحرمات من يخرج عن طاعتك .

قال : لقد رد اهل الكوفة عبد الرحمن قبل اهل مصر . — نعم .
— اذن فاهل الكوفة جميعهم لا يخضعون لامير المؤمنين .
— يخضعون له من هذا الوجه ثم يخالفونه من الوجه الآخر .
قال : الناس عبيد الله يا ام الحكم . — أعرف انهم عبيده عز وجل .
— ولهم في كل شأن من شؤونهم حرية ورأي . — وأعرف هذا ايضاً .
— والحياة لهم مثلما هي لك ولنا . — أؤمن بذلك كما أؤمن بالله .
- اذن فليس بكثير على الكوفيين ان يطردوا اميرهم الذي نسي أمرهم وأمر ولايته ليتمرغ في اللذة ، ثم لان فقال : قولي ان لهم عذراً فيما فعلوه .
قالت : يقبل امير المؤمنين أعذار الناس عندما يشاء ويغض طرفه عنها عندما يشاء ...

قال : لم نذكر هذا لتغضب اختنا بل لترضى .. اسمعي .. ان المصريين سيعتذرون بقولهم : لا نقبل والياً طرده اهل الكوفة ومن حقهم ان يقولوا ذلك.
— لو كانت لك رغبة في تولية عبد الرحمن لأكرهتهم على الرضى .
— أما الرغبة التي تذكرين ، فقد ثبتت لك في كتابة العهدين ، وارسال ابنك الى البلدين ، وأما ان نسعر الحرب من أجل والٍ فهذا ما لا نفعله ولا يخطر لنا ان نقع فيه .. ونظر الى سرجون قائلاً : اكتب الى معاوية .
فقال عبد الرحمن : تكتب اليه ماذا ؟ — نسأله عما صنع .
— ولكنه سيجيء الى الشام بعد ايام . — ومن قال لك هذا ؟
— هو نفسه وأظن انه لحق بي . قال : صبراً يا ام الحكم فستسمعين عذره .
— لقد اكتفيت الآن باعتذارك عنه .
— قال : انك لا تعرفين من هو معاوية بن حديج .
— هو عثماني ، ابغض علياً البغض كله ، وكان عونا لك على قتل محمد بن ابي بكر والاستيلاء على مصر .
— وهو الباذل حياته في سبيل الخلافة ، والحامل لواء اخيك امير المؤمنين خفاقاً في ذلك القطر ؟. — وعلى أي امر عولت ..

– على الصبر ريثما يجيء .

قالت : خير لولدي ان يرحل الى قومه بني ثقيف ويقيم بينهم . – لماذا ؟

– لان امره قد انتهى الآن .

قال : يفعل ذلك بعد ان نحدث معاوية ونسمع دعواه .

– قالت : أتأذن لي ان ادخل عليك كل يوم .

– تستطيعين ان تبقي في مجلسنا ما طاب لك البقاء فيه .

– ومتى تظن ان الرجل يصل الى دمشق ؟

– اذا كان قد ترك مصر ، بعد ان تركها عبد الرحمن فهو ينتهي الينـــا بعد يومين او ثلاثة .

قالت : ارجو ان تدعوني اليك يوم يمثل بين يديك .

فقال لمن عنده : امست اختنا بشوق الى عدو ابنها ... سنفعل يا ام الحكم ما تشائين على ان ترضي .

فقامت وهي تقول : ان لم يرض المرء مختاراً رضي وهو مكره ، وخرجت دون ان تنظر الى احد من رجال المجلس .

فقال معاوية لابن اخته : لقد غضبت امك ونحن ليس لنا حيـــلة فيك .. اردنا ان نوليك واردت انت غير ذلك فليكن الماضي عبرة لك .

واقبل يحدث رجاله بشأن البصرة ثم قال لسرجون : ألم تبلغك اخبار العداوة بين الأحنف بن قيس وعبيد الله بن زياد ؟

– سمعت عنها الشيء الكثير يا امير المؤمنين . – وعرفت اسبابها ؟

– عرفت ان الاحنف سيء المنزلة من عبيد الله .

قال : نحن راضون عن ابن زياد في كل شيء الا في هـــذا ..

– اكتب اليه يا مولانا .

– بل ندعوه الينا وندعو الاحنف فنعرف مقامه وعبد الله حاضر .

– ولكنه يعود الى المباعدة عندما يخرج من دمشق .

– اذن نعزله ارضاء لابي بحر ، اكتب الآن : من امير المؤمنـــين معاوية الى

عبيد الله بن زياد عامل البصرة : « اذا اتاك كتابنا فاركب الى دمشق ومعك وجوه قومك وقد كتبنا الى الاحنف بن قيس نأمره بالمجيء » ، واكتب الى الاحنف كتاب رضى ومره ان يحضر ففعل سرجون وهو ساكت ، ثم قال: يظهر ان الاحنف لا يحني رأسه لعبيد الله .

قال : قضى الاحنف عمره كله وهو رافع الرأس فليس من السهل ان يستسلم الى ارادة فتى مثل ابن زياد .. ان لابن زياد شجاعة تشبه شجاعة ابيه ولكن ليس فيه دهاء . — لو كان داهية لاسترضاه .

— والاحنف لا يطلب شيئاً ولا يسأله قضاء حاجة له .. يكفي ان يشاوره في امره ، ويجعل مجلسه بالقرب من مجلسه ، ويأمر غلمانه بان يأذنوا له في الدخول عليه عندما يخطر له ؛ دون ان يسألوه .

قال : تحب الاحنف يا امير المؤمنين وقد كان من انصار علي ؟

— ونحن واثقون بان هواه اليوم في الحسين وهو يؤثره على كل اموي لا يستثني امير المؤمنين . — وكيف ترضى عنه ؟

— انه لا يتظاهر بما قلت ولا يخرج عن الطاعة والقلوب لله يا سرجون فنحن لا نعرف ما فيها . — ولكنك تقول ان هواه في الحسين .

— نقول هذا وصفات الاحنف تكرهنا على احترامه ، والدهاء يدعونا الى قضاء حاجاته دون ان نمن عليه .. ان الخلافة يا سرجون تحتاج الى رأي ابن قيس كما تحتاج الى سيفه ، ولو كان شيخاً ، ثم قال : ووالله لو سألنا الآن ان نعزل ابن زياد ونولي رجلاً من صعاليك الناس لفعلنا .. ارسل الكتابين الليلة ..

وقال لسعد : اين رسول الوليد بن عتبة عامل المدينة . — انه في الرواق.

— قرأنا كتاب مولاه ولم نسأله عن شيء .. مره بالدخول ، فاقبل الرجل فقال له : يقول الوليد ان عائشة تصارع الموت فهل رأيتها انت ؟

— لا يا امير المؤمنين ولكني سمعت غلمانها يقولون ان ساعتها قد دنت وسمعت الامير يقول لجلسائه : ليس هنالك أمل بالحياة ..

فذعر معاوية لذكر الموت وجعل يقول : لكل واحد يومه وسيأتي يوم امير

المؤمنين ، وارتجفت شفتاه واصفر جبينه ..

فقال سرجون : ماذا تقول يا مولانا ؟

– نقول ان الموت قريب وسنلحق بالخلفاء الذين طوتهم الارض .

– ولكنك متمتع بالعافية مشمول بالنعم ..

فخفض صوته قائلاً : اننا أضعف مما تظن ، ونكاد نرى يد الموت ، تمتد الينا ، من وراء هذا العرش لتنقلنا الى العالم الآخر ، وجعل يتمشى في تلك القاعة الواسعة ، ولم يشأ ان يزيد كلمة على ما قال ، كأنه كان يخاف ان يذكر الموت ، مرة ثانية ، وبعد قليل اذن للناس ، فدخلوا عليه ، ولم يلبث حتى نسي كل شيء ، الا امور دولته ...

١٢

كان معاوية بن حديج أمير مصر ، اذا قدم دمشق ، زينت له الطرق والساحات بقباب الريحان ، تعظيما لشأنه ، ذلك ما كان يفعله امير المؤمنين ، مع عماله المخلصين له ، المقربين اليه ، والمدافعين عن خلافته ، فلما بلغه ، بعد مرور ثلاثة ايام ، على رجوع عبد الرحمن ، ان ابن حديج على مرحلة من دمشق ، أمر الناس فزينوا طريق الخضراء ، وخرج الحرس الخاص بالحراب يحنون للقادم الرؤوس ويحيطون به ، وانتهى الخبر الى ام الحكم ، فأقبلت الى مجلس اخيها للنظر وصوله ، ونار الغضب تتقد في الصدر وتطل من العينين ، وفي المجلس الوزراء والعظماء ورجال البلاط ، وكان ابن حديج يمشي على مهل ، وهو لا يعلم اي خاطر يخطر لامير المؤمنين وأي أثر تركه في صدره ، رجوع عبد الرحمن ، حتى انتهى الى دمشق ، فأبصر الريحان عن جانبيه .. ورأى طوائف الناس تخرج للقائه ، وأقواس النصر فوق رأسه .

فأشرق جبينه وجعل يقول في نفسه : ما كان معاوية لينسى ابن حديج .

ثم خيل اليه ، ان هذه الرياحين مظهر من مظاهر الدهاء ، وان الخليفة سيرده الرد القبيح الذي لا يحتمله ، فقال : والله لئن فعلها معاوية لأعمدن الى السيف ولتسقط السماء !.. وقد استطاع ان يحجب آثار الاضطراب البادية على جبينه ، ولم ينزل عن راحلته ، الا عند باب القصر الخارجي ، وعينا ام الحكم تنظران الى باب القاعة ، وصدرها يعلو وينخفض كأن حمى الحقد والقهر ، تحرق الاحشاء ، واستأذن امير مصر ، فتنحى الحجاب دون ان يسألوا امير المؤمنين ، ودخل وهو رافع الرأس ، بعد ان سلم سيفه الى سعد .

فهش له معاوية ومد اليه يده فقبلها ، ثم أومأ اليه بان يجلس بالقرب منه ، والابتسامة تغمر شفتيه ، فقعد متأدبا ، وجعل ينظر الى رجال الدولة ويحييهم بعينيه ، فتجاهلت ام الحكم أمره وقالت لاخيها : من هذا يا امير المؤمنين ؟

قال : هذا معاوية بن حديج .

قالت : لا مرحبا . تسمع بالمعيدي خير من ان تراه ...

فرفع عامل مصر صوته قائلاً : على رسلك يا ام الحكم .. والله لقد تزوجت فما اكرمت ، وولدت فما انجبت . اردتِ ان تولي ابنك الفاسق فيسير فينا كما سار في اخواننا اهل الكوفة وما كان الله ليريه ذلك ولو فعل لضربناه ضربا يطأطىء منه ولو كره هذا الجالس على السرير !!. واومأ الى امير المؤمنين .

فالتفت اليها معاوية وقال : كفى يا ام الحكم ، ثم قال له : في اي شيء استحق عبد الرحمن غضبك ؟

– في هذا الخلق الفاسد الذي يتحدث به الناس ..

– كان عليك ان تأذن له في دخول مصر . – لماذا يا امير المؤمنين ؟

– ليعلم الناس انك خاضع للخليفة الذي ولاه .

– اني خاضع طائع كما تعلم ، وقد لمست خضوعي بيديك الاثنتين من قبل ، وعرفت من انا فليس لك ان تقول لي قولك هذا .. ثم قال : افلا يعلم الناس اني على طاعتك ، الا اذا أجلست عبد الرحمن على مقعد الامارة ورفعت صوتي

بالدعاء له ؟! قال : صبراً يا معاوية فما أردنا ذلك . — وماذا اذن ؟

— عار عليك وانت عامل مصر ، ان ترد عاملاً مثلك .

— ومن يرده ؟ — اهل مصر .

— وهل يطيب لامير المؤمنين ان يهان ابن اخته ويسمعه الناس ما لا يحب ؟

— بل يطيب لامير المؤمنين ان تثني العرب جميعها على معاوية بن حديج وتتحدث برحابة صدره ، اتعرف ماذا يقولون غداً ؟ — لا .

— سيقولون ان معاوية لا يطيق ان يلي مصر أحد سواه .

— بل يقولون غير ذلك.. يقولون انه لا يطيق ان يخلفه على الامارة ، رجل مستهتر يضيع كرامة خاله امير المؤمنين .

— وما تصنع يا ابن حديج اذا نحن اعدناه ؟.. — تعيده يا مولانا ؟!

— اجل ، ووراءه جيش من دمشق .. — ليس من الرأي ان أذكر لك ذلك . — نأمرك بان تفعل . — وانا آمن ؟ — وانت آمن .

قال : اصنع ما يصنعه اعداء الخلافة !! — اي انك تشهر السيف .

— نعم ولا يعيده الى غمده غير الموت !

فضحك ضحك الاستخفاف وقال : تفعل ذلك اذا استطعت .

— وكيف لا استطيعه وانا فتى الحرب ؟. — لانك عاجز .

قال : متى رأيت عجزي . — رأيته الآن . اين سيفك ؟

— مع كبير الحجاب . قال : خذه اذا قدرت .

— ويمنعني امير المؤمنين من أخذه ؟! — بل نمنعك من الرجوع الى مصر .

— اذن فانا اسيرك .

— أصبت ويجب ان تحمد الله على هذا الاسر ... ان امير المؤمنين لو لم يذكر الآن بلاءك في سبيل الدفاع عن خلافته لامر بضرب عنقك ...

فأرخى نظره الى الارض ويداه ترتجفان .

فقال : أجب يا معاوية . فظل ساكتا .

فقال : اتخاف ان يغدر بك امير المؤمنين وانت في بلاطه ؟

– لو كنت خائفاً لما اتيت دمشق ومثلت بين يديك .

قال : ظننت قبل مجيئك ان الخليفة سيعفو عنك .

– لا يفكر في العفو الا المجرم وانا بريء .

قال : اسمعوا ايها الناس ، ان ابن حديج يطرد ابن اختنا الذي هو عاملنا على مصر ، ثم يذكر لنا براءته ولا يخجل .

فحاول الرجل ان يعتصم بالهدوء فلم يقدر ، فقال : لقد اكرهتني يا امير المؤمنين على الوقوف الآن موقف الدفاع . – دافع ما شئت .

قال : الا تعلم وانت خليفة المسلمين ، ان عبد الرحمن ابن اختك سيء السيرة يشرب الخمر في نهاره وليله ولا يفارق مجالس الشراب ؟

– لا نعلم ان عبد الرحمن كما وصفت . – ولماذا طرده اهل الكوفة ؟

– لانه لم يخرج الى قتال الخوارج .

– ولماذا لم يخرج كما خرجوا ؟. – لان في الكوفة جيشاً يكفيه أمرهم .

– بل لان الخمر احب اليه من القتال وانت اول من اعترف بفساد خلقه .

– ومتى كان هذا الاعتراف ؟

منذ ثلاثة اعوام ، وكنت ، في ذلك الزمن ، وانت في هذا المجلس ، تعد ذويك الذين لا يصلحون للامارة .

– وذكرنا لك عبد الرحمن ؟

– نعم ، وكنت تقول انك تريد ان ترضي اختك ام الحكم ..

قال : لا نذكر شيئاً من هذا .

– اما انا فلم انس وقد قلت لك ، ليس في الاسلام جماعة ترضى بولاية ابن اختك . قال : لقد غير امير المؤمنين قوله السابق .

– ولكن عبد الرحمن لم يتغير ، ومن العار على الخليفة العظيم الذي يملأ اسمه الغرب والشرق ، ان يكلف الناس ما لا طاقة لهم به .

– كذلك من العار على هذا الخليفة ان يسكت عن المصريين الذين استخفوا به ... لقد ولينا الرجل ولسنا براجعين عما فعلنا .

قال : يا امير المؤمنين ، لا تخيب رجاء اهل مصر ..

قال : لا نقبل رجاء ولا نصغي الى احد ! — وقد انتهى الامر الآن ؟

— اجل فاذا كان لك ما تقوله فلا تتردد .

قال: اشهدوا ايها الناس اني بريء من بيعة يزيد بن معاوية .

فقال سرجون : نشهد . — وانا بريء من عهد بني امية .

فقال معاوية : وبعد ذلك ؟

— اسألك ان تعطيني سيفي وتخلي سبيلي .

— لا نريد ان نخلي سبيلك لترجع الى مصر .

— اقسم لك اني لا اعود اليها . — وتقيم بدمشق ؟

— واقسم لك اني لا اترك دمشق .. اعطني السيف .

— اما السيف فلا حاجة لك اليه .

فمد يده الى حزامه قائلاً : نعم يا معاوية ، اني لا احتاج الا الى هذا الخنجر الذي تراه ، ولمعت عندئذ في يده شفرة حادة ، فامتدت اعناق القوم وهموا بان يقبضوا عليه ، على ان الخليفة كان هادئاً ، وكان يقول : اتطعن امير المؤمنين يا ابن حديج .

— بل اطعن نفسي فانا أوثر الموت ، على ان يرد لي معاوية بن ابي سفيان ، سؤالا اسأله اياه .

وقرأ معاوية العزيمة الثابتة في عينيه ، فقهقه ثم قال : لو خبرنا اقرب الناس الينا ، ان معاوية ابن حديج مجنون لما صدقناه .

قال : لقد رأيت الآن بعينيك .. قال : ضع الخنجر على سرير الخلافة .

فجعل ينظر الى شفرته وهو ساكت . قال : نأمرك بان تفعل ...

— وما هي غايتك من ذلك ؟

— ليس لك ان تسأل امير المؤمنين عن غايته .. ضع الخنجر ..

فوضعه قائلاً : هذا هو فخذه .

فهامس اخته قائلاً لها : انصرفي الآن فليس من الرأي ان تبقي ، فقامت

فخرجت وهي واثقة بان الجو قد صفا لابن حديج . ثم قال لابن اختـــه : أما انت يا عبد الرحمن ، فقد رأيت ان الناس لا يحتملون منك ما تعلمه انت ، وما نعلمه نحن ، فكف الآن عن طلبك وأقم بدمشق ان شئت ، او فارحل الى بلاد قومك بني ثقيف ، ثم رفع صوته وقال : ان امير المؤمنين يعد ابن ام الحـكم ، بولاية يختارها له بعد زمن قصير .. اكتب يا سرجون لمعاوية عهداً جديـداً على مصر فهو اميرها ما بقينا .. اين سيفه يا سعد.. لقد أذنا له ان يضعه على ركبتيه وهو في مجلسنا .. ونحن نعيد اليه خنجره ليقتل به أعداء الخلافة .. اجلس يا معاوية وقل لنا ، ابريء انت من بيعة يزيد ومن عهد بني امية ؟

قال : لقد نسيت ما قلت يا امير المؤمنين ..

– وأيقنت الآن باننا نؤثرك على أحب الناس الينا واقربهم الى العرش ؟

– الله وحده يعلم ما في القلوب يا امير المؤمنين .. اني لك الى الابد كما كنت، وليزيد من بعدك . قال : لقد انتهينا الآن كيف مصر ؟

– مصر طائعة خاضعة لا يرتفع فيها صوت الا بالدعاء لك .

– ونحن نحب مصر ونعلم انها دعامة العرش .. متى تعود اليها .

– بعد بضعة ايام .

– بل تمكث بيننا شهراً كاملاً نراك فيه كل يوم ونستعين برأيك .

– ولكن مصر تثور في هذا الشهر . – وكيف ذلك ؟

– اوصيت القوم بان يحملوا لواء الثورة اذا انا لم أرجع .

فابتسم على عادته وقال : تعود امير المؤمنين ان يخمد النار التي تتأجج في هذا الشرق فهو لا يخاف ثورة مصر ولا يبالي بمن يحمل السيف .. ولكنه يعرف حق رجاله المخلصين له ، والذين دافعوا عنه وانت منهم .. فقم فارجع ، ارجع اليوم اذا شئت ، وقل للمصريين ان خليفتهم لا ينسى ابناءه الاوفياء ، ورأى عندئذ ان دهاءه كان مثمراً ، فمد يده ثانيـــة الى ابن حديج وهو يقول : اترك دمشق عندما يطيب لك ذلك دون ان تستأذن احداً ، فنحن راضون عنـك بارك الله فيك ، فقبل الامير ، تلك اليد المرتجفة ولم يقل كلمة ، وأومأ امير المؤمنين الى

., جون بان يتبعه الى داخل القصر .

١٣

قبل ان تنتهي السنة الثامنة والخمسون ، حمل بريد الحجاز ، الى امير المؤمنين
،مي عائشة زوج النبي ، ثم اقبلت السنة التي بعدها ، فدعـا معاوية في أول يوم
منها ، سرجون ، وولي عهده ، ولم يكن بينهم رجل آخر ، وقـــال لهما : أي
,أي لكما في ولاية الكوفة اليوم ؟

فقال يزيد : أرى ان يعمد امير المؤمنين الى اختيار عامل له .

– وانت يا سرجون ؟ – وأنا أرى رأي مولانا ولي العهد .

– ومن تختار ؟ – اكتب عهد الولاية للرجل الذي تختاره انت .

– وتعرف انت احداً يا يزيد ؟

وكان يزيد يعلم ، ان هوى ابيه في النعمان بن بشير الانصاري .

فقال : النعمان بن بشير يصلح للامر .

قال : يصلح لغير الكوفة فهو جبان لا يعرف غير الحلم واللين .

– وأمير المؤمنين يحب هذا الصنف من الرجال .

– أجل ، غير ان الكوفة تحتاج الى الشدة .

أوصه بالشدة يا امير المؤمنين . قال : اين ابن بشير يا سعد ؟

فخرج الرجل يدعوه ، ولم يلبث حتى دخل عليه ، فقال له : يا نعمان ، لقد
ـطر ليزيد ان يوليك .

– اني من عبيدك وعبيد الامير يزيد . – والولاية هي الكوفة .

– سأكون أصدق الناس في خدمة امير المؤمنين ، في الكوفة وسواها .

– ولكنك لا تعمد الى سيفك عند الحاجة اليه .

– اذا امرتني بأن أعمد اليه فعلت .

– نأمرك بذلك ، وسترى ، وانت في الكوفة ، ما لا نراه ونحن في دمشق.

– اوصني يا مولانا . – لا تنس لعن علي .

– لم انس ذلك وانا هنا فكيف انساه وانا هناك .

– واذا بدرت من اجل هذا بادرة غضب من احدهم ، فاضربه في المرتين الاولين ، وارسله الينا في الثالثة . – لا يقدم على ذلك غير رجال الشيعة .

– وهؤلاء هم الناس الذي نوصيك بهم خيراً .

قال : بينهم اشخاص لا يبالون بما يصنعون .

– ونحن نعرفهم وسنذكرهم لك واحداً بعد واحد لترى فيهم رأيك اذا حدثت الحادثات في ذلك البلد المضطرب . – من هم ؟

– اولهم وأبعدهم صوتاً مسلم بن عوسجة . – هذا اقرب الناس الى الحسين.

– وحبيب بن مطهر وسويد بن المطاع . – والاثنان من صف مسلم .

– وهنالك بضعة رجال يرون رأيهم ، في قوة التشيع ولعن عثمان .

– وماذا اصنع بهم ؟

– تشتد حتى لا يبقى موضع للشدة ، وتجفو حتى لا يبقى موضع للجفاء ..

– والآخرون ؟ – اما الآخرون ، واولهم شبث بن ربعي فخذهم بالحلم .

فقال سرجون : لقد عدل امير المؤمنين سياسته مع القوم .

– نعم ؛ ان للقوم رأيين ، فخير لنا ان نجعل السياسة معهم على وجهين .

قال : لقد عرفت الغاية من ذلك يا امير المؤمنين ؟ – اذكر ما عرفت .

– تريد ان تنتهي هذه السياسة الى واحد من امرين ، اما الثورة التي يعقبها الموت ، أو الرحيل .

– احسنت يا سرجون احسنت ، ولكن ماذا تظن ؟

– اظن ان الفئة الاولى تترك الكوفة . – وتلجأ الى الحجاز ؟ – نعم.

– ونستعين عندئذ بالدهاء والحيلة لنضم الينا الفئة الاخرى ؟. – نعم .

– ونمحو من العراق كله ، لفظة الشيعة ، التي يرددها الناس ؟ – نعم .

اذن فقد عرفت الغاية ولم تنسَ شيئاً ... اسمعت يا نعمان .

- اني سامع يا مولانا . — وقادر على ذلك .

سأفعل ما امرني به امير المؤمنين لا انقص ولا ازيد .

- اذن لم يبق الا ان تتهيأ ، واعلم ان عيننا ترى ما في الكوفة ونحن في الصحراء ، فاحذر ، ثم قال لسرجون : تكتب الآن عهدين ، أحدهما للنعمان والآخر لعبد الرحمن بن زياد على خراسان .

قال : يظهر ان امير المؤمنين يريد ان يجعل ابناء زياد جميعهم من الامراء .. وما تصنع بسعيد بن عثمان ؟

- ننظر في امره عندما يجيء .. واما ولاية ابناء زياد فامر لا نعرفه الآن وقد نعزل عبيد الله عن البصرة .

فقال ضاحكاً : بقي من ابناء زياد ، عباد .

- سنأمر اخاه عبيد الله بان يرسله الى قتال الترك في سجستان .

وبينا هم يتحدثون ، اقبل سعد يقول : وفد من البصرة يا امير المؤمنين .

قال : وفيه عبيد الله والاحنف بن قيس . — نعم .

فأذن لهم ، فدخلوا وهم بضعة عشر رجلاً ، وكان ابن زياد قد عرف غاية معاوية ، من الدعوة التي وجهها اليه ، واوصى القوم بما يقولون ، فلما اقبلوا ، رحب معاوية بالاحنف واجلسه معه على سريره ثم قال : ليتكلم من يشاء !... ولم يلتفت الى عبيد الله . وهو امير القوم ، فاحسن البصريون الثناء على ابن زياد والاحنف ساكت .

فقال معاوية : ما لك يا ابا بحر لا تتكلم ؟

قال : ان تكلمت خالفت هؤلاء فقال دون ان يتردد :

انهضوا فقد عزلنا اميركم واطلبوا والياً ترضونه !...

فهم عبيد الله بان يسأله عما دعاه الى عزله فاسكته قائلا : اخرج واخرجوا

انتم معه وليبق أبو بحر ، فلم يبق احد منهم الا اتى رجلاً من بني امية او من اهل الشام يسأله ان يشفع في الامير المعزول اما الاحنف فلم يترك منزله ولم يأت احداً ، ومكثوا اياما لا يدعوهم معاوية ولا يعبأ بهم ، حتى خطر له الخير ان يفعل ، فجمعهم فقال : من اخترتم ؟

فاختلفت كلمتهم .. ثم جعلوا يرددون اسم عبيد الله .

والاحنف على سرير الخلافة وهو مطرق .

فقال له كلمته الاولى : ما لك لا تتكلم يا ابا بحر ؟

قال : ان وليت احداً من اهل بيتك لم نعدل بعبيد الله احداً وان وليت من غيرهم فلك رأيك . — لا تقل هذا .

— وماذا اقول يا امير المؤمنين ؟ — قل اراض انت عن عبيد الله ام ماذا ؟

— حسب الرجل ان يرضي خليفته الذي ولاه ..

— اما عبيد الله امير البصرة فحسبه ان يرضي الاحنف بن قيس ...

قال : الشكر لك يا مولانا اني راض ..

— وتريد ان نرده وقد عزلناه ؟ — اذا شئت فافعل .

فقال الداهية لعامله : بلغنا ان الاحنف سيء المنزلة منك .

قال : ليس لاحد عندي منزلة ، ارفع من منزلته ولكنه بعيد عني يا امير المؤمنين ولا يحب ان يكون له رأي فيما اصنع .

قال : اذا رأيته بعيداً فقربه ، واذا غضب فأرضه ، واذا سألك حاجة فاقضها له لتبقى في منصبك ، أتعدنا بهذا ؟ — نعم يا مولانا .

— وتحتاج الى وصية غير هذه ؟ — لا .

فقال للاحنف : لقد سمعت الآن ما قلناه ، فاذا نكث عبيد الله عهده ورأيت تغيراً منه فاكتب الينا .. ارجع الى عملك يا ابن زياد ولكن لا تنسَ ، وارسل اخاك عباداً الى قتال الأتراك عندما تنتهي الى البصرة ، وهذا سرجون يدفع اليك عهداً تعطيه لاخيك عبد الرحمن ، بولاية خراسان .

قال : لقد غمرتنا بنعمك يا امير المؤمنين .

- ذلك ما نفعله مع القوم المخلصين ..

وبعد ان حدثهم ساعة صرفهم جميعهم الا عبيد الله ثم قال له : لم نكن نظن من قبل ان عبيد الله ابن زياد لا رأي له .

قال : في اي شيء ؟

- في هذه المباعدة التي ذكرناها الساعة ، أتترك سيد بني تميم ، البعيد الصوت في الاسلام ، وتقرب اليك من هم دونه ؟ قال : أخطأت ..

قال : تعلم ان تكون أدهى مما كنت ، واحذر ان يبلغنا عنك في الايام الآتية ما بلغنا فيما مضى ، واومأ اليه بان ينصرف وهو يقول : لا تنسَ ان ترسل الينا ، اخبار سجستان .

١٤

سار يزيد بن مفرغ الحميري، مع عباد بن زياد الى سجستان يساعده في حرب الترك ، بأمر معاوية ، ويزيد يقول الشعر وهو من الابطال المجربين ، فلما انتهيا اليها ، رأى عباد ان يقاتل عدوه من هذه الناحية ، ويقاتله يزيد ، مع طائفة من الرجال ، من الناحية الاخرى ، وانصرف الرجلان الى الناحيتين ، على امل ان يرسل عباد الى يزيد ، ما يحتاج اليه جيشه ، من عدة ومؤونة ، ولكن عباداً نسي ابن مفرغ ، بل نسي نفسه ، وهو يحارب العدو القوي الذي يستهين بالموت .

فاحس يزيد بالضيق ، وخطر له ان يهجو ابن زياد ، بشعر يقوله لمن حوله ، ثم تردده الافواه . قال :

ألا ليت اللحى كانت حشيشاً فنعلفهـــا دواب المسلمينا

وكان ابن زياد عظيم اللحية ، فقيل له : لم يرد ابن مفرغ غيرك .

فغضب ، ثم طلبه فهرب منه ، وجعل يهجوه بقصائد كثيرة قاسية عرفها

الناس وقد جاء في احداها :

اذا أودى معاوية بن حرب فبشر شعب رحلك بانصداع
واشهد ان امك لم تباشر ابا سفيان واضعة القناع
ولكن كان امر فيه لبس على وجل شديد وارتياع

وجاء في قصيدة اخرى :

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب ان يقول اباك عفٌ وترضى ان يقال ابوك زان
فأشهد ان رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الاتان

قالها ، وعاد الى البصرة ، وعبيد الله بن زياد في الشام عند معاوية ، وليس لعباد في البصرة نهي وامر ، فكتب عباد الى اخيه بما كان من يزيد ، وطلب اليه ان يستأذن امير المؤمنين في قتله ، فسأل معاوية ذلك ؛ فقال معاوية : أما القتل فلا نأذن لك فيه ، ولكن نأمر بتأديبه .

فبلغ الخبر ابن مفرغ ، فاستجار بالاحنف بن قيس فلم يجره ، وكان يقول : نخشى ان يظن امير المؤمنين اننا نعرض له ، فلجأ الى طائفة من الرؤساء فلم يجره احد ، حتى قيل له : لم يبق غير المنذر ابن الجارود .

فاتاه فقال له : استجرت بسادة العرب في البصرة فلم يرضوا بان اكون جاراً لهم ولم يبق الا انت أفتفعل مثلما فعلوا ؟

قال : بل نفعل غير ذلك .. ادخل داري فأنت آمن ، وكانت ابنة المنذر ، عند عبيد الله بن زياد ، فلما قدم عبيد الله ، خبره اخوه بمكان يزيد ، ثم اقبل المنذر مسلما على صهره ، فهامس عبيد الله صاحب الشرط قائلاً له : اذهب الى دار المنذر واحمل ابن مفرغ الى هذا القصر ، فسار الرجل مع رجاله ، ولم يلبث حتى عاد ويزيد معه .

فرفع المنذر صوته وجعل يقول، والناس يسمعون : اني قد أجرته ايها الامير.

قال : يا منذر ، يمدحك ويمدح اباك ، ويهجوني ويهجو ابي وتجيره عليّ دون ان تقول لي ولا تبالي ، ثم امر به فحمل على حمار وطيف به ، ثم سيره عبيد الله

الى سجستان مع اخيه ، فشفع فيه اهل اليمن النازلون في الشام وسألوا معاوية ان يأمر عباداً بارساله اليه ، غير مروع ولا خائف .

فقال : اكتب يا سرجون الى عباد ، ففعل ، وعندما انتهى كتاب معاوية الى ابن زياد ، دعاه اليه فقال : والله لو لم يكن لامير المؤمنين رأي فيك املمتك كيف تهجو الامراء .. اذهب ، ولا تظن اني بعيد عنك فوالله لأنتهين اليك ولو كنت في الخضراء ، فايقن الرجل بان معاوية عفا عنه ، فقـــال وهو في طريقه :

لعمري لقد نجاك من هوة الردى امام وحبل للامـــام وثيق
ساشكر ما اوليت من حسن نعمة ومثلي بشكر المنعمين حقيـق

حتى دخل على معاوية فبكى وجعل يقول :

لقد اصبت يا امير المؤمنين بما لم يصب به مسلم قط على غير حدث .

قال : أولست القائل : الا ابلغ معاوية بن حرب ...

قال : لا والله الذي عظم حق امير المؤمنين ما قلت هذا وانمـــا قاله عبد الرحمن بن الحكم اخو مروان واتخذني ذريعة الى هجــاء زياد لغاية له دون ان تكون لي يد في ذلك ..

قال: أولست القائل : فاشهد ان امك لم تباشر ... في اشعار كثيرة هجوت بها ابن زياد.. اذهب فقد عفونا عنك وانزل اي ارض شئت ، فرحل الى الموصل وتزوج بها ، ثم رجع الى البصرة ودخل على عبيد الله يسأله ان ينسى ما مضى ، فامنه ورضي عنه .

ثم بلغ عبد الرحمن بن الحكم ان معاوية غير راض ، فطلب الى بعض المقربين اليه ان يحدثوه بأمره ، فقال معاوية : لا ارضى حتى يرضى ابن زياد ، فلم يستطع ابن الحكم الا ان يأتي البصرة ويستأذن على عبيد الله ، فاذن له ، فقال :

لأنت زيادة في آل حربٍ احب الي من احدى بناتي
اراك اخا وعمـــا وابن عم فلا ادري بغيب ما تراني

فقال : اراك شاعر سوء ولكن قد رضيت، ثم دخل عليه رجل من خاصته، كان في الكوفة ، فقال له : متى قدمت ؟!

قال : الساعة . — وماذا في الكوفة ؟

قال : الصدور في الكوفة تغلي حقداً ..

قال : على النعمان بن بشير ؟ — نعم .

— تلك هي صدور اهل الشيعة فقد بلغني ان النعمان يجور ويقسو ويهددالقوم بالسيف ، بدون ذنب .

— يفعل ذلك يا مولاي بامر امير المؤمنين . — ومن قال لك هذا ؟

— يقوله النعمان نفسه لرجال مشورته ، ولكنه لا يجفو الشيعة كلها بل بضعة رجال منها سيدهم مسلم بن عوسجة .

— مسلم بن عوسجة ؟ اذن فللنعمان سر ..

— اجل والناس جميعهم في الكوفة يرون ما تراه .

— ويقولون انه يخص مسلما بجفائه . — رأيت هذا الجفاء بعيني .

— ماذا رأيت ؟

— رأيت صاحب الشرط ينهي ابن عوسجة ، عند المسجد ، عن ان يحدث سويد بن المطاع ، وحبيب بن مطهر . — ينهاه عن ان يحدث الناس ؟

— نعم ، وسمعت مسلما يقول : هذا ظلم لم يفكر في مثـــله مسلم قط ... اتمنعوني الكلام ؟

فاجابه قائلاً : اذا رأيت انه ظلم فاشك امرك الى امير المؤمنين ، وانتهى الامر عند هذا الحد ؟

— لا .. قال مسلم : اشكو أمري الى الله وحده .. ثم أومأ الى رفيقيه بان يلحقا به فمنعهما رجال الشرط قائلين : يذهب كل واحد منكم الى بيته ويقيم به ، ثم عرفت قبل ان أجيء ، انهم أمروهم بان يلزموا منازلهم ولا يخرجوا منها ، لا في النهار ، ولا في الليل الا الى الصلاة !

قال : يظهر ان امير المؤمنين يريد ان يحيط رجال الشيعـــة ، الواحد بعد الآخر ، بنطاق من الشدة ، ليستسلموا اليه ، وقد بدأ بمسلم .

— هذا ما يبدو لي . — وماذا يقول الآخرون ؟

وماذا يقولون؟. لقد استولى عليهم الذعر ، وانك لترى الخوف، بصورته الرائمة يغمر الوجوه ، واليأس ، مطلا من العيون ..

قال : لقد ظن الناس من قبـــل ، ان النعمان سيفضحه الضعف وسيتردد في امره ..

- ولكن النعمان لا يفعل شيئاً ايها الامير .. ان امير المؤمنين هو الفاعل .

- هو ذاك ، والويل لشيعة الكوفة فقد اتت ساعة الحساب . وجعــل يهز رأسه ويقول : لو جعلني معاوية عاملاً له على الكوفة لعمدت الى السيف ، وأخذ يصف للقوم قساوته وشدة بطشه ! وهم مصغون اليه ، والرؤوس تنحني لكل كلمة يمليها عليه غروره ، وتوحي بها اليه عاطفة الكبرياء

١٥

كان مسلم يتكلم ، وولده عبد الرحمن يذرف الدموع ، انها ساعة مؤلمــة لم تخطر له من قبل انه سينتهي الى مثلها ، انها ساعة الرحيل الى الحجاز .. ساعة الفراق المر الذي يقطع القلب .. اجل ، كان يعلم ان هذا الرحيل لا بد منــه ، وان بقاء أبيه في الكوفة ، يعقبه الموت ، ولكن الحب ، الحب الذي يملأ صدره، لا يستطيع ان يجود عليه بالقليل من الجلد والصبر . مسكين عبد الرحمن .. ابوه من هذه الناحية ، وغرامه من الناحية الاخرى ، وهو بين واجبـــه وغرامه ، ريشة في مهب العاصفة ، يقضي عليه الشرف ، بان يلحق بأبيه الى حيث يشاء، ويقضي عليه الهوى ، بان يبقى بالقرب ممن احب ، وقد املى عليه هذا الشرف ان يؤثر اباه على نفسه ، وان يبذل الجهد كله ليحمل عمرو بن الحجـاج على ترك الكوفة ، والذهاب الى الحجاز مع ابيه ، وليس من شيمة النبلاء مثله ، ان يحول الغرام بينهم وبين البر بالوالدين .

وكان مسلم ، يحس بالنار تتأجج في صدر عبد الرحمن ، ويكاد يلمسها بيديه.. ولكنه لم يكن قادراً على حمل السيف ، وهو العاجز عن الدفــاع ، كما انه لا يستطيع ان يرحل عن الكوفة ويترك ولده فيها بين مخالب الاسد .

النعمان بن بشير يشتد .. وهو يدفعه بشدته اما الى الاستسلام او الثورة ، ومسلم أرفع من ان يستسلم ، وأعقل من ان يثور ، ومعاوية يدفع النعمان من الوراء ، ويأمره بان يخرج مسلما عن حده ، بجميع وسائل العنف ، والاكـراه والجفاء ، ولا يحتمل الأبي اكثر من هــذا ، نعم صعب على مسلم ان يحني رأسه للذل ، ويرى رجال الشرط حوله في الرواح والمجيء ، يحصون عليه الانفاس ، وانك لتراه وهو يحدث ولده ، كالنمر الهائج ، يتكلم ويده على سيفه ، كأنه يخشى ان تمتد اليه يد الغدر ، من وراء الجدر ، وهو يفكر في الربيع بن شبث ، ذلك النذل الذي خان الشيعة ، وسعى به وبعبد الرحمن، كذلك كان عبدالرحمن يفكر فيه ، والاثنان ينظران بعين الحذر الى كل مظهر من مظاهره ، وقد قام في الذهن ، انه لا يتردد – وهو الغادر – في اعداد العدة لقتل البريئين .

وأطرق مسلم ملياً ثم قال : ماذا ترى يا بني ؟ – أرى ما تراه .

قال : اريد قبل كل شيء ان تكون رجلاً ..

– وانا اخاطب نفسي واكرهها ، على ان اكون كما وصفت ..

– ولا تظن انك تضيع امامة اذا انتقلت الى الحجاز .

– لا تحدثني بهذا يا مولاي فامامة ستضيع بعد هذا الرحيل .

– اذن فانت تشك في هذا الحب الذي تظهره لك .

– بل أشك في هذا القدر الاهوج الذي جار ويحدثني قلبي بأنه سيمعن في جوره وسيقتل الرجاء الذي بقي لي ..

– أما انا فالامل يملأ نفسي بان امامة ستبقى لك .

– وكيف تبقى وانا في الحجاز وهي في الكوفة ، وأبوها يتردد في أمره ، والربيع ينصب شركه ، في نهاره وليله .

– الحب يفعل العجائب يا بني ، سيعجز الربيع عن ان يسمعها صوتــه ..

ويعجز البعاد ، عن ان يزعزع أركان الغرام الراسخ في القلبين .

فهز رأسه قائلاً : انه امل ليس في الافق ما يدل عليه .

– قلت ان الحب يفعل العجائب وانا واثق بذلك .. قل لي يا عبد الرحمن أتخون عهد امامة اذا أراد الحسين نفسه ان يزف اليك فتاة من اهل بيته ؟. – لا.

– وتخونه اذا عُرض عليك مال معاوية وتاجه ؟ – لا .

– وانت واثق بان امامة تصنع ما تصنعه انت ؟ – نعم .

– وتظن ان اباها لا يستطيع اكراهها على الزواج ؟

– العالم كله لا يستطيع ذلك .

– اذن فليس في الرحيل ما يدعو الى الخوف .

– اني انظر الى الامر من ناحية اخرى . – ما هي ؟

– أخشى ان تفصل حادثات الزمن بينك وبين عمرو بن الحجاج .

قال: أي أن ينقلب فيصير أمويا ويشهر السيف في وجه الشيعة. – نعم.

– ليكن عمرو من رجال معاوية ، وليلعن علياً في مسجد الكوفة ، على مسمع من الناس ، فانا لا ابالي بهذا ولا أمنع ابني من ان يكون زوجا لابنته .

قال : أسألك يا أبي أن تلح على عمرو في ترك الكوفة .

– سأفعل وسترى وتسمع .

ونادى أحد غلمانه وقال له : أرأيت رجال الشرط اليوم ؟

– رأيتهم في الصباح يا مولاي . – حول هذا المنزل .

– نعم ، وفي الحي . – والآن ؟ – أما الآن فقد انصرفوا .

– اذهب الى منزل هانيء بن عروة وقل لعمرو بن الحجاج اني آت ، ومكث الاثنان حتى عاد الغلام ، فانصرفا ، وكانت الكآبة قد استولت على امامة وهي لا تكف عن البكاء ، فلما اقبلا ، خرج هانيء وعمرو ، والنساء الثلاث الى الرواق وكان هانيء يقول وهو يبتسم ابتسامة الالم : تخرج يا ابا عبد الرحمن في وضح النهار ولا تخاف النعمان ؟.

فاجابه قائلاً : ليس للنعمان هيبة يخافها الشجاع .. اني ارى الموت بعيني وانا

اريد ان ادنو منه .

– ولم ترَ رجال الشرط ؟

– انهم في الحي ، ولكنهم لا يجسرون على الظهور ..

وجلسوا ، وعبد الرحمن يخاطب امامة بالنظرات .

ثم قال عمرو : على اي شيء عولت ؟ – على السفر .

– وعبد الرحمن ؟ – حيثما يكن مسلم يكن ابنه .

قال : ستبلغ امامة العشرين من عمرها بعد عام .

– وبعد عام يتم الزواج ان شاء الله . – في المدينة ؟

– نعم وقد جئت الآن اطلب اليك ان تترك الكوفة .

قال : لا اقدر ولي عذر ذكرته لك .

– عذرك انك لا تترك قومك بني زبيد أليس كذلك ؟ – بلى .

– ولكنك تركتهم من قبل واقمت بالغوطة .

– ارادت سلمى ان تقيم زمانا بين اهلها ففعلت .

قال : اسألك ان تقيم بالحجاز عاماً واحداً ريثما تزف امامة الى عبد الرحمن ثم تعود . – وانا اسألك ان تبقى في الكوفة ريثما تزف اليه .

قال : اتريد يا عمرو ان يحملني النعمان بن بشير غـــداً الى دمشق ، ليضعني معاوية في الحفرة التي وضع فيها حجر بن عدي ؟..

قال : انك لا تفعل افعال حجر .

– ومع ذلك فانت ترى رجال الشرط حول منزلي كاني قاتل معاوية وكل كلمة اهامس بها احداً تنقل الى النعمان .

قال : تستطيع ان تمكث بالمنزل العام كله حتى تبلغ الغاية !

– اذن تريد ان احمل ذلي عاماً كاملاً لا يرتفع لي فيه صوت .

– بل اريد ان تصبر على الشدة كما تصبر الرجال .

– انه امر لا يصبر على مثله مسلم بن عوسجة ..

– وما الرأي ؟ – الرأي لهانيء .

قال : تصر يا ابا عبد الرحمن على الرحيل ، ويصر عمرو على البقاء في الكوفة ولسألني الرأي ؟؟ انها مهمة صعبة ليس لي ان ابدي فيها رأياً .

فقالت خولة : الرأي الا تفصلوا بين العاشقين ..

– وكيف نصنع ؟ – اي عذر لابي عبد الرحمن ؟

– عذره انه لا يستطيع ان يقيم ببلد اميره النعمان بن بشير ..

فقال مسلم : قل ان النعمان ومولاه معاوية لا يريدان ان اقيم بالكوفة الا اذا امسيت عبداً لهما . قالت : وعذر ابي امامة ؟ – الم تسمعيه ؟

– بلى سمعت كل شيء ولكني اريد ان تذكره مرة ثانية ..

– انه لا يطيق ان يفارق قومه ؟

– وكيف يفارق أبو عبد الرحمن بني أسد ؟

فقال عمرو : اكرهه السلطان على الفراق ..

– اذن فانصفوه وانصفوا ولده بالرحيل الى الحجاز .

– لا ارحل الا اذا رحل بنو زبيد . – لماذا ؟

– لاني اخشى ان يسومهم النعمان الذل .

– لو اراد النعمان ان يفعل ذلك لفعله اليوم .. هـــذا سيد بني اسد يترك الكوفة ولا يخاف ما تخافه .

قال : ما هي الغاية من الذهاب الى المدينة ؟

– ان تكون امامة وعبد الرحمن في بلد واحد .

– والغاية من اجتماع الاثنين ؟ – ان يتم الزواج في العام المقبل .

– ولا تزف امامة الى عبد الرحمن اذا بقيت في الكوفة ؟

قالت : الكوفة ملعب من ملاعب السياسة والحرب كما تعلم .

قال : نحن لا نشهر حرباً . – ولكن الزمان يخلق الحادثات ..

– يستطيع هذا الزمان ان يخلقها ونحن بين يدي الحسين ..

– ليرحل بنو زبيد الى الحجاز فهو خير من الكوفة .

– ولكن لا تتسع فيه اسباب العيش .

فقال مسلم : نحن اليوم في العام التاسع والخمسين . — نعم .

— وينتهي الاجل في العام الستين . . — نعم .

— أفتريد اذن ان تحمل امامة الى عبد الرحمن وهو في المدينة ؟

- احملها اليه يوم ينتهي الي كتاب منك .

قال : سيأتيك شبث بن ربعي غداً خاطباً للربيع . فاضطربت امامة ، ثم خافت ان يفضحها الدمع فخرجت الى الحجرة الاخرى تصغي الى ما يقولون وهي تبكي .

فقال عمرو : لا يفعلها شبث . — واي شيء يمنعه من ذلك ؟

— ذلك الفشل الذي لقيه في المرة الاولى وانت تعرف أي رجل هو .

— واذا جاء الربع ؟ — الربيع لا يجيء .

— لماذا ؟ — لان أباه لا يرضى .

قال : النذل يستهين بأبيه ولا يبالي وأنا أرى انه سيستعين بالنعمان بن بشير نفسه على قضاء حاجته . قال : أي شأن للنعمان ؟

— سيطلب اليه الفتى الغادر ان يخطب له .

قال : ما هذه الظنون يا أبا عبد الرحمن ؟

— انها ظنون تمليها علي السياسة التي ترى اثارها اليوم .

— وهل للربيع يد في هذا ؟

— انه سببها وموقد نارها . اسمعوا يا رجال الشيعة ، اني راحل عنكم بعد ثلاثة ايام ، وسترون في هذا العام ، أو العام الذي بعده ، ان الشمل سيتفرق وان الشيعة في الكوفة ستموت ! !

فضحك هانيء قائلاً : وهذا كله يقوم به ابن شبث ؟

— بل يقوم به النعمان بأمر معاوية ، ولولا مساعي الربيع لما خطر لمعاوية ان يخرج عن الحلم الذي عرف به .

قال : خبرنا الآن بما يفعله النعمان .

— لقد بدأ النعمان بي ولم ينسَ ابن مطهر وابن المطاع ، وهو يسير في ذلك

غور الشيعة ويبلو الرجال ..   — وبعد ذلك ؟

— يعمد الى هانيء بن عروة ، وعمرو بن الحجاج ، وسليمان بن صرد ، وشبث ابن ربعي ، وغير هؤلاء ، فيقرأ ما في نفوسهم ويلمس رباطة الجأش باليدين ..

— ثم يجفو ؟.

— يجفو اذا كان هنالك صلابة في العقيدة وقوة في الايمان كما فعل مع مسلم ابن عوسجة ، ويلين اذا كان هنالك ضعف وعجز ، وهو بالغ غايته في الحالتين .

قال : لا يبلغ هذه الغاية ونحن احياء .   — انتم ؟   — نعم نحن .

قال : والله ليأخذنكم معاوية واحداً بعد واحد دون ان يطرف له جفن وسترون . قال : بالسيف ؟

— لا يلجأ الى السيف الا اذا خاب الامل بالدهاء .. ومع ذلك فلمعاوية سياسة ولكم رأي وحسبي اني اوصيتكم فكونوا على حذر . ثم قال : لنرجع الآن الى الربيع .. بماذا تعدني يا ابا معاوية ؟

اقول لك كلمة ، لا اقول سواها .. ان الربيع والنعمان ومعاوية لا يستطيعون ان يغيروا ما وعدك به ابن الحجاج .

— اي ان امامة ستمسي زوجة لعبد الرحمن ..

— نعم . رضيت بهذا وهؤلاء يشهدون ...

فالتفت الى هانيء قائلاً : ان الريب في صدر مسلم ..

— اجل ولكن هذا الريب ، من الزمان لا من الاخوان .. اين امامة ؟

فقالت زوجة هانيء : هي هنا .

وخرجت الى الرواق ثم الى الحجرة الاخرى ، وتبعها عبد الرحمن ، وكانت الفتاة مستندة الى الجدار وهي تذرف الدموع .

فقال : لم يبقَ الا ان نصبر على الفراق فهو عام وينقضي ثم يجتمع الشمل ان شاء الله . قالت : اني خائفة .

فتجاهل قائلاً : ليس في الامر سبب واحد من اسباب الخوف .

فهامست خالتها قائلة : اخاف ان ينكث ابي عهده !...

– وانا اخاف ما تخافين فخبري عبد الرحمن .. فقالت له : ماذا رأيت الآن؟
– أأقول كل ما اعلم ؟ – كل ما تعلم دون ان تخفي شيئاً .
قال : رأيت ابا امامة يتردد في أمره ، وقد يكون هذا التردد مظهراً من مظاهر وفائه .. – وهذا ما تراه امامة .
قال : اتخافين ان ينكث ابوك العهد ؟ – نعم . – واذا فعل ؟
– اذا فعل اكفهر وجه الجو ، وامسى هذا الولاء ، بين البيتين ، عداوة تنتهي الى الفرقة ، ثم يعقبها السيف .. – اما انا فلا اخاف ذلك .
فبكت قائلة : قل انك لا تبالي .
قال : امامة .. اتشكين في عبد الرحمن ؟ – وماذا عنيت بقولك ؟
– قلت اني لا اخشى ان ينكث ابوك العهد لان نكث العهود لا يؤثر في هذا القلب . ثم قال : وقد جئت الآن اسألك سؤالا ، فجعلت تنظر اليه والغرام يجول في عينيها الصافيتين .
فقال : يخيل الي ان الربيع واباه سيعودان الى النغمة الاولى عندما يخلو لهما الجو ..
قالت : لا تذكر الربيع .. – بل اذكره لنتدبر الامر .
قالت : نعم .. يعودان الى نغمتها الاولى ... ثم ماذا ؟
– ثم يخطر لابيك ان يعدهما بامامة .. فماذا تصنعين اذا فعل ، أتنسين هذا العاشق الذي يخاطبك الآن ؟
فكفكفت دموعها قائلة : ليعد ابي من يشاء فهذا القلب لا يتغير .
– ولكنه يستطيع ان يأمر ابنته بان تترك عبد الرحمن بن مسلم ...
– يستطيع ان يعد الناس بابنته ، ليس غير ! – واذا استعان بامك ؟
– اما امي فلا تضع السهم القاتل في صدر امامة . –واذا عمد الى القوة ؟
– اقول له على مسمع من اهل الكوفة ، اني لا ازف الا الى عبد الرحمن .. فان لم يرض فالموت احب الي من ان اكون لسواك .
قال : ارأيت الآن اني لا اخاف .. – وهذا الفراق ؟..

فتجلد قائلاً : ان حياتنا في خطر فالفراق لا بد منه .

– اجل لا بد منه ، فاذهب الى الحجاز .. اذهب وانج من الموت ، واعلم ان في الكوفة فتاة اذا افتر لها ثغرك افتر لها ثغر الزمان ..

وكأن اله الحب ، وهب للعاشقين في تلك الساعة قوة الاحتمال .

فقال : أرحل يا امامة وانا مطمئن ؟

– نعم فالعالم كله لا يستطيع ان يفصل بيني وبين من احببت .

وسمع عندئذ صوت امها ينادي : اين انت يا امامة ؟

فمشت الى قاعة الجلوس ، وعلى الجبين اثر ضعيف من آثار الهم .

وبقيت سلمى وعبد الرحمن في الرواق .

فقال مسلم لابن الحجاج : اتريد أن تسأل امامة رأيها في الزواج ، قبل ان نترك الكوفة ؟

قال : لا رأي لامامة في الامر .

– ولكن ارجو ان اسمع وعدها كما سمعت وعدك ؟

ودخلت سلمى ، ثم دخل الفتى ، فقال عمرو : لك ان تسأل ما شئت .

قال : كلمتك يا امامة .

فكرهت ان تعترف بغرامها دون ان يكون هنالك ما يدعو الى الاعتراف، فقالت : اعد بما وعد به ابي والرأي رأيه .

– وليس لك ما تقولين ؟ – يكفي ان تعلم اني مقيمة على العهد ...

فنهض مودعا وهو يقول لعبد الرحمن . هذه زوجتك فلا تفكر في غيرها .

ثم صافح القوم قائلاً : الى اللقاء بعد عام . فقال هانيء : متى تسافر ؟

– اعد عدتي ثم اترك الكوفة بعد ثلاثة ايام ، ولكني لا اعلم الساعة التي اتركها فيها . – ولمَ ذلك ؟

– لاني لا اريد ان يشيعني رجال الشرط الى الخارج ...

– وسويد بن المطاع وابن مطهر ؟

– يرحلان معي على ان لا يعودا الى الكوفة ..

قال : سنقضي هذا الليل والليل الذي بعده في منزلك .

– وعيون النعمان بن بشير ؟

– لا نبالي بما يفعله النعمان فقد خلقنا الله احراراً .

وكان عبد الرحمن قد صافح المرأتين ثم خفض صوته قائلاً لامامة : انا لك الى الابد ...

فاجابته قائلة : الى الابد ...

وارتجفت اليدان .. وخفق القلبان ، وتردد البكاء في الصدرين ...

١٦

مرت الايام الثلاثة كما يمر الظل ، فلما انقضى الهزيع الثاني من ليـــل اليوم الرابع ، خرج سيد بني اسد وابنه ، وجاريته وغلمانه من الكوفة ، ومعهم سويد بن المطاع واهل بيته ، ولم يخرج حبيب بن مطهر ، لمرض اصيب به احد ولده ، وقد عاهدهم على اللحاق بهم يوم يشفيه الله .

خرجوا ، وعبد الرحمن يتلفت الى الوراء ، وامامة المنكودة الحظ ، امامة التي لم يغمض لها جفن ، تنظر من نافذتهـــا الى الافق ، وتصغي الى همس النسيم الحامل اليها انفاس الحبيب ، وامها عندها ، تبكي لبكائها ، ثم تدعوها الى الصبر ، وكانت تقول : لقد مرت الاعوام الكثيرة يا امامة ولم يبق منها غير واحد ..

فتجيبها قائلة : خير لي ان يمر العمر كله ، وأنا في منزل ابي ، أرى وجه عبد الرحمن ، من أن أصبر يوما واحداً على هذا الفراق المر .

حتى طلع الصباح فأقبل هانيء فقال: أحسست بوحشة لم أحس بمثلها قط .. ان الشيعة في الكوفة ، لم يبق فيها ، بعد خروج مسلم ، رجـل صلب العود ، وجاء عمرو ، فشاركه في رأيه ، وجعل يداعب امامة ، ويقص عليها حكايات

الحرب ، وحادثات الهوى ، لتكف عن البكاء ، أما عبد الرحمن فلم يبك ، لقد أحس عند خروجه من الكوفة ، انه رجل ، والرجال لا يستسلمون الى الضعف بل يستعينون بجميع القوى ، ليثبتوا في وجه القدر الذي لا يلين ، وابوه معجب بما به ، وكان يقول : لو انتقلت امامة الى الخضراء ، لحملتها اليك على رغم ذلك الاموي الذي اغتصب العرش . .

ومشوا أياماً طويلة حتى انتهوا الى المدينة واتوا دار الحسين ، وحول الدار الغلمان ووفود الناس ، فاستأذن الرجال الثلاثة ودخلوا ، وعند الحسين طائفة من وجوه الحجاز ، الذين يعرفون مقامه ، ويعترفون بحقه .

فقال الحسين : مرحبا بالامناء المخلصين . . متى قدمتما ؟

فقبلا ركبته ثم قال مسلم : قدمنا الساعة .

- ومن هو هذا الفتى ؟ — عبد الرحمن بن مسلم .

قال : انه شبل من اشبال بني اسد . . اجلسوا . . ثم قال : كيف حال المسلمين في الكوفة ؟

فجعل الرجلان ينظران الى الناس . . ثم سكتا ، فقال : هؤلاء جميعهم من اخوانك يا ابن عوسجة . . ما وراءك ؟

قال : اما المسلمون الذين ينتمون الى بني امية ، فحالهم حال الرعية الآمنة . . واما اولئك الذين ينتمون الى مولانا الحسين فحالهم حال الرعية المروعة التي تحيط بها الحراب من النواحي الاربع .

فارتجفت شفتاه وجعل يقول : كفى ، فقد عرفنا كل شيء . . والنعمان بن بشير يعمد الى الشدة .

- نعم يا مولانا . — ويفعل ذلك بأمر معاوية ! — نعم .

- حسبنا الله ، فليفعل معاوية ما يشاء . . ولماذا تركتم العراق ؟

- ضاق بنا العراق يا مولانا فأتيناك .

قال : أتيتم رجلاً هو للمسلمين .. واين اخوانكم ؟

– آثرنا الرحيل ، وآثروا البقاء .

قال : يظهر ان النعمان يجفو قوماً ويلين لقوم !

– اجل ، ونحن من المغضوب عليهم كما ترى .

قال : الحجاز بــلاد امن فانزلوها على الرحب ، ولقد احسنتم في تركم الكوفة فنحن لا نحب ان تكون في المسلمين فتنة ، وسكت ملياً ، ويــده على لحيته يعبث بها وهو مطرق ، فقام القوم فانصرفوا ، وهم واثقون ، بان بينـه وبين ضيوفه اسراراً لا يبوح بها لجميع الناس .

فرفع رأسه قائلاً : نسألك عن شبث بن ربعي .

– انه في الكوفة يا مولانا لا يخرج منها الا الى القتال .

– قتال الخوارج ؟ – نعم . – وهو باق على العهد ؟

– عهد الشيعة ؟ نعم فهو من المتشيعين .

قال : ما تعود شبث ان يثبت في امر اكثر من عام او عامين .. انـه بطل تشهد له الميادين ، ولكنه ضعيف الارادة وليس له رأي .

فلم يرد الاسدي ، ان يعكر على الحسين صفو عيشه فقال : يكفي انه منا ، وهو اول من يحمل السيف اذا ندبته الى حرب

فهز رأسه قائلاً : نحن ابعد الناس عن الحروب .. انها بلية الامة .. والخطر الاعظم الذي يزعزع اركان الخلافة .. وسليمان بن صرد ؟

– الشيعة تجتمع في منزل سليمان .

– نعرف ذلك وقد بلغتنا اخبار رجال الشرط الذين يطوفون حول المنزل كلما اجتمعتم فيه ، يحصون عليكم الانفاس .

قال : كانوا يفعلون ذلك في عهد الضحاك بن قيس ولكن الضحاك كان ليناً خفيف الظل .

– قل ان معاوية كان ليناً في ذلك الحين ، فالضحاك والنعمان آلة في يده لا ارادة لهما .. انظر كيف يغضب معاوية .. يغضب على رجلين من رجال الشيعة

.. علياً .. ولا يغضب على الناس الذين يطردون ابن اخته كما يطردون الكلب ..ونه معفر الجبين بالعار والذل . وخفض صوتـــه وهو يقول : ألم تطردوا اهل الكوفة عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي ؟ — بلى يا مولانا .

وماذا صنع معاوية ؟ ان هذا الطرد لا ينال من خلافته ولكن الشيعة ال منها فهو يبذل دهاءه ليحفظ العرش له ولبنيه ، ولا يبالي بهذه المظاهر التي ..يع هيبته وتنال من مقامه .

ودار دورة طويلة حول موضوعه ثم قال : نريد ان نعلم كل شيء فلا تكتمنا .اً .. قل لماذا قدمتم انتم الثلاثة وتركتم الآخرين ؟

لان النعمان خصنا بنعمته وفضله... — وحرم الشيعة كلها ذلك الفضل؟

نعم . — اذكر الاسباب .

قال : وشى بي الربيع بن شبث الى الضحاك بن قيس ، ثم انتقلت الوشاية .معاوية ...

.وضع يده على جبينه قائلاً : الربيع بن شبث ؟! هـذا ولدك يا ابن ربعي .. باخوانه ... وماذا قال الربيع في وشايته ؟

قال : اني ادعو رجال الشيعة الى حمل السيف في وجه معاوية .

.قص عليه عندئذ قصة امامة وعبد الرحمن .

.قال : وتظن ان عمر بن الحجاج يبر في وعده ؟

نعم يا مولانا وليس له سبيل الى غير ذلك .. — لماذا ؟

لان بين امامة وعبد الرحمن عهداً لا يخونه الاثنان .

.ال : لقد امست العهود في هذا الزمان كلاما بكلام ... وجعل يسأله عن .شيء حتى اقبل الليل ، وقد عرف ما يريد ان يعرفه كأنه في الكوفة ، ولم .. على وجهه مظهر من مظاهر الالم الذي أحست به نفسه ولم تفارق الابتسامة ... ، ان نفسه الكبيرة الهادئة ، الواثقة بالله لا تنزل عن عزتها ولا تنظر الا .العلاء . ونادى غلمانه قائلاً لهم : اعدوا منزلين ينزلها سويد ومسلم واجعلوا .. منزل غلامين من ابناء اليمن وافعلوا ذلك الليلة ، وقال لمسلم : انقل الينا

اخبار الكوفة كلما انتهت اليك .

– سأفعل ذلك يا مولانا ، وسأكتب الى القوم غداً .

– وقل لعبد الرحمن ان يصبر على جور الزمان ... ان الفراق صعب والشباب لا يحتمل الجفاء .. فقال الفتى : اني صابر .

قال : واذا طاب لك ان تتزوج حجازية زوجناك ، قالها ليختبر وفاءه .

فاجابه قائلاً : لم اعد امامة بالأمس لاخلفها ما وعدت اليوم ، اني لا اتزوج يا مولانا غير الزبيدية التي عرفت .

– واذا خطر لنا ان نزف اليك فتـــاة من ولد علي ؟

– اكون عبداً لتلك الفتاة لا زوجاً ..

قال : بارك الله فيك وفي ابيك .. ان بني أسد اصحاب عهود ، واهل شرف ومروءة ، ووفاء . وترك تلك القاعة وهو يقول : ادخلوا علينـا بدون اذن ، واشهدوا مجلسنا كل يوم ، ولا نأذن لكم في ان تتناولوا الطعام الا في هذه الدار .

فقال سويد : نحن في الحجاز في ظل مولانا ابن بنت الرسول الذي نبـــذل الدماء من أجله .

– أما نحن فليس لنـا الا ان نحقن هذه الدماء . وانصرف ، على ان يعود ليجلس للناس الذين يجيئون اليه كل ليلة ، من الحجازيين والنازلين عليهم .

ومسلم يقول لسويد : والله أكاد أرى وجه علي رضي الله عنه ، وألمس نفسه الكبيرة ، وأسمع حديثه العذب تردده شفتـــا الحسين ، وبعد ساعة ، تناولوا الطعام ، وقضوا ليلتهم في ذلك المنزل الرحب ، تحيط بهم عبيد الحسين وغلمانه.

١٧

ترك النعمان بن بشير ، بعد رحيل مسلم ، تلك الشدة التي عمد اليها ومسلم في الكوفة ، وعاهد رجال الشيعة على ان يحفظ لهم عهد الولاء والوفاء ، وكان

يقول لهم : صونوا ألسنتكم لتصون حياتكم .

وكتب الى معاوية يخبره ما انتهى اليه أمر مسلم ، وحبيب بن مطهر باق في الكوفة وولده مريض لم ترجع اليه العافية ، ولم يجد سبيلاً الى الرحيل .

وكان مسلم، في الاشهر التي مرت على وجوده في المدينة، قد كتب كتبا ثلاثة الى هانيء وعمرو ، وانتهت اليه أجوبة الاثنين، وفيها ذكر للعهد الباقي ، والوفاء الذي لا يزول ، ولم ينس هانيء ، وهو صاحب الخلق الكريم والعاطفة الطيبة ، ان يصف لعبد الرحمن في كل جواب ، شوق امامة ، واخلاصها له ، وحبها الذي يتغير الدهر ولا تخمد ناره ، ولم يذكر له قط ، كآبتها الدائمة ، ودمعها الذي لا يجف .. والخيبة التي تحدث بها نفسها في الليالي الطوال ، حتى كاد العام ينقضي ، فاستيقظ الامل ، وعادت البهجة الى النفسين الكئيبتين .

وبينا القوم في الكوفة ، على ما قرأت ، بلغهم ان معاوية في خطر ، وان الداء ، الذي هو داء الشيخوخة انشب مخالبه فيه .

فقال المتشيعون في انفسهم : لقد أتت الساعة ...

وقال الامويون : اذا مات معاوية قام يزيد ، فالملك لنا ...

وجعلوا يسألون الناس كل يوم ، عن الخليفة العظيم الذي يصارع الموت .

١٨

اقبلت السنة الستون ، فطابت نفس معاوية لما بلغه من اخبار قواده الفاتحين، الذين يخضعون لسلطانه البر والبحر ، غزا مالك بن عبد الله سورية ، ودخل جنادة بن امية رودس ، وهدم مدينتها الكبرى ، وانتهت اخبار الظفر الى الخضراء .

على ان معاوية ، كان يشعر بضعف ، ثم امسى هذا الضعف عجزاً .. او شيئاً

من العجز ، فحدثته نفسه بان الاجل قد دنا ، وان الموت فاتح له ذراعيه ا ولكنه كره ان يستسلم الى القوة ، وخطر له ، على رغم ضعفه ، ان يجلس للناس كل يوم ، ويظهر للناس ، بمظهر القوي الجبار الذي لا يجسر القضاء على ان يمد يده اليه !..

وخطر ليزيد ، ولي عهده ، في الوقت نفسه ، ان يترك دمشق ، ويخرج من قيود الامارة والملك ، الى موضع بعيد من مواضع لهوه ، يخلو فيه الى لذته ، مع طائفة من الاخوان والندماء ، واختار لذلك حوارين .

وعندما كان امير المؤمنين ، يعالج ضعفه ، بقوة الصبر والاحتمال كان يزيد في حوارين ، يداعب كأسه ، ويصغي الى المغنين !.

وشاء معاوية ان يخطب في الناس ، على عادته التي لم تتغير من قبل ، ولعله كان يحس ، ان خطبته هي الخطبة الاخيرة التي يلقيها على مسامع اهل الشام .

جلس على المنبر ، وهو اول من خطب جالساً ، ثم قال : « ايها الناس ، اني كزرع مستحصد ، وقد طالت امرتي عليكم حتى مللتكم ومللتموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقي ولن يأتيكم بعدي الا من انا خير منه كما ان من قبلي كان خيراً مني وقد قيل ، من احب لقاء الله احب الله لقاءه ، اللهم اني قد احببت لقاءك فأحبب لقائي وبارك لي فيه .. »

قال ذلك ونزل ، وهو يجر رجليه .. وقد اسودت الدنيا في عينيه ، ولم يمض غير قليل ، حتى فاجأه المرض .. ورأى الموت يمشي اليه وهو يتثاقل في مشيه ...

فجلس في فراشه وقال لمن حوله : اين يزيد ?

قالوا : غائب وسيجيء ..

فقال : انه في حوارين ... اين الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة .

فأقبلا ، فقال : نأمركما بان تؤديا عنا هذه الرسالة الى يزيد ..

فقال الضحاك : نكتبها يا امير المؤمنين ..

قال : اكتب : « يا بني ، اني قد كفيتك الشد والترحال ، ووطأت لك

الامور وذللت لك الاعداء ، واخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك مـا لم يجمعه أحد ، فانظر اهل الحجاز فانهم اصلك واكرم من قـدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب ، وانظر اهل العراق ، فان سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فان عزل عامل أيسر من ان يشهر عليك مائة الف سيف . وانظر اهل الشام فليكونوا بطانتك فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم ، فاذا اصبتهم فاردد اهل الشام الى بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم تغيرت اخلاقهم ..

يا بني .. اني لست اخاف عليك ان ينازعك في هذا الامر الا ثلاثة رجال من قريش : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير ، فاما ابن عمر فانه رجل قد وقدته العبادة فاذا لم يبق احد غيره بايعك .

واما الحسين بن علي فهو رجل خفيف ولن يتركه اهل العراق حتى يخرجوه .. فان خرج وظفرت به فاصفح عنه ، فان له رحما وحقـا وقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واما الذي يجثم لك جثوم الاسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب فان امكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير .. فان هو فعلها بك وظفرت به فقطعه ارباً ارباً واحقن دماء قومك ما استطعت .. »

واشتدت بعد ذلك علته ، فقال لاهله : احشوا عيني الثمداً وادهنوا رأسي فانا اريد ان اجلس للناس ، ففعلوا ، ثم مهدوا له فجلس واذن للوفود ، فسلموا قياما ولم يجلس أحد ، فلما خرجوا قالوا : هو اصح الناس ...

فقال عند خروجهم متمثلا بشعر الهذلي :

وتجـلدي للشامتين أريهـم ... اني لريب الدهر لا اتضعضع
واذا المنية انشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفـع

ثم قال : ان رسول الله ﷺ كساني قميصاً فحفظته ، وقلـم اظفاره يوماً فأخذت قلامته فجعلتها في قارورة فاذا مت فالبسوني ذلك القميص واسحقوا تلك القلامة وذروها في عيني وفمي فعسى ان يرحمني الله ببركتها .

ثم تمثل بشعر الاشهب النهشلي :

اذا مت مات الجود وانقطع الندى ... من الناس الا من قليـل مصرد

وردت اكف السائلين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلف مجـــدد

فقالت له احدى بناته : كلا يا امير المؤمنين بل يدفع الله عنك .

فقال : اتقوا الله فانه لا واقي لمن لا يتقيه، ثم قال : اوصيكم بان تردوا نصف مالي الى بيت المال .

ثم رفع عينيه الى العلاء وجعل يقول :

ان تناقش يكن نقاشك يا رب عذابا لا طوق لي بالعـــذاب

او تجـــاوز فانت رب صفوح عن مسيء ذنوبه كالـــتراب

فوضعت ابنته رملة رأسه في حجرها وجعلت تعبث بشعره .

فقال : ان هذا الرأس الذي تعبثين به جمع المال من شب الى دب فليتـه لا يدخل النار ، ثم تمثلَ :

لقد سعيت لكم من سعي ذي نصب وقد كفيتكم التطواف والرحلا

ثم جعل يهذي قائلاً : كم بيننا وبين الغوطة ؟ فصاحت ابنته : واحزناه ..

فافاق فقال ان امير المؤمنين لا يعلم ما يقول ، وأغمض عينيه ولم يفتحها بعد ذلك فان يد الموت هي التي أغمضتها، فصاحت النساء : هلك امير المؤمنين.

وكان الضحاك قد كتب الى يزيد يحثه على المجيء ليدرك اباه قبـل ان يلفظ الروح ، فلما مات ولم يرجع ولي العهد ، خرج حتى صعد المنبر ، والاكفان على يديه فحمد الله ثم قـــال : ان معاوية كان عود العرب ، وحد العرب ، وجد العرب ، قطع الله به الفتنة وملكه على العباد وفتح به البلاد ، الا انه قد مات وهذه اكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره فمن اراد ان يراه فليفعل ، ثم صلى عليه ؛ ومشت الشام وراء نعشه ، تشييع الخليفة العظيم داهية العرب وباني مجد الامويين ، واللوعة تملأ القلوب ، ورهبة الموت تبسط ظلها فوق المشيعين .

• • •

عندما انتهى كتاب الضحاك الى يزيد ، ترك لهوه مذعوراً وركب يريـــد دمشق دون ان يتردد لحظة واحدة ، وكان يرى الناس في مسيره ، فلا يسألهم

من امير المؤمنين ، ولا يجسر أحدهم على ان ينقل اليه خبر موته ، حتى بلغ قصر الخلافة ، فرأى الكآبة على وجوه حراسه وحجابه ، وقرأ الخبر الرائع مكتوبا على جباه القوم وفي العيون ، وما راعه الا صوت اخته رملة تصيح : واحزناه .

وكان الضحاك ومسلم بن عقبة ، ووجوه الناس ، قد أحاطوا بــه وانحنوا يعزونه ويسلمون عليه بالخلافة ؟

فقال وشفتاه ترتجفان : مات امير المؤمنين ؟

فقال الضحاك : نعم يا امير المؤمنين .

فأطرق ساعة ، ثم مشى يريد المسجد وهو لا يقول كلمة ، فعرف الضحاك انه يريد ان يبكي اباه عند القبر ، فتقدمه اليه ، والناس خلفه ، وقد ساد الصمت ، ومد رواقه جلال الموت ولم يلبث الضحاك حتى وقف ، فبكى يزيد .. ثم صلى على ابيه ، ثم سمعوه يقول من قصيدة :

جاء البريد بقرطاس يخب به   فأوجس القلب من قرطاسه جزعا
قلنا لك الويل ماذا في كتابــكم   قال الخليفــة امسى مثبتاً وجعا
ثم انبعثنا الى خوص مزممـــة   نرمي الفجاج بها لا نأتــلي سرعا

. . .

من لم تزل نفسه توفي على شرف   توشك مقاليد تلك النفس ان تقعا
لمـا انتهينا وباب الدار منصفق   وصوت رملة راع القلب فانصدعا

. . .

أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه   كانا جميعـــا فماتا قاطنين معا
اغر ابلج يستسقي الغـــمام به   لو قارع الناس عن احسابهم قرعا

. . .

كان على شرطة معاوية ، قيس بن حمزة الهمداني ، ثم عزله واستعمل زمل بن عمرو العذري ، وكان وزيره وكاتبه وصاحب امره ، سرجون الرومي كما قرأت وعلى حرسه رجل من الموالي يقال له المختار ، ومعاوية اول من اتخــذ الحرس ،

وكان على حجابه سعد مولاه ، وعلى القضاء فضالة بن عبيد الانصاري ، فلما مات استقضى ابا ادريس الخولاني ، وكان على ديوان الخاتم ، عبد الله بن محض الحميري ، وسبب اتخاذ هذا الديوان ، ان معاوية امر لعمرو بن الزبير بمائة الف درهم ، وكتب له بذلك الى زياد . ففتح عمرو الكتاب وصير المائة مائتين .

فلما رفع زياد حسابه ، انكرها معاوية ، وطلبها من عمرو فقضاها عنه اخوه عبد الله بن الزبير ، فاحدث عند ذلك معاوية ديوان الخاتم ، وحزم الكتب ، ولم تكن تحزم من قبل ، ومعاوية ، اول خليفة بايع لولده في الاسلام ، واول من وضع البريد ، واول من سمى الغالية التي تتخذ من الطيب « غالية » واول من عمل المقصورة في المساجد ، واول من خطب جالساً .

بعض اخباره

قدم عمرو بن العاص من مصر ومعه طائفة من اهلها فقال لهم : لا تسلموا على معاوية بالخلافة فانه اهيب لكم في قلبه ، وصغروه ما استطعتم فلما استأذنوا ، قال معاوية لحجابه :

كاني بابن النابغة وقد صغر امري عند القوم ، فانظروا اذا دخلوا فتعتعوهم ، فكان اول من دخل عليه رجل منهم يقال له ابن الخياط فقال : السلام عليك يا رسول الله .

وتتابع القوم على ذلك ، فلما خرجوا قال لهم عمرو : لعنكم الله نهيتكم عن ان تسلموا عليه بالخلافة فسلمتم بالنبوّة .

قال جويرية بن اسماء : كان بسر بن ارطاة عند معاوية ، فنال من علي ، وزيد بن عمر بن الخطاب حاضر ، وامه ام كلثوم بنت علي ، فقام زيد فضرب ابن ارطاة بالعصا ، فقال معاوية لزيد : عمدت الى شيخ قريش وسيد اهل الشام فضربته ، واقبل يقول لبسر : تشتم علياً وهو جده ، وهو ابن الفاروق على رؤوس الناس اترى ان يصبر على ذلك ... فأرضاهما جميعاً .

وقال عبد الله بن عمير : اغلظ رجل لمعاوية فأكثر ، فقيل له : أتحلم عن هذا؟

قال : اني لا احول بين الناس وبين السنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا .
وقال صفوان بن عمرو : مر عبد الملك بن مروان بقبر معاوية فوقف عليه فترحم فقال أحدهم : قبر من هذا ؟ فقال : قبر رجل كان والله ينطق عن علم ، ويسكت عن حلم ، اذا اعطى أغنى ، واذا حارب افنى ، هذا قبر ابي عبد الرحمن معاوية .. وفي التاريخ، اخبار كثيرة ، تدل على وجود معاوية ، ودهائه وحلمه ، لا يتسع المجال لنشرها الآن .

• • •

بيعة يزيد

مات معاوية في شهر رجب ، وبويع يزيد في الشهر نفسه ، وفي المسلمين طائفة من الامراء والعظماء ، لم يعترفوا له بولاية العهد كما قرأت، وكان على المدينة، يوم تولى الامر ، الوليد بن عتبة بن ابي سفيان . وعلى مكة ، عمرو بن سعيد بن العاص ، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد ، وعلى الكوفة النعمان بن بشير الذي عرفت ، ولم يكن ليزيد همّ ، بعد ان تمت البيعة له في دمشق ، الا بيعة هذه الطائفة النازلة بالحجاز ، والتي لم تعترف به ، فكتب الى الوليد بن عتبة ينعى له اباه ، وفي كتاب النعي ، كتاب آخر صغير جاء فيه : « اما بعد ، فخذ الحسين وعبد الله بن عمر ، وابن الزبير ، بالبيعة اخذاً ليس فيه لين حتى يبايعوا والسلام».
فعل ذلك بعد ان شاور فيه ، الضحاك بن قيس ، ومسلم بن عقبة ، وفريقاً آخر من رجال المشورة في البلاط ، فلما انتهى النعي الى الوليد ، كبر عليه الأمر، وبعث الى مروان بن الحكم يدعوه اليه ، وكان مروان عاملاً على المدينة من قبل ، وبينه وبين الوليد جفاء ، سببه الامارة ، وقد شتمه الوليد مرة على مسمع من القوم ، على انه لم يتردد في المجيء ، وقد قام في ذهنه ، ان الامر الذي دعاه من اجله ، لا يستطيع الا ان يسمع رأيه فيه . فدفع اليه الوليد كتاب يزيد ، فجعل يقرأ وهو يبكي .
ثم قال الوليد : اقرأ هذا .

وناوله الكتاب الآخر فقرأه ثم قال : ولماذا دعوتني ؟

– لاشاورك فيما اصنع فالامر خطير كما ترى .

قال : ارى ان تدعوهم الساعة وتأمرهم بالبيعة ، فان فعلوا ، انتهى الامر الى ما يريد الخليفة ونريد نحن .   – وان أبوا ؟

– اذا ابو ضربت اعناقهم قبل ان يعلموا بموت معاوية .

– اي اننا نأمرهم بالبيعة دون ان نذكر الخلافة .

– نعم فانهم اذا عرفوا ان معاوية قد مات ، وثب كل رجل منهم بناحية من نواحي الحجاز ودعا الناس الى نفسه ..   – وابن عمر بن الخطاب يفعل هذا ؟

– اما ابن عمر فلا يحب القتال ولا يرى ان يتولى امور المسلمين الا اذا دفعت اليه هذه الولاية عفواً .

فقال الوليد لغلامه : علي بعبد الله بن عمرو بن عثمان .

وكان عبد الله غلاما ، فلما اقبل قال له : ادعُ الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير الآن ، فأتاهما وهما في المسجد ، في ساعة لم يكن الوليد يجلس فيها للناس، منذ قدم المدينة .

فقال له الحسين : ما وراءك ؟   قال أجيبا الامير .

فاطرق قليلاً ثم قال : انصرف انت وسنأتيه .

فخرج الغلام ، فقال ابن الزبير : الوليد لا يجلس للناس في هـــذه الساعة فماذا ترى ؟

قال : اظن ان طاغيتهم قد هلك فبعث الينا ليأخذنا بالبيعة قبل ان يفشو الخبر في المدينة .   – وانا ارى ما تراه فماذا نفعل ؟

قال : اجمع فتياني الساعة ، ثم امشي اليه ، فاجلسهم على بابه ، ثم ادخـــل عليه وانا واثق بقوة من ذكرت .   – قال : اني اخافه عليك اذا دخلت .

– ولكني لا آتية الا وانا قادر على الامتناع ، وقام فجمع اصحابه واهــل بيته ، واقبل الى باب الوليد وهو يقول : اني داخل ، فاذا دعوتكم او سمعتــم صوتي قد علا ، فادخلوا علي جميعكم والا فلا تبرحوا حتى اخرج اليكم !...

وكان الوليد قد قال لمروان : سأذكر له موت معاوية ، وادعوه الى البيعة .

فلما دخل ورأى مروان بن الحكم ، ابتسم قائلاً : الصلة خير من القطيعة والصلح خير من الفساد ، وقد آن لكما ان تجتمعا بعد الجفاء ، ثم جلس وهو ينظر الى الوليد .

فقال الامير : هذا كتاب امير المؤمنين يزيد ينعي لنا معاوية واني ادعوك الى البيعة الآن وارجو ان تفعل ..

فاسترجع الحسين ثم قال : رحم الله معاوية ، قالها وسكت ..

فقال الوليد : والبيعة ؟

– اما البيعة فان مثلي لا يبايع سراً ولا تطلب البيعة مني وانا في مجلس الامير لا يسمعني فيه أحد ... – وماذا إذن ؟

قال : اذا خرجت الى الناس ودعوتهم انت ثم دعوتنا معهم كان الامر على ما تحب ..

ولم يكن الوليد من اهل الشدة ، فقال : انصرف وسنفعل ما اشرت به .

فقام مروان فقال : لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها ابداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبسه .. فان بايع والا ضربت عنقه !!

فوثب الحسين عندئذ وقال : ابن الزرقاء .. أأنت تقتلني أم هو ؟.. كذبت والله ، ثم خرج وهو لا يلتفت اليهما حتى أتى منزله .

فقال مروان للوليد : عصيتني .. لا والله لا يمكنك من نفسه أبداً .

فقال : يا مروان ، والله ما أحب ان لي ما طلعت عليه الشمس وما غربت منه من مال الدنيا وملكها ، واني قتلت الحسين ان قال لا ابايع .. والله اني لأظن ان امرءاً يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة .

قال : قد أصبت . ولكن صدره كان يغلي .. ثم قال : وابن الزبير ؟

فبعث اليه الوليد فوجده في داره وقد جمع أصحابه ، فقالوا له : الامير يدعوك .

قال : امهلوني .

فارسل الوليد غلمانه ومواليه فشتموه وكانوا يقولون : يا ابن الكاهلية ، لتأتين الامير أو ليقتلنك .

قال : والله اني لأخشى كثرة الارسال فلا تعجلوني حتى أبعث الى الامير من يأتيني برأيه ، وأمر أخاه جعفراً بأن يأتيه ، فسار اليه جعفر فقال : رحمك الله كفّ عن عبد الله فانك قد افزعته وهو يأتيك غداً ان شاء الله فمر رجالك فلينصرفوا عنه .

ففعل الوليد ذلك دون أن يتردد ، ولما يضيع ابن الزبير الزمان ، بل خرج من ليلته من المدينة هو وأخوه جعفر ليس معهما ثالث يريدان مكة ، وخرجت الرجال ، في طلبه ، عند الصباح ، ولكنهم لم يدركوه ، فرجعوا وتشاغلوا به يومهم عن الحسين ، ثم اقبل هؤلاء الرجال عند المساء يدعون الحسين الى قصر الامير .

فقال لهم : اصبحوا ، ثم ترون ونرى .

فكفوا عنه ، ولم يلجوا في الطلب ، وفعل هو ما فعله ابن الزبير ، ترك المدينة ، ومعه بنوه ، واخوته ، وبنو اخيه ، ومعظم اهل بيته ، واصحابه ، فهم مسلم بن عوسجة وولده عبد الرحمن وسويد بن المطاع ، وكان قد سأل اخاه محمداً « ابن الحنفية » رأيه في الامر فقال: يا أخي ، أنت أحب الناس الي وأعزهم عليّ ولست اذخر النصيحة لاحد من الخلق أحق بها منك . — وما ترى ؟

قال : تنحّ ببيعتك عن يزيد وعن الامصار ما استطعت ، وابعث رسلك الى الناس وادعهم الى نفسك ، فان بايعوا حمدت الله على ذلك وان أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك وعقلك ولا تذهب به مروءتك وفضلك . . اني أخاف ان تأتي جماعة من الناس فيختلفوا عليك هذا معك وهذا عليك فيقتتلون فتكون انت لاول الاسنة ، وتمسي وانت خير هذه الامة كلها نفساً وأباً واماً اضيعها دما وأذلها أهلاً . قال : واين اذهب ؟

— انزل مكة ، فان اطمأنت بك الدار فقد بلغت الغاية ، وان نأت بك لحقت بالرمال والجبال وخرجت من بلد الى آخر حتى ترى ما ينتهي اليه

الناس .

قال : لقد نصحت يا اخي وأشفقت وارجو ان يكون الصواب فيما رأيت .
ثم دخل المسجد فصلى ولم يلبث حتى انصرف ، وقبل ان يغادر المدينـة ،
.. عبد الله بن مطيع ، وهو من انصاره فقال له : جعلت فداءك اين تريد ؟
قال : اما الآن فمكة ، واما بعد فاني استخير الله .
قال : اذا اتيت مكة فاياك ان تقرب الكوفة . — لماذا ؟
لانها بلد مشؤوم قتل به ابوك وخذل اخوك : الزم الحرم فانـك سيد
... واهل الحجاز لا يعدلون بك احداً . قال : اني فاعل ان شاء الله .
وتقدم قومه ، والله في قلبه ، واسمه عز وجل ، على شفتيه .

١٩

بلغ يزيد بن معاوية ، ما فعله الوليد بن عتبة مع الحسين وابن الزبير ، وانتهى
ا. ان عبد الله بن عمر بن الخطاب كان يقول : اذا بايع الناس بايعت .
فقال : اما ابن عمر فلا نخافه واما الوليد فقد عزلناه ، وامر سرجون بان
.. كتب عهد الولاية ، لعمرو بن سعيد الاشدق ، فقدم عمرو المدينة في رمضان ،
.. جعل يسأل عن رجل يبغض ابن الزبير ، فقيل له : ليس في المدينة احد يبغض
عبد الله مثلما يبغضه اخوه عمرو . قال : عمرو بن الزبير يبغض اخاه؟ — نعم .
فدعاه فقال : لقد جعلناك على شرطة المدينة .
قال : وتفوض اليّ ان اصنع ما اشاء ؟ — وما تصنع ؟
— أضع الشدة في القوم الذين ينتمون الى اخي عبد الله !!.. قال: افعل .
فبدأ باخيه المنذر بن الزبير ، وابنه محمد بن المنذر ، وعبد الرحمن بن الاسود،
وعثمان بن عبد الله بن حكم ، ومحمد بن عمار بن ياسر ، فضربهم ضربا سالت معه

الدماء ، وذنب هؤلاء ، انهم من انصار اخيه !!

ثم كتب يزيد الى عامله يقول له: ارسل ابن الزبير صاحب الشرطة، الى قتال اخيه عبد الله في مكة ، فأعد الامير عدة الحرب ، وجهز الناس مع عمرو ، وفيهم انيس بن عمرو الاسلمي ، من خصوم ابن الزبير ، فاقبل مروان بن الحكم يقول لعمرو بن سعيد : اتقِ الله ولا تغزُ مكة ، وخلّ ابن الزبير فقد كبر .

فقال عمرو بن الزبير : والله لنغزونه في جوف الكعبة على رغم انف من لا يرضى . . .

وجاء ابو شريح الخزاعي يقول : أيها الأمير لا تغزُ مكة فإني سمعت رسول الله يقول : انما اذن لي في القتال فيها ساعة من نهار ثمعادت كحرمتها بالامس .

فقال ابن الزبير : نحن اعلم بحرمتها منك ايها الشيخ .

وسار الجيش ، فنزل انيس الاسلمي بذي طوى ونزل عمرو بالابطح فارسل عبد الله اليهما من قاتلهما وانتهى القتال بظفره ، ومكث الحسين وابن الزبير شهرين بمكة ، لا يسمعان فيهما صوت عدو ، ولا يعكر عليهما احد صفو العيش..

٢٠

كان اهل مكة ، ومن فيها من المعتمرين من اهل الحجاز وسواه ، يأتون الحسين بن علي ، ويحيطون به ، وقد لزم ابن الزبير جانب الكعبة فهو قائم يصلي عندها معظم النهار ثم يطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيه ، والحسين اثقل خلق الله على ابن الزبير ذلك لان الحجازيين لا يبايعونه ما دام الحسين باقيا بالبلد ، ان اهل الحجاز يعلمون ، ان ابن بنت رسول الله ، احق الناس بالخلافة ، ولكن الحسين لم يكن يعلم، اي خاطر يخطر لاهل الكوفة والبصرة واليمن، بعد موت معاوية، واي رأي لهم في يزيد ، كان واثقا بان الناس لا ينكرون عليه حقه ، ولكنه في

الوقت نفسه ، لم يكن واثقاً بوفاء هؤلاء الناس واخلاصهم له ، الى النهاية ، لقد علمه الزمان ان يشك في قومه ، وفي اقرب الناس اليه : ألم تتخلّ طوائف كثيرة من المسلمين عن ابيه العظيم ، وقد كان ملء المسامع والاذهان ؟..

ألم يتردد المسلمون في خدمة اخيه الحسن والدفاع عنه ، في اليوم العصيب ، انه لم ينس الماضي ، ولا يطيب له ان يستسلم الى الاحلام ، اجل كانت الاماني في نفسه ، والامل في صدره ، ولكن في هدوء ورشد . واستسلام الى مشيئة الله ، وكان مسلم بن عوسجة في خدمته ، لا يفارقه نهاره وليله وليس له هم الا ان يلمس رضاه باليدين .

فدعاه الحسين في مساء يوم فقال له : أليس لك رأي في هذا الامر يا ابا عبد الرحمن ؟

قال : الرأي لمولانا ابن بنت الرسول وعلينا الطاعة .

قال : كيف رأيت الحجاز ؟

- رأيت هواه فيك كما كان هواه في ابيك .. ولكن الحجاز وحده اضعف من ان يعزل خليفة ويولي آخر .

- وهل خطر لك اننا سنستعين بالناس على هذا ؟ — وماذا اذن ؟

- نمكث بمكة حتى يدعونا المسلمون الى الامر . — وان لم يفعلوا ؟

- بقينا هنا ما شاء الله ان نبقى . — وتبايع يزيد بن معاوية ؟

- من يعلم فقد ينتهي امرنا الى المبايعة ... اننا نخاف شيئاً واحداً يا ابا عبد الرحمن هو ان تسيل من اجلنا دماء المسلمين ..

قال : في اليمن جماعات ترغب فيما يرغب فيه أهل الحجاز ..

قال : ليس لهذه الجماعات رأس .. انها فوضى ، في الرغبة والهوى ولم يقم في اليمن رجل بعيد الصوت يدعو الناس الى ذلك ..

- كانوا يخافون معاوية يا مولانا .

– وهم اليوم يخافون ابنه ، فيزيد بطاش قاسٍ يستحل دم البريء ، وليس له حلم ابيه ورحابة صدره ..

قال : اتعرفه يا مولانا كما عرفت معاوية ؟

– رأيناه مرتين فعرفناه .. – هنا ام في دمشق ؟

– في المدينة، فقد حجّ في حياة ابيه ، ولم ينزل المدينة حتى جلس على شرابه مع اخوان له . – فعل ذلك على مرأى من الناس ؟

– أجل ، وقد قيل له عندئذ ان ابن عباس والحسين يستأذنان عليك وان عباس ان وجد ريح الشراب عرفه ، فقال لحاجبه : دع الحسين يدخل ولا تأذن لابن عباس .

– وبعد ذلك ؟ – دخلنا ورائحة الشراب مع الطيب تملأ القاعة .

فقلنا له : لله در طيبك ما أطيبه .

فقال : هو طيب يصنع بالشام .

ثم دعا بقدح فشربه ثم دعا بآخر فقال لساقيه : اسق ابا عبد الله .

– وماذا قلت يا مولانا ؟

– قلنا له والالم في النفس ، عليك شرابك ايها الرجل لا عين عليك منا ، فقال عندئذ شعراً حفظناه :

الا يا صاح للعجب ... دعوتك ذا ولم تجب
الى الفتيات والشهوات ... والصهباء والطرب
وباطية مكللة ... عليها سادة العرب
وفيهن التي تبلت ... فؤادك ثم لم تثب

فنهضنا قائلين : بل فؤادك يا ابن معاوية تبلت .

« الباطية وعاء توضع فيه الخمر » . – وكيف عرفت انه يستحل الدماء ؟

– رأيت القساوة في كل مظهر من مظاهره وفي كل كلمة تقذف بها شفتاه ، وهو يشرب الخمر ، فاذا خاف اهل اليمن معاوية ، من قبل ، فهم اليوم اجبن وأكثر خوفاً .. – والبصرة ؟

قال : في البصرة الاحنف بن قيس والمنذر بن الجارود وغيرهما ونحن لا نعلم من أمرهم الا انهم كانوا انصاراً .

قال : أظن انهم يؤثرون ابن علي على ابن معاوية .

– لا تظن شيئاً فقد يؤثرون ابن معاوية غداً على الحسين .

قال : بقيت الكوفة وفيها شيعتك .

– اما الكوفة فقد انقضى شهران ولم يرد علينا منها خبر وهـــذا معناه ان القوم يترددون .. قال : سأحمل اليك أخبارها بعد شهر .

– انت ؟ – نعم انا ، واني أرجو ان تأذن لي في الذهاب .

– وماذا تصنع في الكوفة ؟

وكان عبد الرحمن حاضرا ، فأومأ مسلم اليه وهو يقول : أنسيت يا مولانا ما حدثتك به ؟

قال : عنيت أمر زواج عبد الرحمن ؟

- نعم ، فامامة قد بلغت العشرين ولم يبق لابن الحجاج عذر .

قال : خير لك ولابن الحجاج ان يتم الزواج في مكة .

- أخشى ان أدعوه الى المجيء فيأبى .

– بل يفعل ونحن واثقون بذلك .. اكتب اليه الليلة .

فابتسم قائلاً : ولكن عبد الرحمن لا يرضى .

قال : ألا ترضى يا بني ان تزف امامة اليك وانت عندنا ؟

قال : يطيب لي يا مولانا ان اقضي العمر كله بين يديك .

- وتستطيع ان تصبر على الفراق ، شهرين آخرين ؟

فأملت عليه عظمة نفسه ان يقول : أصبر الدهر كله اذا كان لمولانا رأي في هذا الصبر ، وأحس عندئذ ان قلبه يرقص في صدره .

فقال الحسين : لم يبق يا أبا عبد الرحمن الا ان تفعل ما أمرناك بــــه .. ادعُ عمراً وهانئاً الى المجيء ، وقل لهما اننا نريد ذلك .

ووضع يده على رأس الفتى العاشق وجعل يقول : قلت انـــك راض

وانتهى الامر .

فحنى رأسه ولم يجب ، ولو لم يقـل كلمته الاولى ، لسأل اباه والحسين ان يأذنا له في السفر وحده ، ان الشوق الى امامة كثير .. والقلب لا يستطيع ان يحتمل اكثر من هذا ، ولكن رأى من العار ، وهو ابن مسلم ، ان يظهر ضعفا ، ويتردد في أمر طلبه اليه الحسين ، الذي هو في نظره ونظر ابيه خليفة المسلمين .

ثم قال الحسين: وسيقص علينا هانيء وعمرو اخبار الكوفة .. اكتب الآن فجعل مسلم ينظر اليه وهو ساكت .

فقال : بقيت لك يا ابا عبد الرحمن كلمة على ما نرى . — نعم يا مولانا .

— ما هي ؟ — هي اننا نعود من الكوفـة بعد شهر اذا خرجنا من الحجاز اليوم .

— واذا كتبت الى القوم ؟ — يمر الزمان ولا يجيئون .

— ولِمَ ذلك ؟

— لانهم في بلد تقيم به شيعة مولانا وليس من الهين ان يخرجوا منه ، والموقف كما ترى . قال : لا تتركنا فنحن في الحجاز نحتاج الى آراء المخلصين .

— سأعود يا مولانا كما قلت .

— اجل ، ولكنك لا تستطيع ان تعلم متى تعود .. ابق فقـد يكون بقاؤك خيراً للمسلمين ، وخرج وهو لا يريد ان يسمع جوابه ، لانه لم يكن يطيق ان يفارقه رجـل مثل مسلم ، وكتب لعبد الرحمن ان يشقى زماناً آخر لا يعرف آخره ...

٢١

برّح الهوى والشوق بامامة ، فلم يرها أحد ، من اهل البيت وغلمانه ، منذ

اطل العام الجديد ، الا باكية ، لقد مرت الايام الكثيرة ، وعبد الرحمن لم يأتِ ، ولم يكتب اليها كلمة .. وهذا اول مظهر من مظاهر الوفـــاء ، وامها وزوجة هانيء تعدانها بالفرج ..

فبينما هي على احر من النار ، انتهى الى ابيهـا عمرو كتاب مسلم ، يدعوه ويدعو هانئا الى الحجاز ، فزالت الكآبة وخف الالم . ولكن بقي ان تعلم ماذا يفعل ابوها وهانيء .. أيرحلان ام يؤثران البقاء في الكوفة .

وكانا يتحدثان بالامر ، ولكل منهما رأي حتى اجمعا على ان يدعوا رجـــال الشيعة ، للنظر في امر البيعة ، قبل ان يقولا كلمتهما في البقاء او الرحيل ، وقد عرفت الشيعة ، ان الحسين وابن الزبير ، امتنعا عن البيعة ، وغادرا المدينة الى مكة ، يوم طلب اليهما الوليد ان يبايعا .

فاجتمع الرجال في منزل سليمان بن صرد ، وذكروا مسير الحسين ، وكانوا بهم ينظرون الى يزيد ، نظرهم الى رجل لا يصلح للخلافة .

ثم قال حبيب بن مطهر : الرأي ان يجيء الحسين الى الكوفة .

فقال رجل منهم يدعى رفاعة بن شداد : واكتبوا اليه في هذه الساعة .

فقام سليمان فكتب : «بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك اما بعد فالحمـــد لله الذي قصم عدوك العنيد الجبار الذي وثب على هذه الامة فابتزها أمرها وتآمر عليها بغير رضا منها ثم قتل اخيارها واستبقى اشرارها وانه ليس علينا امام ، فاقبل ، لعل الله ان يجمعنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير في قصر الامارة لسنا نجتمع معه في جمعة او عيد ولو بلغنا اقبالك الينا أخرجناه حتى نلحقـــه بالشام ان شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

ثم قرأه وجعل يقول : هذا هو الكتاب فوقعوه ، فترددوا قليلا ، ثم تناول الكتاب حبيب بن مطهر وكتب اسمه ، وفعل مثل ذلـــك سليمان بن صرد ، والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد .

ثم قال سليمان : من يحمله الى مكة ؟

فقال عبد الله بن سبع الهمداني ، وعبد الله بن وال : نحمله نحن الاثنين .

فهامسهما ابن الحجاج قائلاً : سأدفع اليكما كتاباً تسلمانه الى مسلم بن عوسجة. وخرج معهما فكتب الى مسلم : لقد انتهى الي كتابك ، واللقاء في الكوفة ، لان مولانا الحسين قادم انشاء الله ، وسار الرسولان .

ثم كتب القوم الى الحسين كتاباً آخر ، بعد ليلتين ، وسيروه اليه .

وامامة ترى ذلك وقد طابت نفسها ، وايقنت بان الحبيب سيعود وسيجتمع الشمل بعد الفراق الذي طالت ايامه . وبعد ثلاثة ايام ، ارسلوا اليه رسولا ثالثاً يدعونه الى التعجل في المجيء ، والرأي في ذلك رأي شبث بن ربعي ...

فقال له ولده الربيع : لا تفعل يا ابي فقد كتب غيرك وهذا يكفي ! .

قال : ايكتب معظم رجال الشيعة ويتردد ابوك ؟ انه ضعف لا يليق بي وانا خواض الغمرات ... — وهل تظن ان الحسين يبلغ غايته ؟

— اني لا انظر الى هذه الغاية التي ذكرت .. اذا تولى الحسين امر المسلمين فنحن من انصاره .. واذا خاب رجاؤه فنحن من انصار يزيد ... افهمت الآن.. اذهب ولا تعرض لي في امر اريد ان افعله ...

فابتسم الربيع قائلاً : لقد رضيت الآن وزال الهم الذي كان يملأ الصدر .

قال : ان عبد الرحمن آت وسترف امامة اليه .

قال : سيجيء مع الحسين أليس كذلك ؟ — بلى .

— سننظر في أمره عندما يدخل الكوفة ... نعم عندما يدخل الكوفة .

قال : يا ربيع .. انها نغمة قاتل ..

— لا يا مولاي لم افكر في القتل ولكن لي رأياً .. — اتسلبه امامة ؟

— لا ، ولكني اظن ان الحسين لا يستطيع ان يدخل الكوفة ... اكتب يا ابي ما تشاء وافعل ما تشاء فانا ذاهب ... — الى اين ؟

— الى منازل الامويين اضع معهم خطة القضاء على الحسين ..

وخرج دون ان يصغي الى جواب ابيه ، فلم يبال شبث بما فعل ، بل كان همه ان تتم تلك الفكرة التي خطرت له، وكان الذين وقعوا الكتاب الاخير ، شبث بن ربعي ، وحجار بن ابجر ، ويزيد بن الحرث ويزيد بن رويم ، وعروة بن

ﺒﺲ ، وعمرو بن الحجاج ، ومحمد بن عمير التميمي . وأمست الكتب جميعها في د الحسين ، في مكة ، فاستبشر عبد الرحمن وعلل النفس بلقاء الحبيب .

وكانت الشيعة ، القليلة العدد في البصرة ، قد اجتمعت ، في منزل مارية بنت ،مد من عبد القيس ، وعوّل أحدهم وهو يزيد بن بنيط على اللحاق بالحسين وكان ، بنون عشرة ، فقال لهم : أيكم يخرج معي . فتبعه منهم اثنان ليس غـــير ، مثلوا جميعهم بين يدي ذلك الرجل الصـالح ، الذي يريدون ان يرفعوه الى ﻤﻌﺪ الخلافة .

فجمع الحسين قومه فقال: هذه كتب الشيعة فانظروا فيما تصنعون . فكثرت راء الانصار .. هذا ينهى الحسين عن المسير ، وهذا يريد ان يدخل الكوفـــة خول الظافر ، ومكثوا على ذلك اياما ، ثم سألوه ان يرى رأيه ، فقال : لقد أينا ان نرسل الى الكوفة ، ابن عمنا مسلما . وهو يعني مسلم بن عقيـل بن ابي االب . فقال ابن عوسجة : وما يفعل ابن عمك يا مولانا ؟

قال : يرى بعينيه رجال الشيعة ، ويلمس بيديه ما في الصدور .

- ثم ماذا ؟ — ثم يكتب الينا فنسير اليه . — وتبعث به وحده ؟

- أجل ، وسنوصيه بان يستعين على امره ، بالاحتجاب عن عيون الامويين.

ونادى غلامه قائلاً : اكتب : « اما بعد فقد فهمت كل الذي كتبتموه ، وقد ﻣ‍:ت اليكم بأخي وابن عمي وثقتي من اهل بيتي ، مسلم بن عقيل ، وأمرته بان «اب الي بحالكم وامركم ورأيكم ، فان كتب انه قد اجتمع رأي ذوي الحجى ..م ، على مثل ما قدمت به رسلكم ، أجيء اليكم قريباً ان شاء الله فلعمري ا الامام الا العامل بالكتاب والقائم بالقسط ، والدائن بدين الحق والسلام » .

ثم دعا ابن عمه فقال له : تسير الى الكوفة في صباح غـــد ، ونحن نأمرك ﺗﻘﻮى الله والكتمان ، فان رأيت الناس مجتمعين على الامر فاكتب الينا .

قال : سمعت واطعت ومن يسير معي من القوم ؟

- تستعين بدليلين من اهل المدينة ، دون ان يعلما ما هي الغاية من الرحيل لا تستعن بغيرهما . قال : اني راحل غداً .

– ولا تنس ان تحصي انفاس القوم في الكوفة . – سأفعل .
– واما بنو امية فاحتجب عنهم ما استطعت ، واعلم اننا وجميع من ا
الحجاز ننتظر اخبارك .

فودع مسلم وخرج ، وعبد الرحمن يندب حظه وكأنه يقول : كلما داوي
جرحا سال جرح ...

٢٢

دخل مسلم المدينة ، فصلى في مسجد الرسول ، ثم اوصى اهل بيته بما شاء ،
واختار له دليلين من بني قيس ، وتوكل على الله ، ولكن دليليه ضلا الطريق ،
وأحس الثلاثة بالعطش ، ثم ما لبث الرجلان حتى ماتا ، فأرسلت اليه الس
رجلاً يعرف ما لا يعرفان ، فدله على موضع الماء ثم رافقه اليه ، فقال له : ا
اين انت ذاهب ؟

– الى المدينة ، ثم الى مكة .

قال : اعطيك كتابا تسلمه الى الحسين وسأمكث بهذا المكان حتى يجي
الجواب ويجزيك الله خير الجزاء . قال : هات .

فكتب مسلم : « اقبلت الى المدينة ، واستأجرت دليلين ، فضلا الطريق ،
اشتد عليهما العطش فماتا . ثم انتهيت الى الماء فلم انجُ الا بحشاشة النفس ، والما
بمكان يدعى المضيق من بطن الخبيث ، واني قد تطيرت ، فان رأيت ان تعف
وتبعث غيري » .

فأجابه الحسين : « اما بعد ، فقد خشيت ان يكون الجبن هو الذي حملك ع
كتابة ما كتبت ... امض لوجهك والسلام » .

فسار مسلم حتى أتى الكوفة ، ونزل بدار احدهم ، فاقبلت الشيعة الى تلك

الدار ، تجتمع في ظله ، وتسمع اخبار الحجاز وحديثه عن الحسين .. وكلما اجتمعت جماعة منها ، قرأ عليها كتاب ابن عمه ، فتبكي ، ثم تعده ببذل الدماء في سبيل الدفاع عنه ، وانك لترى ، الربيع بن شبث ، ذلك اللئيم الغدار ، في اول الصفوف التي تزور مسلم بن عقيل . وقد تسيل دموعه الكاذبة على خديه !!.

وكان يوصي رجال الشيعة بان يكتموا الناس أمر مسلم ... على ان الامويين ما لبثوا حتى عرفوا كل شيء ... وبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فدعا الناس ، ثم صعد المنبر فقال: لا تسارعوا الى الفتنة ، فان فيها تهلك الرجال ، وتسفك الدماء ، وتغصب الاموال .. اني لا اقاتل من لا يقاتلني ولا اثب على من لا يثب علي ولا آخذ بالتهمة ولكنكم ان ابديتم صفحتكم ، وخالفتم امامكم ، فوالله الذي لا إله غيره لاضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي.. اني ارجو ان يكون من يعرف الحق منكم اكثر ممن يرديه الباطل ، فهامس الربيع عبد الله بن سعيد الحضرمي ، وهو حليف بني امية ، قال : ما رأيت ، اضعف من امير الكوفة .. ان الشيعة ستثب وهو ساكت كأنه قد نسي ما اوصاه به امير المؤمنين معاوية .

فلما انصرف النعمان الى قصره ، لحق به الحضرمي فقال : ان القول الذي قلته اليوم رأي المستضعفين ..

قال : اكون من المستضعفين في طاعة الله احب الي من ان اكون من الاقوياء في معصيته . قال : ايها الامير .. أترى في الدفاع عن الخلافة معصية ؟

– ومن يحارب الخلافة يا عبد الله ؟

– اذا لم تحارب الشيعة اليوم حاربت غداً .

قال : السيوف في الايدي فنحن لا نخاف .

– وتسكت عن القوم ، وهم يجمعون صفوفهم ويتهيأون للقتال ؟

– ذلك ما يوحي الي به دين الحق ، فخرج عبد الله الى منزله ، وكتب الى يزيد : اما بعد يا امير المؤمنين فان مسلم بن عقيل قدم الكوفة ، ليأخذ البيعة للحسين بن علي وقد بايعه الناس ، فان كان لك في الكوفة حاجة فابعث اليها رجلاً قوياً حازماً يعمل مثل عملك في عدوك فان النعمان رجل ضعيف ... وكان

هو اول من كتب اليه .

ثم كتب عمارة بن الوليد بن عقبة ، وعمرو بن سعد بن ابي وقاص ، مثلما كتب عبد الله .

فلما انتهت الكتب الى يزيد ، دعا سرجون فقال له : خذ واقرأ . فقرأها ثم قال : ماذا يريد امير المؤمنين ؟

– نستشيرك فيمن نوليه الكوفة فالنعمان لا يصلح للولاية كما رأيت .

قال : أترى لو بعث معاوية من قبره كنت تأخذ برأيه ؟ قال : نعم .

قال : كان معاوية يهم بحمل عبيد الله بن زياد عاملاً على الكوفة وكتب له في ذلك عهداً .. – واين العهد ؟ – هو عندي يا امير المؤمنين .

وكان يزيد عاتباً على عبيد الله لحادث حدث له ، فقال : لم يخطر لي من قبل ان اوليه ..

– ولكن اذا اردت ان تحفظ في الكوفة هيبة امير المؤمنين فلا تتردد في ذلك ... ان عبيد الله مثل ابيه وهو رجل الساعة ..

فاطرق ملياً ثم قال : ليس في التردد رأي ... لقد وليناه فاكتب اليه .

فكتب سرجون كتابا جمع له فيه ولاية البصرة والكوفة ، وأمره بان يقتل مسلم بن عقيل او ينفيه . ودفع الكتاب الى مسلم بن عمرو الباهلي ، فمشى مسلم الى البصرة وهو يعلم ما في الكتاب . فلما بلغها ، كان رسول الحسين ، من الناحية الاخرى ، قد انتهى اليها وهو يحمل من مولاه كتابا الى مالك بن مسمع البكري والاحنف بن قيس ، والمنذر بن الجارود ، ومسعود بن عمرو ، وقيس بن الهيثم ، وعمرو بن عبيد الله بن معمر ، يدعوهم فيه الى كتاب الله وسنة رسوله ... فاحتفظ القوم بسر الكتاب ، الا المنذر بن الجارود ، فقد خاف ان تكون حيلة من ابن زياد ، فأتاه بالرسول والكتاب ، وعبيد الله كما تعلم ، لا يعفو عن مذنب ، ولا يتردد في أمر . فما هو الا ان قرأ كتاب الحسين حتى أمر بضرب عنق الرسول ، على مرأى من أهل البصرة ، ثم أمر باعداد عدة الرحيل الى الكوفة ليؤدب المتشيعين .

وخطب الناس عندئذ فقال : يا اهل البصرة ، ان امير المؤمنين قد ولاني الكوفة وأنا غادٍ اليها عند الصباح ، وسأستخلف عليكم أخي عثمان بن زياد ، والله لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وآخذن ّ الادنى بالاقصى حتى تستقيموا ، ثم خرج في صباح اليوم الثاني، ومعه مسلم بن عمرو الباهلي ، وشريك ابن الاعور الحارثي ، وطائفة من حرسه وأهل بيته ، وكان شريك شيعياً في داخله ، وحوله فريق من اتباعه وقد خطر لهم جميعاً ان يتراجعوا عن عبيد الله، وهم في الطريق ، على أمل أن يسبقه الحسين الى الكوفة ، والناس في الكوفة ، الا الرؤساء ، لا يعرفون الحسين وهم لم يروا وجهه ، من قبل ، ايام ابيه علي .

فلما تنحى شريك ومن معه ، عن ابن زياد ، مشى الى الكوفة لا يلوي على احد ، حتى دخلها في وضح النهار ، وهو على ناقة له ، وكأنه يمشي في سوق البصرة ، والحرس بين يديه ..

٢٣

جعل ابن زياد ، يمر بمجالس الناس في الكوفة ، وهم يظنون انه الحسين ، فيقولون : مرحبا بك يا ابن رسول الله !.. وهو لا يبتسم لهم ولا يقول كلمة !

ثم خرج القوم من منازلهم يمشون وراءه ... فساءه ما رآه ، وكان يقول في نفسه : ان اهل الكوفة جميعهم على دعوة الحسين .. حتى بلغ الخبر منزل هانيء ابن عروة . فقالت امامة لامها وقلبها يرقص من الفرح : لقداقبل الحسين ..

فقال هانيء وعمرو : لو كان هو الحسين لدعانا الى لقائه. انه لا يدخل الكوفة وحده .. قالت : هذا ما يتحدث به الناس ، خارج الفناء .

فانصرف الاثنان ، يتعجلان في السير ، حتى انتهيا الى موكب الرجل ، وكان النعمان بن بشير ، قد سمع ما سمعته امامة فاغلق بابه ، وهو لا يشك فيما

يقوله الناس .

وكان عبيد الله قد دنا من القصر ، ثم دخله والقوم يصيحون: لقد جاء الحسين يا ابن بشير !!

فقال النعمان من الداخل ، وهو يخاطب الحسين : اسألك بالله ان تتنحى عني فوالله ما انا بمسلم اليك امانتي ، وليس لي في قتالك حاجة .

فوضع ابن زياد يده على الباب وجعل يقول : افتح يا نعمان ..

فسمعها هانيء بن عروة ، وكان قد وصل الى القصر ، فرجع الى الناس وقال لهم : اخطأتم .. هذا ابن مرجانة ..

فتفرقوا وهم ساكتون ... ثم دب الذعر في القلوب ...

انه ابن زياد ، واهل الكوفة لم ينسوا أباه ..

ودخل عمرو وهانيء منزلها وهما يقولان : ساعة شؤم والله .. وابن معاوية الجالس على عرش الخلافة يعرف كيف يدافع عن العرش ...

فقالت خولة : وماذا جرى ؟

– ان الذي قدم الكوفة الآن ، عبيد الله بن زياد فويل للكوفة منه .

– قدمها عاملاً ليزيد ؟ – هذا ما نراه .

فقالت امامة : من هو ابن زياد ؟

– انه السفاح القاسي الذي لا يعفو .. وعدو الشيعة الذي هو اشد وطأة من معاوية . – وماذا تصنعان ؟

– لا نعلم الآن ، واننا نخاف عبيد الله ، على مسلم بن عقيل .

– وعلى كل شيعي .. – اجل على كل شيعي .. فلا حول ولا قوة الا بالله.

فاكتفت بما سمعت ، وخرجت الى الرواق لتستسلم الى البكاء ..

فهامست سلمى اختها قائلة : ويل للشيعة من ابن زياد ، وويل لنا من هذه الاقدار التي تفصل بين العاشقين . الحقي بامامة . ثم قالت لعمرو : اذن فابن عم الحسين في خطر ..

– نعم في خطر ، والشيعة لا تستطيع ان تفعل شيئاً قبل قدوم الحسين .

قالت : ليخرج مسلم من الدار التي اخترتموها له . — والى اين يذهب ؟
— الى دار اخرى لا يجسر على اقتحامها ابن زياد .
قال : لا يطيب لسليمان وشبث ، ومن وراءهما من رجال ، ان ينزل مسلم دار احدهم ، خوفاً من ان يشهر السيف . — اذن ينزل هذه الدار دار هانيء.
فقال : اذا اراد هانيء ذلك ، انتقل مسلم اليها الليلة ..
فقال هانيء : خير لي ان اموت والسيف في يدي ، من ان اجعل اهل بيتي عرضة للموت .
قال : سننظر في هذا غداً او بعد غد وان من الرأي ان نخرج الآن فلا بد لابن زياد من ان يدخل المسجد ويخطب الناس . وانثنى راجعاً الى السوق ثم الى قصر الامارة . ولحق به هانيء ليسمعا ما يقال . ولم يلبثا حتى عرفا ان الامير خارج الى المسجد .

٢٤

قال الحسين لمسلم بن عوسجة : لم يبق الا ان نترك الحجاز الى الكوفة ، فقد كتب الينا اهلها ، وأرسلنا اليها مسلما ابن عمنا ليأخذ لنا البيعة .
— وهل ورد على مولانا كتاب منه ؟
— لا ، فهو لا يكتب على ما نرى ، الا بعد ان يضم اليه جميع الناس .
— ومتى ترحل ؟ — ترحل انت في هذين اليومين فتكون عونا لمسلم .
— ثم تلحق بنا ؟
— نغادر مكة بعد شهرين ، ونرسل اليك والى مسلم ، رجلاً يحمل اليك أخبارنا ، قبل الوصول الى الكوفة .
— وتأذن لنا في حمل السيف اذا اكرهنا القدر على ذلك ؟

– كونوا اصحاب رأي وافعلوا ما تشاءون .

قال : سترى يا مولانا اني من أخلص الناس .

– بارك الله فيك ، ونحن نرجو ان يجعل الله انصارنا جميعهم مثلك .. انه تعالى قدير على كل شيء . – وما رأيك في زواج عبد الرحمن ؟

– خير له ان يتم الزواج ، قبل ان نبلغ الكوفة ، فقد يخلق الزمان بعد وصولنا اليها ، ما لا نعلم .. قال : سأفعل ، وسأكتب اليك .

– نحن لا ننتظر اخباراً وكتباً .. سنسافر بعد شهرين كما قلنا فلا حاجة لنا الى ما ذكرت . – وتأذن لسويد بن المطاع في الذهاب معي ؟

– أما سويد فليبق وخذ عبد الرحمن .

قال: لولا هذا الزواج لآثرت بقاء عبد الرحمن معك على الرجوع الى الكوفة.

– ليس من الرأي في مثل هذه المواقف ان يفارق الابن اباه .

وبعد ان تحدثا ساعة ، خرج مسلم يعد عدة السفر ، وأحس عبد الرحمن ان الدنيا لا تسعه من الفرح .

• • •

نحن الآن ، مع مسلم بن عوسجة ، وعبد الرحمن بن مسلم ، في الكوفة ، وقد انتهيا اليها بعد مرور يومين اثنين ، على وصول ابن زياد ، وكان لقاء الحبيبين ، لقاء صامتا ، خفقت فيه القلوب ، وتكلمت العيون ، والقوم يتحدثون بخطبة عبيد الله ، ويذكرون شدته وشدة ابيه ، فرأى مسلم ان عقيدة المتشيعين في خطر ، وان الخوف يملأ نفوس الرجال والنساء والامر سينتهي الى يأس لا رجاء بعده ، فجعل يصف لهم قوة الحسين ، وعقيدة الرجال الذين معه ، ويعدهم بالنصر والاستيلاء على مقعد الخلافة ، بعد شهرين ، وابن الحجاج يصف له بطش عبيد الله ومضاء عزيمته .

فقال مسلم : أيستطيع ابن زياد في يومين ، ان يلقي الذعر في القلوب ويبعث الهيبة الى كل نفس من نفوس أهل الكوفة ؟

– ذلك ما جرى ، وانك لتجد هيبته في المسجد وفي كل منزل من منازل الاخوان الذين يبغضون بني امية . قال : سمعتكم تذكرون الخطبة فما هي ؟
قال : أقبل عبيد الله والناس يظنون انه الحسين .
وخبره ما حدث لاهل الكوفة ثم قال : ولقد رجع الناس عن قصر الامارة عندما علموا ان الحسين لا وجود له ، وكان هانيء يقول : هذا ابن مرجانة .
– وبعد ذلك ؟

– عادوا الى الاجتماع عندما بلغهم ان عبيد الله مشى الى المسجد وهو لا يبالي بما رآه ، ثم دخلوا جميعهم بيت الله ، فجلس ابن زياد على المنبر ثم قال : يا اهل الكوفة ، ان امير المؤمنين ولاني امركم وامرني بانصاف المظلوم ، واعطاء المحروم ، والاحسان الى السامع والمطيع ، والشدة على المتمرد العاصي .. واني متبع فيكم امره فأنا للمحسن كالوالد وللمطيع كالاخ الشقيق ، وسيفي وسوطي على من ترك امري وخالف عهدي فليبق كل رجل على نفسه .

فضحك مسلم قائلاً : انها خطبة كان ابوه زياد يقول مثلها كل يوم ، ولم نخف .. والله لقد أمسينا شعباً يخاف الخطب وقد كنا رجال حرب .
قال : لم نخش عبيد الله على انفسنا يا ابا عبد الرحمن ولكن خفناه على مسلم ابن عقيل رسول مولانا الحسين . – وأين مسلم ؟
– في دار المختار بن ابي عبيد . – ويعرف ذلك ابن زياد ؟
– لا نعلم ، ولكنه أمر الناس بان يخبروه كل شيء والويل لمن لا يفعل .
قال : أعد عليّ قوله .

قال : دعا رؤساء الاحياء فقال : اكتبوا لي اسماء الغرباء وأعداء امير المؤمنين واهل الريب ، فمن كتبها فهو البريء ومن لم يكتب فليضمن لنا من في حيه ان لا يخالفنا فيهم مخالف ولا يبغي علينا منهم باغ .. اسمعوا ايها الناس ، ان الرجل الذي لا يفعل ذلك حلال لنا دمه وماله ، وكل رئيس نجد في حيه رجلاً من خصوم الخليفة لا يخبرنا عنه يصلب على باب داره ... – وماذا ترى ؟
– أرى ان ينتقل مسلم الى دار اخرى وقد حدثت هانئاً بهذا .

قال : رأيك يا هانيء .

قال : كنت عزيزاً على زياد ومن المقربين اليه كما تعلم .   — نعم .

— وان من الرأي ان نختار لمسلم غير هذه الدار .

قال : اني متهم ، وحراس الامير والمقربون الى القصر يعلمون اني أعدى أعداء بني امية ، فاذا جعلت مسلما في داري فقد قتلته ، ودخل في تلك الساعة شبث بن ربعي ، فسلم على مسلم وجعل يسأله ، ثم طلبوا اليه ابداء الرأي ، في أمر ابن عقيل الذي يتحدثون به ، فقال : ليس لي ان ابدي رأياً في هذا . اني اخاف ان اختار بيتاً من بيوت المتشيعين فتفضح الشرط أمره .. وسكت قليلا ثم قال : كان هانيء صديق زياد ، كما هو صديق ابنه عبيد الله ، فاذا استخفى ابن عم الحسين في بيته ، غضّ صاحب الشرط طرفه عنه .

فقال هانيء : لا ارضى .   — اذن نختار داراً في ضواحي الكوفة .

— اذا فعلنـــا ذلك لفتنا النظر .. واي بيت من البيوت التي ذكرت يصلح لنزول مسلم واجتماع القوم ؟   قال : ليخرج الى المسجد اذن فينتهي الأمر ..

فقال مسلم : سأراه الليلة فاحدثه بذلك ..

ثم خفض صوته قائلاً : يخيل اليّ ان رجال الامير سيحيطون بدار ابن عقيل ثم يقبضون عليه ، فماذا تصنعون اذا انتهينا الى مثل هذا ؟

فقال شبث : نصنع ما تصنعه انت .   قال : اما انا فأعمد الى السيف .

-- ونعمد نحن الى سيوفنا ...   — وتظهرون الدعوة ؟

— ستردد الشيعة كل كلمة تقولها انت وسنضع اقدامنا حيث تضع قدميك .

وكانت امامة وعبد الرحمن ، من الناحيـــة الاخرى ، يتشاكيان الهوى . وخولة تقول لهما : ستجتمعان بعد ايام ، اجتماعا لا فراق بعده . وقد ذكر مسلم عندئذ امر ولده ، فقال : والزواج يا ابا امامة ؟

فابتسم عمرو قائلاً : وهل يليق ان تزف امامة الى عبد الرحمـــن ، وابن عم مولانا الحسين محتجب في دار المختار ، وابن زياد يهدده من وراء الستار ، ويهدد الشيعة ؟. ثم رفع صوته ليسمع عبد الرحمن ، وجعل يقول : ماذا يقول الناس

ان املنا ؟ يقولون ان هؤلاء الناس الذين يتشيعون لآل علي ، والذين بذل ابن زياد جهده ، ليخمد اصواتهم ، ويقتل شيعتهم ، تركوا عليا وانصرفوا الى بهجة الاعراس ...

- اذن فاجعل للزواج موعداً آخر .   - موعده قدوم الحسين .

- ان مولانا الحسين يؤثر ان يكون ذلك قبل وصوله .

- ولكن من الرأي ان يكون حاضراً فيبارك الفتيين .

- اني راض بهذا وسيجيء مولانا بعد شهر .. اسمع يا عبد الرحمن ، ان الزواج سيتم يوم يأتي ابن بنت الرسول .   قال : الدهر لا يصفو لاحد يا مولاي.

فأجابه شبث قائلا : اما ان يصفو للشيعة جميعها او نموت ، فجعل الفتى ينظر الى خطيبته وهو ساكت .

ثم اطرق الاثنان ، وقد اكرهتهما الحادثات على الاستسلام ...

٢٥

انصرف مسلم وعبد الرحمن الى منزلهما في اول الليل ، على امل ان يزور الاثنان ابن عقيل ، بعد الهزيع الاول منه ، ولو ارسلا نظرهما الى جانب المنزل، من جهة المسجد ، لأبصرا عينين تلمعان كعيني الذئب ، هما عينا الربيع .. كان اللعين يعلم كل شيء ، وقد خبره ابوه بما تحدث به القوم ، في دار هانيء بن عروة ، وهو الفتى الداهية ، الذي لا ينسى شيئاً ، ولا يضيع الفرص .

ارسل الى ابن عقيل من يقول له : ان رجال ابن زياد سيحيطون بدار المختار فاتركها الليلة ...   فقال الرجل : الى اين ؟

- الى دار هانيء المرادي فهو من اصدقاء زياد ، وعبيد الله بن زياد لا ينتهك

له حرمة ، ولا يروع ضيفاً نزل عليه ...

قال : اخشى ان لا يرضى هانيء .   — اذا اتيت منزله رضي وشكر .

— ومن يدلني على بيته ؟   — أنا ومعي رجل آخر عند الباب ..

فلم يتردد ابن عقيل في الخروج ، وقد كان يفكر في ترك دار المختار ، قبل ان يدخل عليه ذلك الكوفي .

فلما انتهى الى الباب ، رأى رجلاً تحجب وجهه عمامة ، لا يتكلم الا بالاشارة . وما لبث ذلك الرجل حتى تقدمه الى بيت هانيء ، ووقف عند باب الفناء ، أومأ اليه بان يدخل وحده ، فدخل ابن عم الحسين ، حتى بلغ الرواق واستدعى هانئاً . فلما رآه هانيء ، ذعر وكره مكانه ، فقال : لماذا أتيت ؟

— اتيتك وانا ضيفك المستجير بك .

قال : لولا دخولك لأحببت ان تنصرف عني .. ولكنه عار لا اريد ان يلحق بي . ادخل .

وفي الليلة نفسها ، عرف ابن زياد ان ابن عقيل انتقل الى دار صديقه وصديق أبيه !.. فدعا غلاماً له كان عنده في البصرة ، وقال له : هذه ثلاثة آلاف درهم فاطلب مسلم بن عقيل واصحابه ، والقهم وخبرهم انك منهم ، واحمل الي اخبارهم .

— وهل تعلم يا مولاي مكان مسلم ؟

— اجل ، فهو في دار هانيء بن عروة .

ونام ابن زياد ليلته ، وهو واثق بان القوم امسوا في قبضة يده ، أما ابن عوسجة ، فلم يتردد في الذهاب الى دار المختار ، فقيل له ان ابن عقيل ، في دار ابن عروة ، فأتاه فسلم عليه ثم قال : أتأتي دار هانيء دون ان تقول لرجالك ؟

— خفت ان يفاجئني ابن زياد برجال الحرس فأتيت .. اين تركت حسينا ؟

— في مكة .   — وهل عول على المجيء الى الكوفة ؟

— نعم وسيكون فيها بعد شهر .. ماذا فعلت انت ؟

— كما ترى ، القوم يبايعون الحسين ، ويسبون ابن معاوية ، ولولا ابن زياد لخرجت الى الاحياء ، ودعوت الناس ، ومشيت الى قصر الامارة ، وانا صاحب

الكوفة باسم ابن عمي . — والآن ؟
— اما الآن فالصبر والرأي . قال : ألم ترَ تردداً من رجال الشيعة ؟
— رأيت عقيدة راسخة ، ورغبة في قتال الامويين .
— ولكنك لم تكتب الى الحسين .
— لا اريد ان اكتب اليه الا بعد ان يتم لنا الامر .
قال : أرجو ان تحدثني بما تفكر فيه .
— افكر في امرين اثنين.. استوثق اولا من جميع الذين عرضوا عليّ البيعة.. ثم أزحف بهم الى القصر فأطرد عبيد الله منه .
قال : لقد قدم الليلة شريك بن الاعور .
— ان شريكاً شديد التشيع وقد شهد صفين .
— أعلم ذلك وهو اقرب الناس الى ابن زياد وأحبهم اليه .
— ومن قال لك هذا ؟ — جميع الذين يروحون الى البصرة .
— وبأي منزل نزل شريك ؟
— بمنزل المختار ، وقد دخله بعد خروجك منه .
قال : يجب ان اراه قبل ان اصنع شيئاً . — سأنقل اليه قولك فيجيء .
فقال ابن الحجاج : ان لشريك في البصرة مقاماً يضعف عنده مقام ابن زياد .
فقال ابن عقيل : ولكن الحسين كان يقول لي ان الشيعة هنالك تتردد في الامر ومع ذلك فسيصف لها شريك الدواء .
وجعلوا يتحدثون حتى انتصف الليل ، فانصرف ابن عوسجة ، وهو يرى ، ان الموقف صعب ، والامر خطير ..

٢٦

أقبل شريك في اليوم الثاني الى منزل هانيء، وقد بدأت الشيعة تروح وتجيء،

ومظاهر الاستخفاف على الوجوه ، ولم يبق احد في الكوفة ، الا علم بمـ
مسلم بن عقيل ، وشريك بن الاعور ، وتناقلت الافواه الاخبار ، فلما رأى ا
عقيل ، ان هوى الناس في الحسين ، كتب اليه ، وهو في بيت هانيء كتابا
فيه : تعجل في المجيء فقد بايعك ثمانية عشر الفاً من الرجال .

وصبر القوم ، حتى يروا سيدهم الحسين في الكوفـــة ، وكان ابن عوسجه
يقضي معظم ساعات يومه ، في المسجد ، ويكثر من الصلاة والناس يرون ذلك
ففي صباح يوم ، دخل المسجد ذلك الغلام الذي أمره ابن زياد بان يظهر التشيـ
للحسين ، واسمه كعب ، فسمع الناس يقولون : هذا يبايع للحسين وهو يصل
واشاروا الى مسلم بن عوسجة ، وليس في الكوفة من يجهل امر مسلم .

فلما فرغ من صلاته، دنا منه غلام عبيد الله فقال له : اني امرؤ من اهل الشام
انعم الله عليّ بحب اهل البيت . واريد ان القى رجلاً منهم بلغني انه قـ
الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله . — ومن دلك علي ؟

— سمعت بعضهم يقول انك تعلم امره وهذه ثلاثة آلاف درهم اردت
لقاءه فان شئت اخذتها واخذت بيعتي له قبل ان القاه .

قال : لقد سرني اني رأيتك لتنال الذي تحب وينصر الله بك اهل بيت نبـ
ولكن ساءني ان الناس يعلمون ذلك ويدلون علي . — وماذا تخاف ؟

— اخاف هذا الطاغية الذي يشبه اباه .. — ابن زياد ؟

— نعم واخشى ان يضرب ضربته قبل ان يتم الامر... ثم قال اعطني البيعه
فأعطاه ، وحلف ان يكون صادقا في بيعته ، ثم اوصاه بالكتمان وبان يجـ
اليه كل يوم ليدخله بعد ايام على مسلم .

وبعد يومين مرض هانيء بن عروة ، فبلغ عبيد الله ذلك فقـــال لغلامه
اذهب فقل لابن عروة اني سأعوده ، ففعل الغلام ما امره به .

وكان عمارة بن عبد السلولي عند هانيء ، فقال ليس لجماعتنا همّ الا قتل هـ
الطاغية ، فاقتله اذا جاء .

قال : ما احب ان يقتل في داري .

واقبل ابن زياد في اليوم الثاني ، وجعل يحدث هانئاً وشريكاً والابتسامة لا تفارق شفتيه !!. ثم مرض شريك ، وكان الداء شديد الوطأة .

فارسل اليه الامير : اني ذاهب اليك عند المساء .

فقال شريك لمسلم بن عقيل : ان هذا الفاجر سيجيء ، فاذا جلس فاخرج اليه فاقتله ثم اقعد في القصر ليس احد يحول بينك وبينه ، فان برئت من وجعي وصرت الى البصرة كفيتك امرها وحملت القوم على المبايعة .

فلما كان المساء ، اتى عبيد الله ، فقام مسلم بن عقيل ليحتجب فقال له شريك : لا تتردد في قتله اذا جلس .

اما هانيء فكان يقول كلمته الاولى : لا احب ان يقتل في داري .

ولم يتسع المجال للكلام لان عبيد الله انتهى الى الرواق ، ثم دخل فجلس وسأل شريكاً عن مرضه فأطال .. فلما رأى شريك ان مسلماً لا يخرج خشي ان يفوته فاخذ يقول : ما تنظرون بسلمى لا تحيوها .. ثم جعل يقول : اسقونيها ولو كانت بها نفسي ، قال ذلك مرتين او ثلاثاً ، وانما كان يريد ان يسمع مسلم قوله فيخرج الى قتل ابن زياد . ولكن مسلما لم يفعل .

فقال عبيد الله لهانيء : ماذا يقول شريك . أيهذي ؟..

— نعم وذلك دأبه منذ الصباح الى هذه الساعة .

فاشار غلام عبيد الله على مولاه بالانصراف .. فنهض مودعاً .

فقال شريك : اريد ان اوصي ايها الامير . قال : اعود اليك .

فلما خرج قال له غلامه : لقد اراد القوم قتلك .

— وكيف يفعلون ذلك ، وانا اكرم شريكاً وهانئاً ويد أبي عندهما ؟

قال : الامر كما قلت ، وهذا الهذيان الذي رفع به شريك صوته ، كلمة يدعو بها ابن عقيل ، الى قتلك !! — أتظن هذا ؟ — بل انا واثق به .

فمشى والنار تتقد في صدره ، وقد عول على الفتك .

وكان مسلم قد خرج الى القوم ، فقال شريك : ما منعك من قتله ؟

قال : خصلتان ، احداهما ان هانئاً لا يريد ان يقتل الامير في منزله ،

والاخرى حديث حدثه علي عن النبي قال : ان الايمان قيد الفتك فـــلا يفتا
مؤمن بمؤمن .

فقال هانيء عندئذ : لو قتلته.لقتلت فاسقاً فاجراً غادراً .

– ولكنك لم تقل ذلك من قبل .

وشاء القدر ان يموت شريك بعد ثلاث ليال ، فصلى عليه عبيد الله ، ثم تبـ
له انه كان قد حرض مسلما على القتل ، فقال لمن عنده : والله لا اصلي على جنا
عراقي ابداً ، ولولا ان قبر زياد فيهم لنبشت شريكاً !!

٢٧

أخشى ايها الحبيب ان يخرج الامر من يد الحسين ، فنخسر كل شيء .

فقال عبد الرحمن : لقد بايع الحسين ثمانية عشر الفاً من الرجال ، فليس
الكوفة قوة تستطيع ان تثبت في وجهه .

– ومع ذلك فانا خائفة ، واكاد المس بيدي دماء الرجال الذين يدافعون
باباء وشرف ، عن ابن بنت الرسول .

قال : الجيش الذي يستعين به ابن زياد ، اربعة آلاف ، فهو غير قادر على
يربح المعركة . قالت : هنالك أمر آخر افكّر فيه .

– ما هو ؟ – هو ان عقيدة شبث بن ربعي قد ضعفت !

فابتسم قائلاً : ذلك قول قلته قبل الخطبة ، ثم ردّدته للقوم قبل الرحيل ا
الحجاز .. ان ابن ربعي خائن !.. – هب ان الرجل كما تقول فماذا يصنع

– ينضم مع قومه الى صفوف الامويين .. – ومن يتبعه من غير قومه ؟

– لا ادري فالغيب يعلمه الله .

– اذن سيخسر الحسين ركناً قوياً من اركان الشيعة .

– خير له ان يخسره اليوم من ان يخزنه غداً .

– فخفضت صوتها قائلة : وما رأيك في ابي .

فتردد الفتى في جوابه ، فقالت : استحلفك بهـذا الحب ان تبوح لي بما في صدرك .. – وتعدينني بالصبر ؟

فارتجفت شفتاها وجعلت تقول : لقد صدق الظن ... نعم اعدك فاذكر ما تراه .

قال : يخيل الي ان الصف الذي سينضم اليه شبث بن ربعي ، ينضم اليـه عمرو بن الحجاج !! – ولك دليل على ذلك ؟

– اجل ، فقد كان ابوك ، منذ عرفت الشيعة ، آلة في يـد شبث ، يقول الكلمة التي يقولها ويفعل ما يفعل ..

قالت : كان يرى رأي الرجل في القتال والخروج على الخلافة .

– بل كان يرى رأيه في الاقامة بالكوفة بعيداً عن الحسين وفي الخضوع لكل امر يبعث به معاوية من دمشق .. وهو يرى رأيه اليوم في الخضوع ليزيـد ، خضوعاً يقول شبث انه خضوع دهاء .

فسال دمعها على الخدين ، وهي لا تكفكفه ولا تمد اليه يداً .

فقال : أتبكين يا امامة ؟ .

– وكيف لا ابكي وانت تظن ظنونك .. ان خروج ابي على الحسين عداوة للفصل بين بني اسد وبني زبيد الى الأبد .

قال : قد اكون مخطئاً فيما رأيت ، ومع ذلك فهذه العداوة التي تذكرين ، لا تفصل بيننا نحن الاثنين ، ولا تنال من هذا الغرام الذي لا يبـلى .. انا لك وانت لي ، ولكن أبوك أموياً .

قالت : يعرض ابي لي ، ويعرض ابوك لك ، فيختنق هذا الغرام .

قال : لو اجتمعت قوى المسلمين جميعها بما فيها قوة يزيـد بن معاوية وقوة الحسين بن علي ، لـكانت اعجز عن هذا . ان الزواج سيتم يوم يدخل الحسين الكوفة فكفي عن البكاء ، وكانا يتكلمان في آخر الرواق .

فاقبلت خولة وهي تقول : لو اراد الله ان يستقيم الأمر للحسين في البصرة لما مات شريك بن الاعور ، ثم رأت الدمع في عيني امامة فقالت : يا عبد الرحمن ما هو سبب هذا البكاء ؟

– لقد ذكرت موقف يزيد والحسين فبكيت ..

قالت اتخافين على الحسين يا بنية ؟

– نعم يا امي .. اخاف عليه خصومه بني امية .. واخاف عليه في الوقت نفسه ، رجاله الذين يتشيعون لأبيه !!

– وكيف تخافينهم وهم البررة المخلصون الذين سيرفعونه الى العرش .

– بين هؤلاء البررة المخلصين رجال سيبيعون دينهم بالدنيا ..

– ومن هم ؟ شبث بن ربعي ... وعمرو بن الحجاج !!..

– ابوك يا امامة ؟ – نعم ، وهذا عبد الرحمن يرى ما اراه .

فضحكت قائلة : لو قيل لي ان معاوية ابن ابي سفيان بعث حيا لصدقت ، ولكني لا اصدق ان عمراً يخون الحسين ..

– واذا فعل ؟ – كنا نحن اهل بيته خصوماً له .

– وينتهي الامر بينك وبينه الى الطلاق ..

– لا اظن ان الطلاق يخطر له وهو الزوج الرصين الهادىء الذي يعرف نفسه

قالت : امي ، لقد سلمت امري اليك بعد الله .

– وانا اعدك باني ساعيد اباك الى رشده ، اذ هو خان الحسين .

فقال عبد الرحمن : كفي يا امامة فقد وثقنا بهذا الوعد ..

وبينا هم يتحدثون ، اقبل الى المنزل ابو عبد الرحمن ، ووراءه رجل غريب ، تبدو على وجهه آثار الصلاح .

فقالت خولة : من هذا الذي يرافق اباك ؟

– هو رجل من اهل الشام يدعى كعبا . – وما هي حاجته ؟

– حمل معه من الشام ثلاثة آلاف درهم يلقى بها ابن عقيل ويبايع الحسين ابن عمه .. – ويعرفه ابوك ؟

– رآه منذ بضعة ايام ، وهو في المسجد .
قالت : اخشى ان يكون عيناً لابن زياد .
قال : عيون ابن زياد رجال الشرطة والحراس فهو لا يحتاج الى مثل هذا ، قال ذلك ومشى ، يريد ان يرى كعباً عند مسلم بن عقيل .

٢٨

دخل كعب على ابن عم الحسين فأخذ بيعته وقبض ماله ، وجعل يروح ويجيء ليقرأ الاسرار ثم ينقلها الى ابن زياد ، حتى امتلأ صدر الامير وطفح الكيل ، وكان هانيء قد انقطع عن عبيد الله بعذر المرض ، ثم عرف عبيد الله ان العافية قد رجعت اليه والناس يرونه جالساً على باب المنزل في كل مساء .

فدعا ابن الحجاج فقال له : نسألك عن هانيء بن عروة وانقطاعه عنا ، وكان في مجلسه ، محمد بن الاشعث وحسان بن اسماء بن خارجة .

فقال عمرو : انه مريض ايها الامير .

– ولكن بلغنا انه يجلس على باب داره وقد برأ .

فهم بالجواب فأومأ اليه بان يسكت ثم قال : يا ابن الاشعث اذهب الى منزل ابن عروة وخبره ان الامير لا يطيق انقطاعه عنه واذهب معه يا ابن خارجة .

فخرج الاثنان فأتيا هانئاً فقالا : ان الامير قد سأل عنك ، وقد بلغه انك تجلس على باب دارك والجفاء لا يحتمله السلطان ..

قال : لا استطيع الركوب .. والقصر بعيد .

فاستحلفاه ان يفعل ، ولم يكن في الدار من الرجال غير مسلم بن عقيل ، وهو في حجرته ، فلبس هانيء ثيابه وركب معهما ، فلما دنا من القصر ، احست نفسه بالشر ، فقال لحسان : يا ابن اخي ، اني خائف فما ترى ؟

قال : لا تجعل على نفسك سبيلاً فانا لا اتخوف عليك شيئاً .

فلما دخلوا على ابن زياد ، قال لشريح القاضي وكان عنده : اريـــد حياته ويريد قتلي . فقال هانيء : وما ذاك ايها الامير ؟

قال : يا هانيء .. تتآمرون على امير المؤمنين والمسلمين ، وتجيء بمسلم بن عقيل فتدخله دارك وتجمع له السلاح والرجال وتظن ان ذلك يخفى ؟..

قال : ما فعلت .. قال : بلى ، فاعترف ولا تخفِ شيئاً .

– قلت اني لم افعل . فقال لحاجبه : عليّ بالغلام البصري .

فجاء كعب حتى وقف بين يديه ، فقال له عبيد الله : أتعرف هذا الرجل ؟

– نعم .

فعرف هانيء انه كان عيناً على الشيعة ، فاضطرب واطرق ثم قال : أتصدقني ايها الامير اذا ذكرت لك كل شيء . – قل .

قال : والله لا اكذبك .. اني ما دعوته ولا علمت بشيء من أمره حتى رأيته جالساً على بابي يسألني النزول علي فاستحييت من رده فادخلته داري وقد كان من امره الذي بلغك ، فان شئت اعطيتك الآن عهداً ورهينة تكون في يدك حتى انطلق واخرجه من داري واعود اليك .

قال : والله لا تفارقني ابداً حتى تأتيني به .

قال : آتيك بضيفي تقتله ؟. لا والله ابداً . وكثر الكلام بينهما .

فقام مسلم بن عمرو الباهلي فقال : تأذن لي ان اكلمه ايها الامير ؟ – افعل .

فاخذ هانئاً وخلا به بحيث يراه ابن زياد ، ثم قال : يا هانيء لا تقتل نفسك ، ولا تدخل البلاء على قومك .. ان ابن عقيل ابن عم القوم وليسوا بقاتليه فادفعه اليه فانما تدفعه الى السلطان .

قال : لا والله ان علي خزياً وعاراً ... لا ادفع ضيفي وانا صحيح شديد الساعد كثير الاعوان ، ووالله لو كنت واحداً لا ناصر لي لم ادفعـــه حتى اموت دونه !.

فسمع ابن زياد ذلك ، فقال : أدنوه مني .

فأدنوه ، فقال : والله لتأتيني به او لاضربن عنقك ..

قال : اذن والله يكثر القتل حول دارك ، وهو مؤمن بان عشيرته ستمنعه .

فقال : اتخوفني يا ابن عروة ؟!

وكان غلام له يدعى مهران ، قائماً على رأسه وبيده قضيب فقال : واذلاه . هذا المرادي يهددك في سلطانك ؟! فقال : خذه .

فقبض مهران على ضفيرتي هانيء ، وتناول عبيد الله القضيب وجعل يضربه على انفه وجبينه وخديه حتى سال دمه على ثيابه ونثر لحم الخدين والجبين على لحيته وكسر القضيب ، فمد هانيء يده الى سيف شرطي يريد ان يتناوله ليضربه به ، فمنع من ذلك ، فقال عبيد الله : لقد حل لنا قتلك الآن ، ثم امر رجاله بان يحملوه الى حجرة ويغلقوا بابها .

فقال ابن خارجة : ايها الامير الغادر ، امرتنا بان نجيئك بالرجل فلما اتيناك به هشمت وجهه واجريت دمه وانت تريد قتله ؟

فأمر به عبيد الله فتعتع .. ثم ترك .

اما ابن الاشعث فقال : رضينا بما رأى الامير .. لنا كان او علينا .

وبلغ ابن الحجاج ان هانئاً قد قتل ، وكان في المسجد .

فاقبل في بني مذحج حتى احاطوا بالقصر ونادى : انا عمرو بن الحجاج .. هذه فرسان مذحج ووجوههم . لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة !..

فقال عبيد الله لشريح القاضي : ادخل على صاحبهم هانيء فانظر اليه ثم اخرج اليهم فاعلمهم انه حي في القصر لم يقتل .

فدخل عليه ، فقال له هانيء : يا للمسلمين .. اهلكت عشيرتي ؟ اين أهل الدين أين اهل النصر ؟ .

ثم سمع صياح القوم ، فقال : يا شريح اني لاظنها اصوات مذحج وشيعتي من المسلمين .. انه ان دخل علي عشرة رجال انقذوني ..

فخرج شريح ، ووراءه غلام لابن زياد جعله عينا عليه ، وكان شريح يقول بعد ذلك . لولا هذا الغلام اللعين لابلغت القوم قول هانيء .

فلما أطل على مذحج قال : ايها القوم لقد نظرت الى صاحبكم وانه حي .

فقال ابن الحجاج واصحابه : الحمد لله .. الحمد لله ، ثم انصرفوا . وانتهى الخبر بعد ساعة ، الى منزل هانيء .

فصاحت سلمى وخولة وامامة يقلن لمن حضر : يا اهل الكوفة .. يقبض ابن زياد على هانيء بن عروة ، ويهدده بالقتل وهو في قصره ، ولا يسأل عنه ؟!

ثم أقبلت سلمى تقول لابن عقيل : يا ابن عم الحسين .. ان هانئاً اسير القصر وسيقتل فماذا تنتظر الشيعة بعد هذا ؟ وكان القوم قد اجتمعوا ، وحول دار هانيء منهم اربعة الاف رجل في ايديهم السيوف كأنهم في ساحة حرب، وقد بايع الحسين من الكوفيين ثمانية عشر الفا كما رأيت .

فخرج ابن عقيل فنادى : يا منصوراً مت ...

وكانت هذه الكلمة شعاراً للقوم، فانضم اليه طوائف الناس على رأسهم مسلم ابن عوسجة وولده عبد الرحمن والنار تتقد في الصدور .

فقال لعبد الله بن عزيز الكندي: تقدم الجيش الى القصر فأنت على ربع كندة

ثم قال لمسلم بن عوسجة : وانت يا ابا عبد الرحمن على ربع مذحج واسد وجعل ينظر الى الناس كأنه يفتش عن ضائع ثم قال : اين شبث بن ربعي وعمر ابن الحجاج ؟

فقال قائل : رأيت ابن ربعي على شرفة من شرفات القصر ...

قال : قصر الامارة ؟

— نعم ولم أرَ عمراً، فقال لابي ثمامة الصائدي انت على ربع تميم وهمدان. وانت يا عباس بن جعدة على ربع المدينـة ... ازحفوا الآن ، فمشوا الى القصر واصواتهم تملأ الفضاء ، ثم أحاطوا به من الجهات الاربع ، والنساء والرجال والصبيان يسبون ابن زياد وأباه ويسمعونه ما يكره ، وقد غص المسجد والسوق بالناس ، والوفود تتبع الوفود حتى المساء ، فضاق القصر على ابن زياد ، ولم يكن في مجلسه غير ثلاثين رجلاً من الشرط ، وعشرين من الاشراف ، واهل بيته وغلمانه ، بين اولئك الرجال شبث بن ربعي وولده الربيع .. وبينا هو في

حيرته ، أقبلت طائفة من وجوه الناس ، أذن لها قواد الثورة ، في الدخول ، فدعا كثير بن شهاب الحارثي ، وأمره بان يخرج فيمن يطيعه من بني مذحج ، لينصح للقوم بالتخلي عن ابن عقيل .

وقال لمحمد بن الاشعث : أما انت فاخرج فيمن أطاعك من كندة وحضرموت وارفع راية الامان لمن يأتينا من الناس ، وقال مثل ذلك ، لقعقاع بن شور ، وشبث بن ربعي !! وحجار بن ابجر ، وشمر بن ذي الجوشن ، وترك بقية الوجوه عنده ، يستأنس بهم ، لقلة من معه ، فخرج الاشراف يخذلون الناس ، ثم أمر عبيد الله من عنده بان يشرفوا على القوم من القصر فيعدوا اهل الطاعة ، الوعود الخلابة ، ويخوفوا اهل المعصية ، ففعلوا .

فلما سمع الناس اقوال اشرافهم ورؤساء العشائر ، أخذوا يتفرقون ، حتى ان المرأة كانت تأتي اخاها وابنها فتقول : انصرف فالناس يكفونك ، ويصنع الرجل مثل ذلك ، فما زالوا يتفرقون. حتى بقي ابن عقيل في المسجد ، في ثلاثين رجلاً من أصحابه لا يزيدون ، وماذا يفعل ذلك المسكين الذي خانه الحظ ، وتخلت عنه طوائف المخلصين لآل علي ، قبل ان ينقضي النهار ، وأي امل له بالبقاء، مع مسلم بن عوسجة وعبد الرحمن اللذين لزماه لا يبتعدان عنه قيد ذراع، ان الحكمة تقضي عليه بترك المسجد ، والانصراف الى منزل آخر من منازل الكوفة ، يستعيد فيه قواه ، وينظر من جديد في أمره ، ريثما يجيء الحسين .

فقال لابن عوسجة : اني ذاهب ولا اعلم الى اين .

— وأنا اسير معك الى حيث يطيب لك .

قال : خير لك ان تبقى حراً فقد ينتهي الحسين الى ضواحي الكوفة فلا يجد من يستقبله . — وانت ؟

— أما انا فأخشى ان تضيع حريتي ، هذه الحادثات التي ترى .

ومشى يريد ابواب كندة . وليس معه احد !! ان ابن عم الحسين، الذي بايعه ثمانية عشر الفاً من اهل الكوفة ، لم يجد في ذلك الليل رجلاً يستأنس به !! انه لمظهر رائع ، من مظاهر الوفاء يظهر به الكوفيون .. خرج يطوف في ازقة

الكوفة لا يدري اين يذهب، حتى انتهى الى باب امرأة من كندة يقال لها طوعة، وقد كانت للاشعث ، فاعتقها، فتزوجها اسيد الحضرمي، فولدت له بلالا ، وكان بلال قد خرج مع الناس وهي تنتظره، فسلم عليها وطلب الماء، فشرب ثم جلس.

فقالت له : يا عبد الله ، ألم تشرب ؟ — قال : بلى .

— اذن فاذهب الى اهلك !... فسكت ، ولم يجب .

فقالت له ذلك ثلاثا فلم يبرح

فقالت : سبحان الله ، اني لا أحل لك الجلوس على بابي .

فقال : ليس لي في هذا البلد منزل او عشيرة فهل لك إلى اجر ومعروف اكافئك به بعد اليوم ؟ قالت : من انت ؟

— انا مسلم بن عقيل وقد غرني اهل الكوفة !

فترددت قليلاً ثم قالت : ادخل .

فاختار حجرة في آخر الدار قعد فيها ، ونفسه حزينة ، وقلبه يضطرب ، والكآبة والألم يغمران روحه ، ولم تلبث المرأة حتى عرضت عليه العشاء فلم يفعل ، ثم أقبل ابنها بلال ، فرأى امه تدخل تلك الحجرة وتخرج وقد فعلت ذلك مرات كثيرة وهو قاعد ، فقال لها : ان لك لشأنا في الدخول والخروج ، وجعل يسألها وهي تكتمه الامر حتى عجز صدرها عن حفظ السر .

فقالت : في البيت مسلم بن عقيل، واستحلفته بالله ان يكتم الناس ما يعلم .. فنام ليلته ولم يقل كلمة ، وهي تظن انه ارفع من ان يبوح بسر الرجل الغريب المنكود الحظ .

٣٩

قال ابن زياد لاصحابه : اني لا اسمع اصواتا فهل تفرق القوم ؟

فخرجوا ينظرون ، فلم يروا احداً ، فقالوا : لم يبــق في الساحة كوفي ايها الامير .

فابتسم ابتسامة الظفر ثم قــال : نخرج اذن الى المسجد ، ونزل والرجال والحراس حوله حتى صعد المنبر وهم يحيطون به ، ثم امر مناديه فنادى : برئت الذمة من رجل من رجال الشرط والرؤساء والجيش صلى العتمة الا في هــذا المسجد .. فغصّ المجلس بالناس ، بعد ساعة ، فصلى ثم قام فحمد الله ثم قال : اما بعد فقد رأيتم ما اتاه ابن عقيل السفيه الجاهل ، من الخلاف والفتنــة ، ان الذمة بريئة من رجل نجد ابن عقيــل في داره ، ومن اتانا به فله ديته .. نأمركم بالطاعة والويل لمن لا يفعل .

ثم ترك المنبر ، وقال للحصين بن تمــيم وهو صاحب الشرط : احفظ ابواب الكوفة وفتش المنازل لا تترك منزلا ولا تصغ الى اعذار الناس التي ستسمع .. أفهمت ؟ — نعم ايها الامير .

وقال لعمرو بن حريث : اما انت فقد جعلناك على الناس فكن ذلك الرجل .

وانصرف فبات ليلته وهو مطمئن ، فلما كان الصبح ، جلس للناس ، فأقبل بلال ، ابن العجوز التي آوت مسلما ، يسأل عن عبد الرحمن ، بن محمد بن الاشعث .

فلما رآه قال له : ان ابن عقيل عندي في الدار .

فاتى عبد الرحمن اباه محمداً فخبره ذلك ، فدخل ابن الاشعث على عبيد الله فقال له : اعرف مكان ابن عقيل ايها الامير . فاشرق جبينه قائلاً : اين هو ؟

— في منزل طوعة ام بلال ، زوجة أسيد الحضرمي .

قال : قم فأتني به الساعة . — ومن يسير معي ؟

فالتفت الى عمرو بن عبيد الله السلمي وقال : خذ يا عمرو سبعين رجلاً من بني قيس واقبضوا على مسلم .

— ونحمله اليك وهو حي ؟ — أجل ، احملوه حيا فلنا ما نقوله له ...

فمشت الرجال ، حتى انتهوا الى دار طوعة ، فلما سمع ابن عقيل الاصوات ، عرف انهم قد فاجأوه ، فعمد الى سيفه ، وفتــح باب الحجرة وكان يقول :

يا انذال الناس ، وكانوا قد ملأوا الدار ، فبدأ يضربهم ضرب بطل مجرب لا رغبة له في الحياة حتى أخرجهم من المنزل وقد دب الذعر في القـــلوب ، ولكنهم استعادوا الروع ورجعوا .

فحمل عليهم فاخرجهم ... فعل ذلك غير مرة وهم لا يستطيعون ان يقبضوا عليه ، حتى ضربه بكير بن حمران على فمه بالسيف فقطع شفته العليا وسقطت بعض ثناياه فسال دمه ، فضربه مسلم على رأسه وثنى باخرى فهرب منه ، فلما رأوا ان الدنو منه صعب ، اشرفوا على سطح المنزل وجعلوا يرمونه بالحجارة ويجعلون النـــار في القصب ويلقونها عليه ، فخرج الى الطريق يقاتلهم وهم يتراجعون .

فقال له محمد بن الاشعث : لك الامان فلا تقتل نفسك .

فغاص بينهم وهو يقول :

اقسمت لا اقتل الا حرا	وان رأيت الموت شيئاً نكرا
او يخلط البارد سخنا مرا	رد شعاع الشمس فاستقرا
كل امرىء يوما يلاقي شرا	اخاف ان اكذب او اغرا

فقال له محمد : لا تكذب ولا تخدع .. ان القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك .. وكانت الجراح قد كثرت في جسمه واحس بالعجز ، فاسنـــد ظهره الى جدار الدار والسيف في يده ، فامنه ابن الاشعث ، وامنه الناس ، الا ابن عبيد الله السلمي فانه قال : لا ناقة لي في هذا ولا جمل . فاستسلم ابن عقيل وانتزعوا سيفه .

فجعل يقول وعيناه تدمعان : هذا اول الغدر .

قال محمد : ارجو ان لا يكون عليك بأس .

قال : وما هو الا الرجاء .. اين أمانكم .. اخذتم سيفي .

ثم بكى كما تبكي المرأة العاجزة .

فقال عمرو بن عبيد الله السلمي : الرجل الذي يطلب مثل الذي تطلب ، لا يبكي ، اذا نزل به مثل الذي نزل بك الآن ..

قال : ما ابكي لنفسي ولكني ابكي لاهلي المنقلبين اليكم . . ابكي للحسين
بنت الرسول وآل الحسين .. ثم التفت الى ابن الاشعث قائلاً : اراك ستعجز
اماني فهل تستطيع ان تبعث من عندك رجلاً يخبر الحسين بحالي وينقل اليه
اماً اقوله له ؟ — ما تريد ان يقول :

يقول : يا حسين ، ارجع باهل بيتك ، ولا يغرك اهل الكوفة ، فانهم
اصحاب ابيك الذين كان يتمنى فراقهم بالموت ...

قال : والله لا فعلن وساكتب الساعة ، وكتب ما املاه مسلم وبعث بالكتاب
ابن علي ، ثم حملوا مسلما الى القصر ، فدخل محمد على ابن زياد ، فقال له هذا :
اذا فعلت ؟

- قبضت على ابن عقيل . — واين هو ؟
- هو في فناء القصر وقد أمنته .

قال : ما انت والإمان .. ما ارسلناك لتؤمنه انما ارسلناك لتأتينا به ...
بان يدخل ، ففعل محمد ثم جلس وهو ساكت .

وكان ابن عقيل قد جلس على باب القصر ، والدم يسيـــل من شفته وفمه ،
وقد احترقت احشاؤه من العطش .

ورأى جرة عند الباب ، فقال : اسقوني من هذا الماء .

فقال له مسلم بن عمرو الباهلي : اتراها ما ابردها والله لا تذوق منها قطرة
حتى تذوق الحميم في نار جهنم !...

فرفع رأسه قائلاً له : من انت ؟

- انا من عرف الحق اذ تركته ، ونصح الامة والامام اذ غششته ، وسمـــع
واطاع اذ عصيته انا مسلم بن عمرو ...

قال : قتلك الله ما اجفاك واغلظ قلبك .. انت يا ابن باهـــلة اولى بالحميم
والخلود في نار جهنم مني . فقام عمارة بن عقبة ، فصب ماء في قدح واعطاه ،

فلما وضع القدح على شفتيه ، امتلأ دما، ففعل ذلك ثلاثاً ، فجعل يقول : لو كان من الرزق المقسوم شربته . ودعي عندئذ الى الدخول ، فلما مثل بين يدي ابن زياد لم يسلم عليه بالامارة .

فقال له احد الحراس : الا تسلم على الامير ؟

قال : ان كان يريد قتلي فما تسليمي عليه وان كان لا يريد ذلك فليكثرن تسليمي ... فقال ابن زياد : انك مقتول يا ابن عقيل .

قال : أتفعلها ؟ — نعم . — اذن اوصي .

— واختار من هؤلاء الناس رجلاً ابوح له بسري : — نعم .

فقال لعمرو بن سعد : ان بيني وبينك قرابة ولي اليك حاجة وهي سر .

قال : اذكرها ولو كانت سراً . — لا استطيع ذلك .

فقال عبيد الله : لا تمتنع يا عمرو من حاجة ابن عمك .

فقام معه الى زاوية من زوايا القاعة ، فقال : ان علي بالكوفة دينا استدنته وانفقته وهو سبعمائة درهم ليس غير فاقضه عني اذا شئت ... — وغير ذلك؟

— وانظر جثتي ، فاستوهبها واجعلها في التراب ... وابعث الى الحسين من يردّه ، قبل وصوله الى الكوفة . — وبقي شيء آخر ؟ — لا .

فقال ابن سعد لابن زياد : اوصاني بان اقضي دينه ..

قال : اما ماله فهو له يصنع به ما يشاء . — وان أواري جثته ..

— انا اذا قتلناه لا نبال ما صنع بها .

— وان نرسل الى الحسين رجلاً يرده ..

— واما الحسين فان لم يردنا لم نرده وان ارادنا لم نكف عنه .

ثم قال له : يا ابن عقيل، اتيت الناس وكلمتهم واحدة ، لتفرق هذه الكلمة

قال : كلا ، ولكن اهل هذا البلد زعموا ان اباك زياداً قتل خيارهم وسفك دماءهم وعمل فيهم اعمال كسرى وقيصر فاتيناهم لنأمر بالعدل وندعو الى حكم الكتاب والسنة ..

— وما انت وذاك ألم يكن يعمل بذلك فيهم اذ انت تشرب الخمر بالمدينة ،

في نهارك وليلك ؟

. انا اشرب الخمر ؟؟ انت تعلم والله يعلم انك غير صادق واني لست كما ذكرت ... — بل تشربها ولا تبالي .

قال : ان احق الناس بشرب الخمر ، من يلغ في دماء المسلمين فيقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب والعداوة وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئاً .. اتعرف من هو هذا .. هو انت .

قال : قتلني الله ان لم اقتلك قتلة لم يقتلها احد في الاسلام .

قال : انك احق من احدث في الاسلام ما ليس فيه .

— تقول هذا ولا تخاف ؟

— وانك لا تدع سوء القتلة وخبث السيرة .. نعم ليس في الاسلام كله احد احق بهذا منك ..

قال : ملعون انت ، وملعون الحسين وعلي ، وعقيل وكل من ينتمي الى بيتك يا فاسق !!.. فحول وجهه عنه ولم يجب .

فجعل ابن زياد يشتم علياً وآله ومسلم لا يقول كلمة ، حتى ضاق صدر الامير ، فقال : احملوه الى سطح القصر لتضرب عنقه .

فقال لابن الاشعث . والله لولا امانك ما استسلمت .. قم بسيفك دوني قد نكثت عهدك ، فظل محمد ساكتاً .

فقال لشبث بن ربعي وكان حاضراً ، ووراءه الربيع : يا ابن ربعي ، ألم تعاهدني على الوفاء للحسين ؟ فلم يتكلم .

قال : وقد بلغت بك النذالة يا خائن انك حاربتني وشهرت سيفك علي مع رجال ابن مرجانة الذي لعنت أباه ؟! فابتسم وكأنه لم يسمع ما قال .

ثم قال مسلم : ماذا تقول للحسين غداً : اتقول له . كنت مع علي ، ثم فارقته ، ثم انضممت اليك ، ثم تركتك وانا لا اعرف لي طبعاً غير الخيانة والغدر .. انك ان لم تقل ذلك قاله هؤلاء ... يا غادر ..

فقال ابن زياد . احملوه الساعة ، فحملوه .

فقال لبكير بن حمران : أأنت الذي قطعت شفة هذا الفاسق ؟

– نعم . – وضربك على رأسك ؟ – نعم .

– وهل تعلمت الآن ان تضرب الاعناق ؟

– سأفصل رأسه عن جسده بضربة واحدة .

– اذن كن جلاده .. اصعد ، واضرب ، وخبرنا ما تصنع ، فحمل المسكين الى سطح القصر وهو يسبح ويستغفر ، واشرف به على السوق .

فقال بكير : ادنُ مني . الحمد لله الذي اقادني منك ، وضربه ضربة لم تغن شيئاً ، فقال مسلم : الا تستطيع ان تخدشني خدشاً وفاء من دمك ايها العبد ؟! فضربه الثانية فبرى عنقه وقذف بجسده الى أسفل .. ثم نزل كأنه لم يفعل شيئاً.

فقال ابن زياد : ما كان يقول وانتم تصعدون به ؟

– كان يسبح ويستغفر وقد قال لي : انك لا تستطيع ان تخدشني وفاء من دمك ايها العبد ..

قال : وفخراً عند الموت ؟ لقد قتل فليفتخر ما شاء .

وكان محمد بن الاشعث قد قال لابن زياد : لقد عرفت منزلة هانيء في الكوفة ايها الامير ، وعرفت مقام بيته ، وقد علمت عشيرته اني سقته اليك فاسألك ان تهبه لي فاني اكره عداوة قومه ..

قال : صبراً فسنهبه لك .

فلما قتل مسلم ، خطر لابن زياد خاطر سوء ، فقال : اين قائد الحرس ؟

فلما جاء قال له : اخرج هانئاً الى السوق واضرب عنقه !!

– على مرأى من الناس ؟

– اجل ، ليعلم اهل الكوفة جميعهم ان ابن زياد لا يمزح ...

فشفع فيه ابن الاشعث وجعل يقول : لقد وعدتني بالعفو عنه ايها الامير .

– وعدناك ثم رأينا ان في بقائه خطراً فخير للكوفة ان يقتل ويقتل بعده رؤساء المتشيعين للحسين .

فحاول ان يتكلم فأمره بالسكوت ثم اومأ الى قائد حرسه بالخروج .

وقبل ان يفعل خطر له خاطر آخر ، فقال : اين غلامنا التركي ؟

فاحضروه ، فقال له : اخرج مع قائد الحرس وكن جلاد هانيء بن عروة واقتله الساعة .. دون ان تصغي الى احد وقال لغلام آخر . اما انت فاحمل الينا رأسه ورأس مسلم ! قال ذلك ، كأنه يخشى ان يخدعه قائد حرسه ، فانصرف الثلاثة فاخذوا هانئاً ومشوا الى السوق ، والناس من انصار الحسين ، وانصار يزيد ، ينظرون الى جثة مسلم ولا يزيدون على قولهم : مسكين ابن عقيل !!.. ورأس القتيل عند جثته وهو مضرج بالدم معفر في التراب .

فلما رأوا هانئاً والغلمان حوله ، وهو يمشي وراء قائد الحرس ، قام في اذهانهم ان الامير عفا عنه ، ولكنهم رأوا السيف في يد الغلام التركي الذي هو اشد وطأة على الكوفيين من سيده ..

فقال احدهم بصوت هادىء : لقد خسر ابن عروة حياته ، كما خسر حياته مسلم ، وتراجعوا وهيبة ابن زياد تملاء النفوس ..

ولو رفع هانيء رأسه ، في تلك اللحظة ، لابصر في آخر القوم رجلا من اخوانه .. هو عمرو بن الحجاج النازل ببيته !! أجل ، كان عمرو ، ينظر مع الناس الى جثة ابن عقيل وليس على وجهه أثر من آثار الألم !!.. ثم جعل ينظر الى هانيء .. الذي يجرونه الى المسلخ .. وهو ساكت مطمئن ، لا يدعو قومه الى انقاذه ، وقد كان قادراً على ذلك ، ولا يهوي بيده الى سيفه .. ولا يرتفع له صوت ...

كأنه لم يره حياته كلها .. وكأن هانئاً صعلوك من صعاليك العرب مجهول المقام مجهول النسب !

ولا نعلم ، أكان عمرو من الجبناء ام من الانذال ... بلى ، كان جبانا .. وقليل الوفاء ... وهذا وفاؤه قد ظهر بمظهره الرائع .. رأى هانئاً داخل نطاق من الشرط والحراس .. ثم رآه يحني رأسه لسيف الجلاد التركي ولم يلبث حتى رأى ذلك الرأس يسقط عن الجسد وهو يشخب دما .. وظل على هدوئه ، لم تطرف له عين ولم يذرف دمعة .

ثم حول وجهه، كما حول شبث بن ربعي وجهه عن مسلم، في مجلس ابن زياد، ومشى الى بيته، بيت هانيء بن عروة نفسه، ذلك القتيل النبيل، الذي عجز قومه واخوانه عن ان يطلبوا بدمه.. وكان في القوم عندئذ، رجل من عشيرة هانيء، يدعى عبد الرحمن بن الحصين، وقد أبصر كل شيء. ورأى الغلام التركي، يمسح سيفه بعد القتل، والخيلاء في بردتيه، فدنا منه وجعل يحدق اليه حتى انطبعت صورته في مخيلته، وجعل يتبعه بعد ذلك من موضع الى آخر حتى قتله، وهو مع ابن زياد، في ناحية من له نواحي العراق.

وحمل الغلام الآخر رأسي القتيلين الى مولاه. فبعث بهما الى يزيد بن معاوية، وخبره بما فعل صاحباهما، فكتب اليه يزيد يشكر له مروءته وحزمه!...

وقد جاء في كتابه: بلغني ان الحسين قد توجه من الحجاز الى العراق، فضع المراصد وسلح النواحي، واحبس على التهمـــة، وخذ على الظنون، ولكن لا تقتل الا من قاتلك واعلم اننا ناظرون اليك.

فأرسل ابن زياد رسله وجواسيسه الى حدود ولايته وأمرهم بان يطيروا اليه، عندما يبلغهم ان الحسين قد جاء، وجعل يطلب الرجال والقواد الذين حملوا السيف، دفاعاً عن مسلم بن عقيل، يوم خرج في الكوفة، وكان فيهم المختار ابن ابي عبيد، وعبد الله بن الحرث بن نوفل، ما عدا من عرفت من اهل الشيعة، فقبض على بعضهم، وفرّ البعض الآخر، لاجئين الى بلاد الله، ريثما ينتهي الحسين الى الكوفة. وكان ذلك في شهر ذي الحجة من السنة الستين

وفي مقتل مسلم وهانيء، يقول عبد الله بن الزبير الاسدي:

فان كنت لا تدرين ما الموت فانظري   الى هانيء في السوق وابن عقيـــل
الى بطل قـــد هشم السيف وجهه   وآخر يهـــوي من طمار قتيـــل

وقيل، ان هذا الشعر قاله الفرزدق.

وأما الذين حاربوا مسلما من المتشيعين، فشبث بن ربعي ورفاق له، وكان شبث يقول للقعقاع بن شور: انتظر بهم الليل لئلا يتفرقوا.

فيقول له القعقاع: انك قد سددت عليهم الوجوه فاخرج لهم...

٣٠

بكى بنو مراد سيدهم هانئاً وغمرت اللوعة كل قلب، ولكنهم كانوا يبكون، وهم داخل الجدر، لا يجسرون على حمل السيف، والطلب بدم القتيل البريء، الذي آثر الموت على تسليم ضيفه، وتهامس الناس قائلين: قتل هانيء بن عروة في ساحة الكوفة. حتى انتهى الخبر الى اهل داره قبل غروب الشمس، فرفعت سلمى صوتها تلعن ابن زياد وتندب زوجها وترثيه – واقبلت خولة وامامة تشاركانها في البكاء – حتى غصت الدار بالرجال والنساء، من جميع الاحياء، ودخل ابن الحجاج في تلك الساعة، وفي عينيه دمعتان كاذبتان... وعلى وجهه مظاهر الالم. فصاحت سلمى تقول: أين هانيء يا أبا امامة؟

والنذل يبكي!.. وكأن اللوعة تمنعه من الكلام!!

ثم قالت خولة: يا عمرو.. في اي شيء استحق فقيدنا القتل؟

قال: في دفاعه عن ابن عقيل الذي كان جاراً له.

قالت: عندما خرج ابن عقيل، كان هانيء بين يدي ابن زياد، لا يقدر على الخروج من قصر الامارة، ولا يستطيع الدفاع..

– ولكنه دافع عنه وهو بين يدي الامير.

فقالت سلمى: قل انه لم يشأ ان يخون جاره ويدفعه الى يد الجلاد.

– هو ذاك.. – واين كنت انت؟

– كنت وراء القصر من الناحية الاخرى مع طائفة من وجوه الناس.

– وكان الجلاد في الساحة يضرب عنق مسلم وعنق زوجي، وانتم لا ترون ان تنقلوا قدما في سبيل انقاذ الاثنين..

– ألم يقل لك الناس اني زحفت الى القصر، على رأس بني مذحج لأنقذ هانئاً منه؟. – بلى، قالوا ذلك، ثم قالوا انك تراجعت..

– فعلت هذا عندما اقبل شريح القاضي يقول ان هانئاً حي ...
– اذن كنت تظن انه قد قتل ...

فاضطرب ثم قال : أجل لقد بلغني ذلك ثم عرفت ان ابن زياد سيخلي سبيله عند المساء ..

فسكتت حتى تفرق القوم ثم قالت : ألم تعاهدوا ابن عقيل على الوفاء له وللحسين ؟

– بلى . – ألستم أهل الشيعة وانصار الامام عليّ ؟

– بلى . – وكيف طاب لكم ان تخذلوا مسلما وتتخلوا عنه ؟!

– لم اترك السيف الا عندما انصرف الناس .

– ولكنك من اشرافهم وهم يسمعون لك ..

قال : رأيت شبث بن ربعي يدعو الناس الى الانصراف ففعلت .

قالت : كانت القوة مع الشيعة ، وقد بايع الحسين ثمانية عشر الفاً من اهل الكوفة فخاف ابن زياد ان يقتحموا عليه القصر ويقتلوه ، فغركم بالوعود ... ثم عندئذ رضي يزيد بن معاوية على رضى الحسين

ثم قالت وهي تغص بالدموع : قولوا انكم نسيتم حسيناً ، وهان عليكم ... اجل وعد كاذب ، ان تروا جثة ابن عمه وجثة زوجي ، غائصتين في الدماء ..

قال : صبراً يا سلمى ولا تستسلمي الى الحزن .

– أجل ان في الصبر فرجا لي ، وستدعو قومك غداً الى قتال ابن ... طالبا بدم هانيء بن عروة قتيل الوفاء .. أليس كذلك ؟

قال : لو قدرت على هذا لما ترددت فيه .

فأيقنت أمامة عندئذ بان أباها من الخونة .. فاخفت وجهها بيديها و... تذرف الدمع وهي ساكنة .

وكانت سلمى تقول : نعم انك لو قدرت على هذا لما ترددت فيه ... بالامس قويا فاصبحت اليوم من اضعف الناس .. وكنت شيعياً فصيرتك ... الامير نصيراً للامويين .. وليمت الحسين وآل الحسين فقد نسيتم الآن كل شيء

قال : لم يخطر لي من قبل اني سأسمع مثل هذا !!

– وأنا لم يخطر لي ، انك انت .. زوج اختي خولة ، وأبو أمامــة ، التي احببتها الحب كله ، تغض طرفك عن هانيء وهو يقاد الى النطع .

– لم أر هانئاً بين يدي الجلاد ...

– بل رأيته ... وقد ضربت عنقه وعيناك تنظران اليه ...

فارتجفت شفتاه قائلا : ومن خبرك ذلك ؟

– الناس الذين شهدوا القتل ، وقد وصفوا لي عظمة هانيء ورباطة جأشه ، عندما حنى رأسه لسيف القاتل .

– لقد كذب هؤلاء يا سلمى فانا لم أرَ ما تقولين ...

– أريد ان اؤمن بانك صادق ولكن هذا القلب لا يرى ما أراه ...

– وتظنين اني من الخونة ؟

– بل اظن انك تخليت عن الحسين وهذا يكفي ...

ومسحت دموعها ثم قالت : بل تخليت عن زوجي وانها لغصة ستنزل معي الى القبر ...

قال : لو عرفت ان ابن زياد أمر بضرب عنقه لدافعت بالسيف .

– اما الآن فقد عرفت انه قتل فدافع ان شئت .

– لم يبق لي الآن سبيل الى الدفاع . – لماذا ؟

– لان هيبة ابن زياد تملاء نفوس القوم !

– ولا يطيعك قومك اذا دعوتهم الى ذلك ؟

– ان قومي لا يحملون السيف الا اذا حمله جميع المتشيعين !..

– وماذا يصنع شبث بن ربعي .

– لقد امسى شبث من صف الامويين !

– واين سليمان بن صرد وحبيب بن مطهر ؟

– قيل لي انهما خرجا من الكوفة فراراً من رجال الشرط وقد يسيران للقاء الحسين في ضواحي الكوفة . – ومسلم بن عوسجة ؟

– اما مسلم فقد استخفى عندما تفرق الناس عن ابن عم الحسين .
– وخرج قومه بنو اسد ؟
– فر بعضهم ، والبعض الآخر في سجن ابن زياد . .
– اذن لم يبق في الكوفة ظل للشيعة . .   – هذا ما يبدو لي .
– وستمسي الكوفة مقراً لاتباع ابن معاوية .   – نعم .
فقالت خولة عندئذ : الا ترى ان نرحل يا عمرو ؟   – الى اين ؟
– الى الحجاز فنلقى الحسين وتنصح له بالعدول عن المجيء .
– اذا خرجت لحق بي جيش ابن زياد .
– ولكن معظم رفاقك قد خرجوا ولم يخافوا ان يلحق بهم هذا الجيش .
– كان ذلك يوم قبض على ابن عقيل .   – واليوم ؟
– اما اليوم فلا نستطيع ذلك لان جواسيس الامير تملأ البلد . .
– وهل طلب هذا الامير ابن عوسجة ؟
– نعم طلبه وامر رجاله بان يقبضوا عليه وعلى ولده اذا رأوهما .
– ولم يأمرهم بالقبض عليك .   – انه لم يفعل كما ترين . . .
– وما هي غايته ؟   – اظن ان ابن ربعي شفع في . . .
فاطرقت المرأة وقد عرفت ان زوجها خان الشيعة .

فقالت سلمى : مسكين هانيء . . يموت ضحية مرؤته وشرفه ولا يطلب احد بدمه . . لقد كنت يا هانيء العزيز على قومك ولكنهم ضيعوك .

فسمعت من الرواق صوتا يقول : ان دم هانيء لا يضيع وأنا حي . .
ودخل فتى في ربيع عمره والكآبة تغمر جبينه .
فقالت سلمى : عبد الرحمن ؟

وكان الفتى ، عبد الرحمن بن الحصين المرادي ، الذي قتل جلاد هانيء بعد ان مر زمن على حادث القتل ، فقال : نعم عبد الرحمن .
– وأين عمك سيد العشيرة ؟
– انه اليوم في الجنة وسيدخل قاتله في النار . .

قالت : أليس في الكوفة رجل مرادي يذكر هانئاً ؟
- بلى ، فيها رجل لا ينساه هو أنا !.   — وماذا تفعل ؟
— اضرب عنق القاتل كما ضرب عنق القتيل البريء .
— وشهدت مقتل هانيء ؟
— اجل وقد انطبعت صورة قاتله في هذا الصدر .
— ومن شهد ذلك من قومك ؟
— لم يكن من رجال العشيرة احد سواي .   — ومن غير العشيرة .
فأومأ الى ابن الحجاج قائلاً : كان أبو امامة في آخر الناس !!..
فتراجع عمرو وهو يقول : أنا ؟...
— نعم انت وقد رأيتك .
— بل رأيت رجلاً آخر فأنا لم آشهد شيئاً .
قال : اني واثق بانك عمرو بن الحجاج ، وانك شهدت مقتل أخيك ...
قال : كذبت ...

— بل انت الكاذب الجبان ، وقد حولت وجهك عن ذلك الشريف الذي تقيم بداره ، عندما رأيت السيف يهوي الى عنقه ...
فتجلد قائلاً : ألم تقل الآن انك رأيت كل شيء ؟   - لم انس ما قلت ..
- وكيف صبرت على ما رأيت ورضيت بان تكون من الجبناء ؟

قال : لست من سادة العرب ورجال القيادة .. اني فتى لم اختبر الزمان ولم تعرفني الميادين ، ولم اكن قط من رجال الرأي في قصر الكوفة .. اما انت نسيد مذحج وقائد من قواد الشيعة ، وابن زياد لا يستخف بقوة قومك فلو خطر لك ان تدافع عن اخيك وتزحف برجالك الى القصر كما فعلت في المرة لأولى لتردد ابن زياد في القتل .

فنظرت خولة الى اختها كأنها تسألها ان تأمر عبد الرحمن بالسكوت، فقالت سلمى : كفى يا عبد الرحمن ..

وكان قد رأى في عيني خولة نظرات الاستعطاف ، فقال : ومع ذلك ففي

الكوفة رجال تشبه ابا امامة، وقد يكون احد هؤلاء الرجال هو الذي رأيت..

فاشرق جبين ابن الحجاج ...

وجعلت سلمى تقول : آمنت الآن بان ابا امامة لم يكن حاضراً وانا ارجو ان لا يضيع دم القتيل ، واستسلمت عندئذ الى البكاء ، وهي لا ترفع رأسها ولا تنظر الى احد ، وخيانة ابن الحجاج اشد وطأة عليها من مقتل ذلك الزوج الوفي ، وكان التظاهر بالحزن واللوعة خير ما يلجأ اليه عمرو في تلك الساعة ! فجعل يبكي كما يبكي القاتل الذي يشيع جثة قتيله !.. ثم احس ان البكاء يمزق احشاءه فخرج الى الرواق ومنه الى السوق الذي يغص بانصار الامويين ، ولم يسمع في ذلك الليل، غير كلمة واحدة ترددها الافواه : ذهبت الشيعة ، وخاب رجاء الحسين .

٣١

– لي كلام أمرني بان انقله اليك ، مسلم بن عوسجة وولده عبد الرحمن ، قالها ابن الحصين المرادي ، وقد خفض صوته .

فقالت سلمى : وأين مسلم ؟

– انه قيد مئة ذراع من هذا المنزل . – في دار رجل من بني أسد ؟

– أجل والرجل شيخ ينزل على بني مذحج . – وما هو كلامه ؟

– يسألك ان لا تبكي هانئاً الا اذا عجز عن ان يثأر به ..

– وكيف يتم له الامر وهو لا يجسر على الظهور ؟

– ينتظر مجيء الحسين ، فاذا قدم الكوفة ، خرج معه الى قتال ابن زياد فهزت رأسها قائلة : نعم سيخرج الحسين الى قتال الطاغية ولكن بدون جيش..

– ان وراءه جيشاً من اهل الحجاز .

- ليس في الحجاز اليوم جيوش تزحف الى الحرب .. ان شيعــة الحسين في الكوفة وقد فرقتها ايدي النوى .

- وهل تظنين ان الرجل الذي يريد ان يسترجع الخلافة يجيء وحده ؟

- بل يجيء على أمل ان يكون له في الكوفة ثمانية عشر الفاً يحملون السيف من أجل خلافته ...

قال : سترجع الشيعة عندما تعلم ان سيدها انتهى الى العراق .

- لو كانت الشيعة كما تظن لاستولت على قصر الامارة وهدمتــه على رأس صاحبه في يوم واحد . - وجود الحسين يقوي العزائم ...

- ووجود شبث بن ربعي وعمرو بن الحجاج وغيرهما يضيع الامل ، أعرف مسلم ان عمراً امسى خصماً للشيعة ؟

- انه يعرف كل شيء ، وقد سأل ولده عبد الرحمن رأيه في الامر فقال له : ليفعل عمرو ما يشاء فأمامة تشفع فيه ..

واطرق قليلاً ثم قال : ولكن الاثنين يخافان ان ينتهي الامر بأبي أمامة الى نسيان وعده .. بل يخافان ان ينكث العهد ، فسكتت سلمى ولم تجب .

فقالت خولة : أعد علينا ما سمعت .

قال : يظن ابن عوسجة ان بين عمرو وشبث عهداً لا يستطيع الاثنان الا ان يبرا فيه . - وهذا العهد يتناول أمامة ؟

- نعم ، ويقول عبد الرحمن ان أباها سيزفها ، وهي مكرهة ، الى الربيـع ، دون ان يكون هنالك من يمنعه من ذلك ..

- وماذا يصنع عبد الرحمن اذا تم الامر كما يقول ؟

- انه لم يبح لي بما في صدره ولكني رأيت العزيمة الثابتــة والغرام الطاهر في عينيه ..

فلم تشأ المرأة الحكيمة العاقلة ان تقول كل شيء ولكنها التفتت الى امامـــة قائلة : ماذا ترين يا بنية ؟

- أرى ان ابن زياد نفسه لا يستطيع ان يزفني الى من لا احب ... بـــل

يستطيع هو ويستطيع ابي ان يضربا عنقي لتكثر ضحايا الوفـاء والشرف في الكوفة .. اني لعبد الرحمن بن مسلم لا لسواه ولا أزيد على هذا ..

فقال الفتى : يخيـــل الي ان اباك عاهد ابن ربعي على الامر الذي تنظرين فيه الآن

– ان ابي يقدر على ان يعاهد من يشاء .

– ولكنه سيطلب اليك غداً ان تتهيأي للزواج ..

– وانا اطلب اليه ان يعدل عما يهم به . – وان لم يرضَ ؟

– انصح له بان يفعل . – واذا لج في الطلب ؟

– اعمد الى خنجر انتزع قلبي به من هذا الصدر ، فلا يجد ابي عندئـــذ غير جثتي الخرساء ... قال : لي كلمة اخرى خطرت لي .

– ما هي . – افترض ان اباك رضي بما تسألينه اياه . – نعم .

– ثم اراد بعد ذلك ان يدعو عبد الرحمن بن مسلم ليكتب عقد الزواج وعبد الرحمن بعيد عن الكوفة ، فماذا يفعل ؟

فنظرت الى امها تستعين بها على الجواب .

فقالت خولة : سيكون عبد الرحمن مع مولانا الحسين .

– اجل يكون مع الحسين وهو لا يعود الىالكوفة الا اذا ظفر مولاه باعدائه واستقام له امر الخلافة . – اذن تحمل امامة اليه ..

– ولكن عمرا لا يرضى بهذا .. اتسألين زوجك وهو على دعوة الامويين ان يسير الى معسكر ابن بنت الرسول ليزف ابنته الى عبد الرحمن ؟ انه لا يفعلها ولو سقطت هذه السماء ..

فحنت رأسها قائلة : اصبت ، والحسين لا يأذن لعبد الرحمن في المجيء .

– وما الرأي ؟

فجاشت عاطفة الغرام في صدر امامة فقالت : الرأي ان ابرّ في الوعـــد واحفظ عهد من أحببت ، فاذا اراد الله ان يجتمع الشمل فقـد بلغنا الغاية والا فالموت خير من هذه الحياة ، التي اكتنفني فيها الشقاء والهم ، وانا في فجر العمر .

– اذن اقول لعبد الرحمن ان امامة هي لك ..

– اجل ، وسأصبر على البعد حتى يضيق مجال الصبر ، وأملى عليها شعورها العالي ، في تلك الساعة ، ان تكف عن ذكر الزواج والغرام . فقالت له .. اذا اراد عبد الرحمن ان يرضي امامة فليطلب بدم هانيء ..

قال : لا اقول هذا لاحد من الناس . – لماذا ؟

– لان الفتى الذي يطلب بدم هانيء ولا يطيق ان يشاركه أحد في الطلب به ، هو انا ! – ولكن عبد الرحمن عون لك .

– اقسمت اني سأقتل ابن زياد ، او الغلام التركي الذي قتل هانئاً ، دون ان استعين باحد ، ولست براجع .

فرفعت سلمى رأسها قائلة : بارك الله فيك يا بني .

– واقسم الآن اني ساحمل العشيرة كلها على ان تحفظ العهد لزوجة هانيء بن عروة ، كما حفظته له ، وهو حي ..

ثم نهض قائلاً : لا تخرجي يا سيدتي من هذا المنزل ، فمالنا كله لك ، ولن ننسي سيد العشيرة الذي قتله طاغية الكوفة .. فعادت الى الاطراق والبكاء ، واقبلت خولة وامامة ، تعالجان لوعتها ، باخبار الشيعة ، وعزيمة الحسين ، وتعللانها بالامل . وقلب امامة يكاد يذوب اسى وغراماً ، ولم يشأ ابن الحصين ان يمكث طويلاً بذلك المنزل ، فقد كان يخاف ان ينقل عمرو بن الحجاج ، ما سمعه منه ، الى ابن زياد ، فيقبض عليه ، وكان همه ان يكون الصلة الطيبة ، بين العاشقين ، وان يعزي ، بجميع وسائل التعزية ، زوجة نسيبه وسيد عشيرته .

ولم يلبث حتى خرج وهو يقول : سأقص الليلة على مسلم ما تحدثنا به .

وقد مثل بعد ساعة ، بين يدي مسلم ، في ذلك المنزل الذي استخفى فيه ، وعبد الرحمن يسأله عن امامة وهو يخبره ما سمع ، ويدعوه الى الصبر والاستسلام الى مشيئة الله عز وجل .

٣٢

تهيأ الحسين للمسير الى الكوفة ، عندما انتهى اليه كتاب مسلم ابن عمه يقول له فيه : لقد بايعك ثمانية عشر الفاً من اهل الكوفة ، وذاع الخبر في مكة ، ثم ردده اهل المدينة ، فأقبـــل عمر ، بن عبد الرحمن ، بن الحرث بن هشام يقول للحسين : اتيتك لحاجة اريد ذكرها نصيحة لك ، فان كنت ترى اني الصادق الامين قلتها وأديت ما عليّ من الحق فيها ، وان ظننت غـــير ذلك كففت عما اريد .

قال : قل فوالله ما اشك فيك .

قال : بلغني انك تريد العراق ، واني مشفق عليك ان تأتي بلداً فيه عمـال يزيد بن معاوية ، وامراؤه ، ومعهم بيوت الاموال ، والنـــاس عبيد الدينار والدرهم ، فلا آمن عليك ان يقاتلك من وعدك ، ومن أنت أحب اليه من يزيد .

قال : جزاك الله خيراً يا ابن العم واني لا اعلم الآن أ آخذ برأيك أو اتركه فليفعل الله ما يشاء .

فلما خرج عمر ، دخل عبد الله بن عباس فقال : خبرني الناس انك سائر الى الكوفة فاذكر لي ما انت صانع .

قال : عولت على المسير في هذين اليومين ان شاء الله .

قال : أتسير الى قوم قتلوا اميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا بني أمية ؟؟ ان كانوا فعلوا ذلك فسر اليهم .. ولكنهم دعوك وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله يجبون المال فهم اذن يدعونك الى الحرب . — ومع ذلك فأنا مسافر .

قال : واذا غروك وخذلوك وكانوا أشد الناس عليك ؟

— استخير الله وانظر ما يكون ...

وأتاه عندئذ ابن الزبير فحدثه ساعة ثم قال : نحن ابناء المهاجرين وولاة هذا

الامر دون بني أمية فماذا ترى ؟

- حدثت نفسي بالرحيل الى الكوفة ، وقد كتبت الى شيعتي واشراف الناس المقيمين بها وانا واثق بالله .

قال : لو كان لي بالكوفة مثل شيعتك لما ترددت في الرحيل .

ثم خاف ان يتهمه فقال: ولكنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الامر هنا، لساعدناك فيه ، وبايعناك ومشينا تحت لوائك الى الابد ..

قال : أما الحجاز فلا رغبة لي في الاقامة به ، من أجل هذه الغاية .

- أقم ان شئت ، واعهد الي في الخلافة ، فتطاع ولا تعصى .

- وهذا امر لا أرغب فيه ، ثم قال : والله لأن أقتل خارجا من مكة بشبر، احب الي من ان اقتل فيها ، ولأن أقتل خارجا منها بشبرين احب الي من ان اقتل خارجا منها بشبر ، وايم الله لو كنت في حجر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا حاجتهم بي ..

فقام الرجل فخرج ، فقال الحسين لمن عنده : ليس في الدنيا شيء أحب الى هذا الرجل من ان اخرج من الحجاز ... لقد علم ان الناس لا ينظرون اليه ، وأنا قريب منه ، فودّ لو خرجت ، حتى يخلو له الجو ... ونام ليلته وهو يفكر في الخروج ، فلما كان الصباح أتاه ابن عباس فقال : يا ابن العم ، أريد ان اعتصم بالصبر فلا أقدر .. اني أخاف عليك الهلاك في هذا الوجه . — الله معي .

قال : أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز ولا تدنُ من العراق فقومه اهل غدر ... — لقد دعوني اليهم .

ان كانوا يريدونك كما زعموا فاكتب اليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ثم سر اليهم بعد ذلك .. قال : الاقامة بالحجاز لا تطيب لي .

إذن سر الى اليمن فان بها حصونا وشعابا وهي ارض عريضة طويلة ولابيك شيعة فيها وانت في عزلة عن الناس فاني ارجو ان يأتيك عندئذ الامر

الذي تحب .

قال : اني والله لأعلم انك مخلص لي ولكني لا ارجع عما هممت به .

– اذا كنت سائراً فلا تسر بنسائك وولدك فاني لخائف ان تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه .

ودمعت عيناه ثم قال : لقد أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجار وهو اليوم لا ينظر اليه احد من الناس . والله الذي لا اله الا هو لو اعلم انك تطيعني اذا أنا اخذت بشعرك حتى يجتمع علينا الناس لفعلت .. ثم انصرف وهو لا يلتفت اليه ، ومر بابن الزبير فقال : قرت عينك يا ابن الزبير ، ثم انشد :

يا لكِ من قـــبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت ان تنقري

هذا الحسين يخرج الى العراق ويترك لك الحجاز ...

وكان الحسين يقول : والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي ، فاذا فعلوا ، سلط الله عليهم من يذلهم حتى يمسوا اذل من العبيد ...

وترك مكة يوم التروية ، فعرضت له رسل عمرو بن سعيد بن العاص ، امير الحجاز ، وعليها يحيى اخو عمرو ، يمنعونه من المسير ، فأبى ان يرجـــع ، ثم تضاربوا بالسياط حتى ظفر بهم ، ومشى مع اصحابه ، والوثوق بالله يملأ نفسه ، ولم يلبث حتى مرّ بمكان رحب ، تحط به الرحال ، فرأى نوقاً قـــد اقبلت من اليمن ، وعليها الحلل ، ونبات يمني يصبغ به ، يقال له الورس ، فقال لرجاله : خذوا هذه النوق ثم قال لاصحابها : من احب منكم ان يمضي معنـــا الى العراق أوفيناه كراءه وأحسنا صحبته ، ومن احب ان يفارقنا الآن اعطيناه نصيبه .

ففارقته طائفة منهم ، وسارت معه طائفة اخرى يكسو افرادها ويعطيهم الكراء ، ويوصي اصحابه بأن يحسنوا اليهم احسانهم الى المخلصين له .

فلما انتهى الى موضع يقال له الصفاح ، لقيه الفرزدق الشاعر فقـــال له اعطاك الله سؤلك يا مولانا ووهب لك ما تحب ..

قال : ما هي اخبار الناس خلفك ؟

فخفض صوته قائلاً : قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني أمية ، والقضاء
ل من السماء .. والله يفعل ما يشاء ...

قال : صدقت لله الامر يفعل ما يشاء . ثم قال : اذا نزل القضاء بما نحب ،
دنا الله على نعمه ، وان حال القضاء دون الرجاء ، فلم يعتد من كان الحق نيته
لتقوى سريرته ، وسار وهو لا يبالي ، فانتهى اليه كتاب من عبد الله بن جعفر ،
مله ابناء محمد وعون وقد جاء فيه : اما بعد فاني مشفق عليك من هذا الوجه
يكون فيه هلاكك وهلاك اهل بيتك .. انك ان هلكت اليوم طفيء نور
رض فانك علم المهتدين ورجاء المؤمنين فلا تعجل في السير فاني في اثر
ابي والسلام .

وكان ابن جعفر ، وهو ابن عم الحسين ، قد طلب الى عمرو بن سعيد ، امير
جاز ، ان يكتب الى الحسين كتابا يجعل له الامان فيه ويعده بالصلة والبر ،
سأله الرجوع الى مكة ، ففعل عمرو ، وبعث بكتابه مع اخيه يحيى ، وعبد
بن جعفر نفسه ، فلحقا به ، ودفعا اليه الكتاب ، ثم بذلا جهدهما كله ليحملاه
الرجوع ، فلم يقبل ، وكان يقول لعبدالله : لقد رأيت رؤيا فيها رسول الله
ﷺ ، وأمرت فيها بامر انا ماض فيه ، عليّ كان هذا الامر ، او لي .

قال : وما هي ؟

ما حدثت بها احداً وما انا محدث بها احداً حتى ألقى ربي ..

فلم يرَ الاثنان بدأ من الرجوع ، ومشى الحسين يتعجل في مسيره وهو لا
ب الخوف .

٣٣

الا تذكر يا أبي ، اني أردت منذ زمن طويل ، ان ابعد ابن عوسجة وولده

عبد الرحمن عن الكوفة ؟ — بلى .

— وتعلم الغاية من ذلك ؟ — اعلم يا بني انك تريد امامة زوجة لك .

— هو ذاك ، وانا اسألك الآن ان تخطبها لي !

— ولكني فعلت ذلك من قبل ولم ترد الفتاة ان تكون زوجا لها .

— اما اليوم فسترضى وليس لها عذر .. ان مسلماً وولده تركا العراق كما ترى وهما لا يجسران على الرجوع اليه .. — بل يعودان مع الحسين .

فقال الربيع : لا يستطيع الحسين ان يدخل الكوفة وابن زياد حي ، والمال في يده ، والناس يخافونه ويسمعون له .

قال : سيكون جيش الحسين اكثر عدداً من جيش الكوفة .

— لا تنس ان وراء ابن زياد ، جيوش يزيد امير المؤمنين .

قال : يصعب عليّ يا بني ان اخطب امامة مرة ثانية . — لماذا ؟

— لاني اخشى ان يردني ابن الحجاج كما ردني بالامس ..

— ان ابن الحجاج خصم لمسلم ، وهو لا يطيق ، ان تكون له بعد اليوم ، صلة مع المتشيعين .

— ولكن ابن الحجاج شيء ، وامامة شيء آخر ، هو اليوم خصم مسلم وخصم الحسين ، وهي العاشقة التي برح بها الغرام وفتنها عبد الرحمن .

— سينصح لها ابوها بترك هذا الغرام ، وقد ترضى .

قال : اذا نصحت لك انا بترك امامة ، فهل تفعل ؟

— أما أنا فلا أترك امامة ولو قتلت .. اتعلم لماذا ؟ اني لست من العشاق كما تظن . ولكن هذه الكلمة التي قلتها منذ بضعة اعوام ، يجب ان تتم ، ويجب ان تمسي الفتاة زوجة لي . — ومتى ترى ان احدث عمراً بالامر ؟

— في هذا المساء . — هنا ام في منزل هانيء بن عروة ؟

فتردد قليلاً ثم قال : في ذلك المنزل ، على مسمع من أهله .

قال : لقد نسينا نحن الاثنين مقتل هانيء .. أيليق بي ، وانا ابن ربعي ، ان أخاطب خولة بشأن الخطبة ، واختها سلمى تبكي زوجها وترثيه ؟

– اذن نبعث اليه من يدعوه .

فنادى غلامه قائلا : قل لابن الحجاج اني بحاجة اليه واحذر ان يسمعك احد.

واقبل عمرو بعد ساعة فقال شبث : أتؤثر عبد الرحمن بن مسلم على الربيع ام مـاذا ؟

قال : يظهر ان القضية قضية زواج . – نعم .

– ولكني لا استطيع ان احدثك بها الآن .

قال : ليس في المنزل غيرنا نحن الثلاثة .

– اني لا أخاف الناس ، ولكن اذا وعدتك بان أزف امامة الى الربيع ، فخولة لا ترضى ، وقد قتل زوج اختها منذ أيام .

قال : عدني بذلك وعليّ الباقي .

– لا اعدك بشيء لان الرأي رأي الفتاة .

فقال الربيع : ان الفتاة تحب عبد الرحمن على أمل الزواج اليس كذلك ؟

– بلى . – واين هو عبد الرحمن اليوم ؟

– لا اعلم . – اما انا فأعلم انه لحق بالحسين .

– ليذهب الى حيث يشاء فانا لا ابالي .. ومع ذلك فاذا لحق بالحسين اليوم فسيعود غداً . – نعم يعود ولكن الى حيث ينتظره الموت .

– تريد ان تقول ان ابن زياد سيأمر بضرب عنقه ؟ – وعنق ابيه .

– لا اريد ان يكون لي في هذا رأي .

– بل يكون لك رأي في الخطبة .. اني أطلب امامة .

– تطلبها من امها اذا شئت ! – ماذا تقول ؟

– اقول اني لا استطيع ان احدث خولة بالامر اليوم ، كما اني لا اريد ان اكره امامة على الاقتران بفتى لا تحبه .

– ولكن تقول لها ان رجاءها الاول قد خاب ، وهي لن ترى عبد الرحمن بعد اليوم .. – وهذا أمر لا أفعله .

– أذن فأنت لا تريد ان أكون صهراً لك !

فابتسم ابتسامة الالم قائلاً : يا شبث، تطلب الي ان أتخلى عن مسلم بن عقيل، وهانيء بن عروة فأفعل ، ثم تطلب أن اترك الشيعة وأنضم الى صفوف الاموية فافعل ، أفتسألني الآن ان أطعن ابنتي بيدي ، وهي بهجـة حياتي ، ولؤلؤة العراق ؟ — وكيف ذلك .

— ألم يسألني الربيع الآن ، أن اقول لامامة ، ان رجاءها قد خاب ؟. ان هذه الكلمة وحدها تقتل الفتاة ، والموت.. نعم ان الموت خير لي من ان أقولها

قال : أرجو ان تسألها سؤالاً آخر .

— ما هو ؟

— هو أن تقول لها ان عبد الرحمن قد استخفى فماذا ترين ؟

— وتريد ان تسمع جوابها ؟ — نعم .

— اذن فاعلم انها ستقول : سأحفظ عهد عبد الرحمن الى الابد .

— وانت واثق بهذا ؟

— كما أثق بانني سأخسرها اذا أنا خنقت هواها الذي تتقد ناره في صدرها منذ أعوام ..

فالتفت الى ولده قائلاً : اذن فاخنق انت غرامك ولا تحدث به أحداً فقد ثبت لك الآن ان امامة ليست لك .

فقال عمرو : بل يصبر فقد يجيء الفرج بعد الصبر .

قال : ما رأيت وجهاً للفرج الذي تعنيه .. قل من اين يجيء .

- لا استطيع الآن ان اقول شيئاً لاني لا اعلم ، ولا تعلم انت ، اي حال ينتهي اليها الحسين ، في حربه مع ابن زياد ...

فعرف شبث ، ان فكرة رهيبة خطرت لابن الحجاج في تلك الساعة ، هي ان الحسين سيقتل ، ويقتل رجاله الواحد بعد الآخر فلا يبقى هنالك فتى يطلب امامة غير الربيع .. فقال له : اصبت فالله وحده يعلم الغيب والربيع صابر أسمعت يا بني ؟

— اجل ولكني واثق بان الغاية التي لم ابلغها اليوم لا ابلغها غداً ، وامامة

لعبد الرحمن وحده ، مات ام بقي ..

قال : كل شيء في هذه الدنيا يتغير يا بني .

— نعم ، الا هذا الغرام الذي لا تغيره الحادثات .

ووضع رأسه بين يديه وغاص في لجة التفكير .

فقال ابوه : اعدك يا ابا امامة بان الربيع لا يسألك عن ابنتك الا بعد ان ينتهي امر الحسين فنهض قائلاً : وانا اعدك بانني لا اتردد في حمل امامة على الرضى بولدك ، اذا رأيت سبيلاً الى ذلك .

وانصرف وهو يقول في نفسه : اما الآن فلا اقتل ابنتي كما قتلت الشيعة ..

وكان الربيع يقول : قتلني الله ان لم اقتل عبد الرحمن ...

٣٤

ارسل الحسين ، عبد الله بن بقطر ، اخاه في الرضاع ، الى مسلم بن عقيل ينقل اليه خبر مجيئه .

ثم انتهى الحسين ، الى موضع يقال له الحاجر فأرسل قيس بن مسهر الى اهل الكوفة ، يدعوهم الى تنظيم الصفوف .

وكان عبيد الله بن زياد ، امير الكوفة ، قد بلغه خبر مسير الحسين من مكة ، ومعه طائفة من الرجال .

فدعا وجوه أصحابه ، بينهم الحصين بن نمير التميمي صاحب شرطته فقال لهم : ان الحسين بن علي آت فما رأيكم ؟

فجعل كل واحد منهم يبدي رأياً وهو يصغي الى ما يقولون ولكنه لم يستحسن هذا الاراء .

فقال : يا ابن نمير ، انك صاحب الشرط في الكوفة ، وقد عهدنا اليك في قضاء

حاجة لنا فهل تفعل ؟

– افعل ما يطيب لك أيها الامير . – ولكن المهمة أصعب مما تظن .

– ليس أصعب من القتال الذي يكتنفه الخطر ، وأنا راض ..

قال : تقود الرجال الى القادسية ، ثم تمتد الخيل صفاً واحداً الى خفان ، ثم الى القطقطانة ، حتى تنتهي الى جبل لعلع . – ثم ماذا ؟

– ثم تأمر الناس بان يقبضوا على كل رجل قادم الى الكوفة وتبعث به الي فأرى رأيي فيه .. – واذا قدم الحسين ؟

– اذا قدم الحسين فساحفظ طريق الكوفة واحذر ان تطـأه قدماه ، ثم سايره بجيشك حتى ترى أي موضع يختار لنزوله . – وعندئذ ؟

– يصل اليك عندئذ أمري فتصنع ما آمرك به .

والتفت الى الناس قائلاً : أما انتم فقد علمتم جميعكم رغبتنا ورغبة أمير المؤمنين فيما يعني الحسين بن علي ، فكونوا على حذر ولا ترددوا في الطاعة .

وكان في القوم ، شبث بن ربعي وعمرو بن الحجاج ، فأراد الامير ان يلمس اخلاصها بيديه ، فقال : يا ابن ربعي ، لقد وثقنا باخلاصك كما ترى ، وطلبنا رجال الشيعة واحداً واحداً الا انت وابن الحجاج اتذكر ذلك ؟

– أذكره أيها الامير . – ولم تنس عطفنا عليك وعلى من معك ؟

– لم انس شيئاً . – اذن فانت خاضع مطيع .

– ومستعد لقتال الحسين مع قومك اذا قضت الحاجة بهذا ؟

– أضع سيفي وسيوف قومي في الموضـع الذي تشير به .

– وانت ياابن الحجاج ؟

– اقول ما يقوله شبث بن ربعي وافعل ما يفعل .

– وتريد ان يكون الامير راضياً عنك ؟

– هذا ما اطمع فيه ولا رغبة لي في شيء آخر .

قال : نسألك ان تزف امامة الى الربيع بن شبث . فذعر قائلاً : اليوم ؟

– نعم اليوم ، قبل ان تخرج الى لقاء الحسين .

قال : يطلب الي الامير امراً أنا عاجز عن قضائه .

– وكيف ذلك ، أليست أمامة مطيعة لك ؟

– بلى ، ولكنها وحيدة بيتي ، وقد احبت فتى لا يستطيع القـــدر ، وان جار ان يصرفها عنه ..

– انك تعني عبد الرحمن بن مسلم وهـــذا من انصار الحســين .

– نعم ايها الامير ، انه من انصار الحسين وعندما خطب امامة كنت مثله ، وكنا جميعنا في صف واحد .. – والآن ؟

– اما الآن فقد مضى ما مضى ، ولست قادراً على انتزاع الغرام من صـدر الفتاة الا اذا ساعدني الزمان .. قال : يظهر انك لا تحب ان تترك شيعتك ..

– لو كانت غايتي ما ذكرت لما ترددت في الخروج من الكوفـة مع طوائف المتشيعين الذين خرجوا منها . اني أريد ما تريده ايهـــا الامير ، ولكن الحب يعرض لي والذنب في ذلك ذنبي لا ذنب الفتاة ..

قال : خبرنا الربيع كل شيء وهو مخلص لنا وقد وعدناه .

– وأنا احبه ، وارغب في ان تكون امامة له ولكن لا حيلة لي في ذلك كما ترى ، ثم قال لشبث : ألم تقل لي ان ولدك لا يسألني عن أمامة الا بعد ان ينتهي أمر الحسين ؟

– بلى واني لم انس ما قلت . – ولماذا لم تخبر الامير ؟

– لانه لم يخطر لي ان الامير يصغي الى مثل هذا ولم يقم في الذهن ان الربيع قص عليه حكاية غرامه ..

فقال ابن زياد : يكفي ان اعلم ان ابن الحجاج يؤثر الربيع على عبد الرحمن ، ولو كان الامر في يده لزف امامة اليه .

– نعم يا مولاي اني اؤثر الفتى الذي ذكرت وارجو ان يكون القدر عوناً لي وله ، على بلوغ الغاية .

– ونحن نرجو ان ينتهي امر الحسين الى ما نحب فيتم للربيع الامر ، ثم قال : تهيأ الآن للخروج مع الحصين صاحب الشرط .

– الى القادسية ؟ – الى المكان الذي يطيب له أن يلقى الحسين فيه .

فقال شبث : لقد تهيأنا لذلك منذ ايام !! متى يخرج الحسين ؟

– بعد يومين وسنوصيه بان يعلم الحسين الاخلاص للخليفة كما نوصيكما بذلك الآن . ان الذي يطيعنا له جزاؤه ، ومن تحدثه النفس بالخيانة ، يموت ، وخرج الى ساحة القصر يعرض شرطته وجنده ويأمرهم بالطاعة على مرأى ومسمع من طوائف الناس ، ولم يمر يومان ، حتى مشى الجند الى القادسية ، وفيه شبث بن ربعي ، وعمرو بن الحجاج ، وكانت أمامة تقول لامها : هذا ابي الذي كان شيعياً يخرج اليوم الى قتال مولاه .. اللهم انصر الحسين واصحاب الحسين ..

٣٥

كان زهير بن القين البجلي قد حجّ ، وكان عثمانيـــا ، وهو يرى ما يراه بنو أمية انصار معاوية ويزيد . فلما عاد ، لقي الحسين في الطريق ، فجعـــل يماشيه ولكنه لا ينزل معه ولا يطيب له ان يدنو منه ، فرأى الحسين ان يدعوه ، فأتاه وهو يكره ذلك ، ثم جعلا يتحدثان حتى جن الليل ، فلما عاد القين قال لاصحابه من أحب منكم ان يتبعني فليفعل .

قالوا : الى أين ؟

– الى هذا الرجل الزاحف الى الكوفة حامـــلا حقه بيده ، وسأحدثكم حديثاً مرت عليه الاعوام ، وقد ذكرته الآن .

وجلس وهو يقول : خرجنا في يوم من أيام الفتح فأصبنا غنائم ففرحنـــا ، وكان معنا سلمان الفارسي فقال لنا : اذا ادركتم سيد شباب أهل محمد فكونوا اشد فرحا بقتالكم معه مما أصبتم اليوم من النعم ، قال ذلك وسكت قليلاً ثم دعا زوجته فقال لها لقد طلقتك فالحقي بأهلك فاني لا أريد ان يسبيك احـد ، ثم

قال لرجاله : اما انا فاستودعكم الله .. ولزم الحسين من تلك الساعة لا يبـــالي بسواه، وكان عبد الله بن بقطر ، اخو الحسين في الرضاع ، قد انتهى الى القادسية ، وهو لا يعلم ان فيها جيش ابن زياد . فقبضوا عليه ، وحمـــلوه الى مجلس الحصين بن نمير .

فقال له : من انت ؟

فقام احد اصحاب الحصين فقـــال : هذا هو اخو الحسين بن علي .. هذا عبدالله بن بقطر وقد رأيته في الحجاز . فقال : انت عبد الله ؟

– انا هو ! – تريد الكوفة ؟

فكره الرجل ، وهو صاحب الخلق الطاهر ان يكذب . فقال – نعم .

– وتحمل رسالة من مولاك ؟

– امرني مولاي بان انقل كلاما الى ابن عمه مسلم بن عقيل .

فلم يقل له صاحب الشرط ان مسلما قد قتل ، بل قال : اين تركت الحسين ؟

– في الطريق . – ومعه جيش ؟ – معه طائفة من اصحابه .

فقال : احملوه الى امير الكوفة واعيدوا عليه ما سمعتم .

فحملوه الى ابن زياد وخبروه بأمره ، فأمر به فاحضروه ، فقال له : رسول الحسين واخوه في الرضاع ؟ اصعـــد اذن فوق القصر والعن مولاك الكذاب ابن الكذاب ثم انزل حتى ارى رأيي فيك .

فصعد وهو لا يقول كلمة حتى انتهى الى السطح فقال : ايها الناس ، لقد جاء الحسين واني العن ابن زياد واباه ..

وبلغ الامير ذلك ، فقـــال : اقذفوا به الى اسفل ، فالقوه من القصر فتكسرت عظامه وبقي فيه رمق ، فاقبل رجل يقال له عبد الملك بن عمير من بني لخم ، فذبحه وكان يقول : اردت ان انقذه من آلامه .. وقبل ان يبلغ خبر قتله ، الحصين بن نمير ، وصل الى القادسية رسول الحسين الآخر ، قيس بن مسهر « الصيداوي » .

فأخذته خيل الحصين ، ثم ارسل الى ابن زياد ، ومعه رسالة مولاه الى اهل

الكوفة فأمره ابن زياد بان يلعن الكذاب ابن الكذاب ...

فصعد قيس فحمد الله ثم قال : هذا الحسين بن علي خير خلق الله ابن فاطمة بنت رسول الله انا رسوله اليكم وقد فارقته « بالحاجر » فاجيبوه ، ثم جعل يلعن زياداً وابن زياد ويستغفر لعلي .

فامر به عبيد الله فرمي من أعلى القصر فتقطع فمات .

والحسين يسير نحو الكوفة ، حتى انتهى الى ماء من مياه العرب ، عليه عبد الله بن مطيع .

فقام اليه فقال : بأبي انت وامي يا ابن رسول الله ما اقدمك ؟

فخبره الحسين خبره ، فقال : اذكرك الله وحرمة الاسلام ، واستحلفك بحرمة قريش وحرمة العرب ان ترجع فوالله لئن طلبت ما في ايدي بني امية لكان جزاؤك القتل ، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك احداً ابداً فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرض نفسك لاعدائك ..

فابى الا ان يمضي ، فلما انتهى الى موضع يقال له التعلبية ، اتاه خبر قتل مسلم بن عقيل ، ثم خبر مقتل اخيه في الرضاعة ، ثم مقتل قيس .

فقال له بعض اصحابه : نسألك يا مولانا ان ترجع من مكانك هذا فليس لك بالكوفة ناصر وليس لك شيعة ، ونحن نخاف ان يكونوا عليك .

فوثب بنو عقيل فقالوا : والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا او نذوق ما ذاقه مسلم . فقال : لا خير في العيش بعد هؤلاء .

ثم قال البعض الآخر : انك لست مثل مسلم بن عقيل ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك اسرع ..

ثم ارتحلوا فانتهوا الى « زبالة » ، وكانوا لا يمرون بماء الا اتبعه من عليه ، وتحدث القوم ، في زبالة ، بمقتل رسله الثلاثة .

فدعا رجاله فقال : لقد خذلتنا الشيعة ، فمن أحب ان ينصرف فلينصرف ليس عليه منا ذمام ونحن لا نطلب من أحد شيئاً . فتفرق الناس يميناً وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من مكة لم يبق سواهم ، وانما فعل ذلك،

لانه علم ان الاعراب الذين اتبعوه ، وهو في طريقه ، كانوا يظنون انه سيأتي بلداً قد استقامت له طاعة اهله ، فأراد ان يعلموا امرهم قبــــل ان يندموا على مـــا مضى .

ثم سار حتى نزل بطن العقبة . فلقيه رجل من العرب فقال : أرجو أن تنصرف يا مولانا فوالله ما تقدم الا على الاسنة وحد السيوف .. ان هؤلاء الذين بعثوا اليك لو كانوا كفوك مؤونة القتـــال لكان ذلك رأيا . ولكن تذهب الى الكوفة على هذه الحال التي نعلم فلا أرى أن تفعل .

قال : لا يخفى عليّ ما ذكرت ، ولكن الله عز وجل لا يغلب على أمره ... امشوا أيها الناس ، وهكذا كان الناس يسألونه الرجوع عن الكوفة .. عن البلد الذي خان أهله أباه وأخاه ، وهو لا يرجع ، ويد القدر الجائر تدفعه من الوراء .

٣٦

طلع الصباح والحسين يهم بالمسير ، فقيل له : لقد أقبـــل مسلم بن عوسجة وولده عبد الرحمن ومعهما ناس من بني أسد .

فقال : سيقول لنا مسلم ان رجاءنا قد خاب .. أين هو ؟

فجاء مسلم وابنه ، وجعلا يقبلان رداءه وركبتيه والدموع تجول في عيني ذلك الاسدي ، الكبير بوفائه وعظمة نفسه .

ثم قال مسلم : لقد التقينا أخيراً يا مولانا فالحمد لله .

قال : لم يخطر لنا ان أمر مسلم ابن عمنا سينتهي الى القتل .. ان عبيد الله ابن زياد يشبه أباه في قسوته وجفائه .. كيف استطـاع أن يقبض على مسلم وهو ضيف على الشيعة وواحد منها ؟

قال : أتريد ان تعلم كل شيء ؟

– أجل ، فالرجل الذي تصيبه السهام كل يوم لا يبالي بما يسمع .

قال : لو كان رسولك غير مسلم لقتل ابن زياد واستولى على الكوفة بقوة السيف في نهار وليل .

– أما القتل فلا يعمد اليه آل علي الا اذا كان دفاعاً .

– وهل كان مسلم قادراً على ما ذكرت ؟

– نعم ، فقد كان ابن زياد جالساً عند فراش شريك بن الاعور ، في منزل هانيء بن عروة ، وكان ابن عمك في المنزل نفسه ، في حجرة اخرى يسمع منها صوت عدوك ، وكانوا قد دعوه الى الخروج اليه بالسيف ولكنه لم يفعل ، ثم حكى له الحكاية كما جرت ، فاطرق ملياً ثم قال : وكيف حدث القتل ؟

– دعا ابن زياد هانئاً الى القصر ، فهشم انفه وخديه بقضيب كان في يده ، وذاع في الكوفة عندئذ خبر قائل ان هانئاً قد قتل .

– فخرج ابن عمنا عندئذ يطلب بدمه ؟

– أجل يا مولانا ، خرج من ذلك المنزل الذي اختبأ فيه ، فرأى الالوف من الرجال يحملون السيوف ويهتفون باسمك وأبصر الرغبة في قتال ابن زياد بادية في العيون ... – فتقدمهم الى القصر ؟

– بل دفعهم اليه ولجأ هو الى المسجد . – وبعد ذلك ؟

– عمد ابن زياد بعد ذلك الى دهائه يهدد ويعد ، ويقسو ويلين ، حتى تفرق الناس وأوى كل واحد منهم الى بيته .

– ولم يبق احد حول مسلم ، من هذه الالوف التي ذكرت ؟

– بقيت أنا وابني هذا .. ثم رأينا رجال الشرط تتبين وجوه الناس ، فانصرف ابن عمك وانصرفنا نحن نتلمس مكاناً نستخفي فيه ولكن احدهم فضح امر مسلم فأخذ فقتل..

فتمتم قائلاً : رحمه الله ورحم عبد الله بن بقطر وقيس بن مسهر رسولينا الاخرين ، خبّرنا الآن اخبار الشيعة ..

فحنى رأسه وجعل يقول : لقد كان في الكوفة شيعة يا مولانا !..

– واليوم ؟ – أما اليوم فلم يبق فيها ظل لمن ذكرت !
قال : ماذا تقول يا أبا عبد الرحمن ؟..
– أقول انك لا تجد في الكوفة رجلاً من شيعتك .
– اي ان الظلم والخوف فرّقا رجال علي !.
– لم يفرقهم الخوف وحده . – وماذا اذن ؟ – فرقتهم الخيانة !!
فغمرت الكآبة وجه الحسين وجعل يقول : لقد اصاب الذين قالوا ان الكوفة خذلت علياً والحسن وستخذل الحسين .. أجل سمعنا هذا ولكننا لم نصغ اليه .. وهذا هو الواقع لمسناه الآن باليدين .. من هم الخونة ؟
– أذكر لك يا مولانا اسماء بعض الرؤساء .
– هات . قال : أول هؤلاء شبث بن ربعي ..
فهز رأسه قائلاً : شبث بن ربعي . هذا رجل العجائب في اخلاقه ، واول عبد من عبيد القوي .. ثم من ؟ – عمرو بن الحجاج الزبيدي .
– هذا احد الذين تخلوا عن الحسن فليس من الغريب ان يتخلى عن اخيه ..
ثم قال : عمرو بن الحجاج ؟ أبو امامة ؟؟...
– نعم يا مولانا . – والفتاة ؟
– اما الفتاة فعلى العهد . – ومن قال لك ذلك ؟
– عبد الرحمن بن الحصين المرادي الذي يطلب بدم هانيء بن عروة .
فقال : ألم ترها انت يا عبد الرحمن ؟
– بلى ، رأيتها قبل ان اجيء . – ولم تخف رجال الشرطة ؟
– كنت مع ابن الحصين ولم ابال . – وسمعت منها ما تحب ؟
– اجل ، سمعت يمين الاخلاص ، ورأيت مظاهر الوفاء وهي مع امها وخالتها يناصرن مولانا الحسين ويلعنّ ابن زياد . – ولكن الزواج .
– لا نجد اليوم سبيلاً اليه ، فهانيء قد قتل ، وزوجته سلمى لا تكف عن البكاء .. والنار ستشتعل في الكوفة .
قال : نراك صابراً على جور الزمان وهذا ما نريده .

– لقد عودني هذا الزمان الصبر واني مسلم امري الى الله .

– واين ابن الحصين ؟

فقال مسلم : هو هنا يا مولانا وقد اعددته لامر . – اذكره لنا .

– يقوم في الذهن ان الحرب ستدور رحاها بينك وبين ابن زياد .

– ايفعلها الطاغية ؟

– يفعل كل شيء ولا يسأل . – واذا دارت رحاها ؟

– ارسل ابن الحصين الى سلمى ارملة هانيء بن عروة ، يسألها باسمي واسمك، ان تستعين باختها على حمل بني الحجاج على الرجوع عن نصرة بني امية والانضمام اليك مع قومه ... – ولكن ابن الحجاج لا يصغي الى زوجته وهو الخائن ..

– اما نحن فلا نكف عن الرجاء والاستعطاف حتى يستقيم لنا الامر ونظفر باعدائك الذين هم اعداء الله .

قال : ينصح لنا بعضهم بالرجوع الى الحجاز ، ومن رأي الآخرين ان نسير الى الامام فماذا ترى انت ؟ – اني من انصارك الامناء الذين ليس لهم رأي .

قال : لقد استعنا بالله فلا نرجع .. – وانا وراءك الى الظفر او الموت ..

– وانت يا عبد الرحمن ؟

– الموت خير من هذه الحياة التي تضيع فيها الآمال ..

فقال في نفسه : لقد صيرت الحادثات هذا الفتى العاشق رجلاً .. ثم قال : الى الامام ، ووقف بباب خيمته وهو يرددها والناس يتسابقون الى اعداد عدة الرحيل ، وليس على الوجوه اثر من آثار الخوف .

وكان آل علي ، صغارهم وكبارهم يقولون : الى الامام ..

وكان ذلك في اليوم الاخير من السنة الستين .

٣٧

انتقل الحسين ومن معه من « الحاجر » الى « شراف » ثم خرجوا منها عند بزوغ الفجر يريدون الكوفة .. فلما انتصف النهار ، كبر رجل من أصحاب الحسين ، فقال له : لماذا كبرت ؟

قال : رأيت النخل في آخر الافق ..

فقال رجلان من بني اسد : ليس في هذه الارض نخلة ..

قال : فما هو اذن ؟ قالا : هذه طلائع الخيل ..

– وانا ايضاً ارى ذلك ، ثم قال لمن حوله : أليس لنا ملجأ نجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد ؟

قالوا : بلى ، هذا ذو حسم الى جنبك تميل اليه عن يسارك فان سبقت القوم اليه فقد بلغت ما تريد ، وذو حسم ، جبل عال فى ذلك السهل ، فنادى : الى الجبل يا اصحابي .

فمالوا اليه ، وطلعت خيل ابن زياد، من الناحية الاخرى ، تريد الجبل نفسه، ولكن الحسين سبق القوم اليه ، ونزل ، فلما اقبلوا ، رأى الحسين الف فارس ، على رأسهم الحر بن يزيد التميمي ، أرسله الحصين بن نمير من القادسية يستقبل الحسين .

ثم رآهم ينزلون بالقرب منه ، فقال لاصحابه : اسقوا قومنا ورشفوا الخيل ترشيفا ، ففعلوا ، والحر ينظر اليهم ولا يقول كلمة ، حتى حضرت صلاة الظهر ، فأمر الحسين مؤذنه بالاذان ، فأذن .

ثم خرج الحسين الى جيش الكوفة ، فقال : ايها الناس ، انها معذرة الى الله

واليكم ، اني لم أجيء حتى اتتني كتبكم ورسلكم يقولون لي : « اقدم الينا فليس لنا امام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى ، وقد جئت الآن ، فان تعطوني ما أطمئن اليه من عهودكم أدخل الكوفة ، وان لم تفعلوا انصرفت عنكم الى المكان الذي أقبلت منه ، فلم يجيبوه .

فقال : من هو قائدكم ؟ فبرز الحر فقال : انا الحر بن يزيد .

قال : أتريد ان تصلي باصحابك ؟ — بل صل انت ونصلي بصلاتك .

فصلى بهم ، ثم دخل واجتمع اليه اصحابه ، فلما كان العصر صـلى بهم ثم استقبلهم بوجهه فحمد الله واثنى عليه ثم رفع صوته قائلاً : اما بعد فاتقوا الله واعرفوا الحق لاهله فذلك أرضى لله .. نحن اهل البيت أولى بولاية هذا الامر ، من هؤلاء المدعين ما ليس لهم ، السائرين فيكم بالجور والعدوان فان انتم جهلتم حقنا ، وكان رأيكم غير ما اتتني به كتبكم ورسلكم انصرفت عنكم الساعة ، قبل ان تغرب الشمس .

فقال الحر : والله ما ندري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر .

فأخذ كتبه فنشرها بين ايديهم .

فقال : لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك .. وقد امُرت ، اذا انا لقيتـك ، ان لا افارقك حتى تقدم الكوفة ، وتمثل بين يدي عبيد الله بن زياد الذي ملأ البلد جيشاً يريد حربك .

قال : الموت أدنى اليك من ذلك ، ونظر الى اصحابه فقـال : اركبوا ولننصرف ..

فقال الحر : أمنعكم من ذلك . قال : ثكلتك امك ما تريد ؟

قال : اما والله لو غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر امه بالثكل كائناً من كان ، ولكني والله ما لي الى ذكر امك من سبيل الا بأحسن ما يقدر عليه ..

— قل ما تريد . — قلت اني اريد ان انطلق بك الى ابن زياد .

— اذن والله لا اتبعك . — اذن والله لا أدعك .

— بل انصرف عندما أشاء فانا سيد نفسي وليس لك امر .

قال : اني لم اؤمر بقتالك، وانما امرت ان لا افارقك حتى تنتهي الى الكوفة
ن شئت فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة ولا تردك الى المدينة حتى اكتب الى
زياد وتكتب انت اليه أو الى يزيد بن معاوية .

فسار الحسين عن يسار القادسية . والحر يماشيه ولا يغفل عنه ،
ى ضاق صدره رضي الله عنه ، فقال : يا اهل الكوفة ، ان رسول الله
ل الله عليه وسلم قال : من رأى سلطانا جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهده ،
الفاً لسنة رسوله ، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان لا يغير ما عليه ، بفعل
قول كان حقاً على الله ان يدخله مدخله .. الا وان هؤلاء قد لزموا طاعة
يطان وتركوا طاعة الرحمن ، واظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، وأحلوا
رام وحرموا الحلال وأنا احق من غيري ، وقد أتتني كتبكم ورسلكم بالبيعة
كم لا تسلموني ولا تخذلوني ، فان اقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم .. أنا
سين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله ، نفسي مع نفسكم ، واهلي مع اهلكم ،
ن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي فما هي بالمرة الاولى فقد فعلتموها بابي
خي وابن عمي مسلم بن عقيل وسيغني الله عنكم والسلام

فقال الحر : اذكرك الله .. واني اشهد لئن قاتلت لتقتلن .

- أتخوفني بالموت يا ابن يزيد ؟ والله ما ادري ما أقول لك .. بلى اقول كما
ل أخو الاوسي لابن عمه وهو يريد نصرة الرسول .. قال له اين تذهب فانك
تول فقال :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى   اذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما
وواسى رجالا صالحين بنفسه   وخالف مثبوراً ورافق مجرما
فان عشت لم اندم وان مت لم ألم   كفى بك ذلا ان تعيش وترغما

فلما سمع الحر ذلك ، تنحى عنه ، ولكنه كان يسير غير بعيد وعيناه تنظران
ه بحذر ويقظة ، فلما انتهوا الى « عذيب الهجانات » رأوا اربعة رجال على
راسهم ، قد اقبلوا من الكوفة ، ومعهم دليلهم الطرماح بن عدي ، والطرماح
بني طيء ، فتصدى لهم الطرماح قائلاً : انكم من أهل الكوفة وسأردكم .

فقال الحسين : لأمنعهم مما امنع منه نفسي . انهم من انصاري وهم بمنزلة م
جاء معي فان فعلت ناجزتك .

فكف عنهم ، فدعاهم الحسين فقال : خبروني خبر الناس خلفكم .

فقال له مجمع بن عبيد الله العامري : أما اشراف الناس فقد اعطوهم المال
الكثير وملأوا غرائرهم فهم رأي واحد عليك ، وأما سائر الناس بعدهم فقلوبهم
معك وسيوفهم غداً مشهورة عليك .

قال : نسألكم عن قيس بن مسهر كيف قتلوه .

فقصوا عليه خبر قتله وعيناه تذرفان الدموع .

ثم قال الطرماح : والله ما ارى معك كثيراً من الناس ، ولو قاتلك هؤلاء
الذين أراهم حولك لظفروا بك .. ان في ظهر الكوفة من الناس ما لم تر عيناي
جمعاً في مكان واحد اكثر منه قط ، وانهم جميعهم زاحفون اليك ، فاسألك بالله
ان قدرت على ان لا تخطو اليهم خطوة فافعل ، وان أردت ان تنزل بلداً يمنعك
الله به حتى ترى رأيك ويستبين لك ما انت صانع فسر حتى انزلك جبلنا فهو
والله جبل امتنعنا به من ملوك غسان وحمير والنعمان بن المنذر ومن الاحمر
والابيض ثم تبعث الى الرجال من طيء فوالله لا يأتي عليك عشرة ايام حتى
يأتوك رجالا وركبانا فان هاجك شيء فوراءك عشرون الف طائي يضربون
بسيوفهم بين يديك .

قال : جزاك الله وقومك خيراً ، انه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول
لسنا نقدر معه على الانصراف ، فودعه قائلاً : احمل هذه المؤونة الى اهلي ثم أعود .

وسار الحسين حتى بلغ قصر بني مقاتل ، فرأى فسطاطا مضروبا فقال
لمن هذا ؟ فقيل : لعبيد الله بن الحر الجعفي . قال : ادعوه لي .

فلما اتاه الرسول يدعوه قال : انا لله وانا اليه راجعون ، والله ما خرجت من
الكوفة الا لاني اكره ان يدخلها الحسين وانا فيها . والله ما اريد ان اراه ولا
يراني ، فعاد الرسول فخبر مولاه ، فاتاه الحسين فسلم عليه ودعاه الى نصره ،
فاعاد عليه قوله ، فقال : ان لم تنصرني فاتق الله ان تكون ممن يقاتلني .

قال : اما هذا فلا يكون ابداً ان شاء الله .

فقام الحسين فخرج الى رحله ، ثم سار ليلاً ساعة ، فدب النعاس في عينيه ، م خفق برأسه خفقة ثم انتبه وهو يقول : الحمد لله رب العالمين ، فاقبل اليه ابنه علي فقال : يا ابت جعلت فداك .. ماذا تقول ؟

قال : يا بني ، خفقت خفقة فعن لي فارس على فرس ، فقال : القوم يسيرون المنايا تسير اليهم .. فعلمت ان انفسنا نعيت لنا .

قال : لا اراك الله سوءاً يا أبتي ألسنا على الحق . — بلى .

— اذن لا نبالي ان نموت .

فلما اصبح ، نزل فصلى على عجل ثم ركب فجعل ينحي اصحابه يريد ان نرقهم ، فاتى الحر فرده ، ومكثوا على ذلك بضع ساعات ، يردهم رداً شديداً نو الكوفة ، فيمتنعون عليه ، حتى انتهوا الى كربلاء ، فلما نزلوا ، رأوا اكبا مقبلاً من الكوفة ، فوقفوا ينتظرونه حتى اقبل .

فسلم على الحر ولم يسلم على الحسين ، ثم دفع الى الحر كتابا من ابن زياد جاء يه : اما بعد فاذا اتاك كتابي فاستوقف الحسين ، ولا تنزله الا بالعراء ، في غير حصن ، وعلى غير ماء ، وقد امرت رسولي ان يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني نفاذك امري والسلام .

فلما قرأه قال للحسين : هذا كتاب الامير يأمرني ان انزلكم في المكان الذي أتيني فيه كتابه ، وقد امر رسوله بان لا يفارقني حتى انفذ رأيه ، ثم قال رجاله : يجب ان ينزل هؤلاء على غير ماء .

فقال اصحاب الحسين : دعنا ننزل في نينوى .

قال : لا استطيع فهذا الرجل قد بعث عينا علي .

فقال زهير بن القين للحسين : يا ابن رسول الله ، انه لا يكون بعد ما ترون لا ما هو اشد منه ، وان قتال هؤلاء الآن ، اهون علينا من قتال من يجيء بعدهم.

قال : لا اريد ان اكون البادىء .

— اذن سر بنا الى هذا البلد فانه بلد حصين وهو على شاطىء الفرات .

قال : ما اسمه ؟ — العقر .

قال : اللهم اني اعوذ بك من العقر ثم نزل ، وكان نزوله يوم الخميس الثاني من شهر محرم ، في السنة الحادية والستين .

٣٨

كان عبيد الله بن زياد ، قد ولى عمر بن سعد بن ابي وقاص ، حرب طوائف من الديلم ، خرجت عن الطاعة ، وكتب له عهداً على الري ، وجعل جنده اربعة آلاف ، فخرج عمر بجيشه ، الى مكان يقال له حمام اعين .

فلما كان من امر الحسين ما كان ، دعا ابن زياد عمراً وقال له رأينا ان تسير الى الحسين ، فاذا فرغنا مما بيننا وبينه سرت الى عملك ، فان الحسين قبل كل شيء ...

فاستعفاه قائلاً : ارجو ان تختار سواي .

قال : نفعل ، على ان ترد العهد الذي كتبناه لك .

فاطرق ثم قال : امهلني اليوم فانظر في الامر ، واستشار اصحابه فنهوه .

ثم اتاه حمزة ، بن المغيرة بن شعبة ، وهو ابن اخته فقال : استحلفك بالله يا خال ان لا تسير الى الحسين ، فتأثم وتقطع رحمك ، فوالله لئن تخرج من دنياك ولو كان لك المال والسلطان ، خير من ان تلقى الله بدم الحسين بن علي . . قال : سأفعل ، وبات ليلته مفكراً في امره ثم سمعوه يقول :

أأترك ملك الري والري رغبة ام ارجع مذموماً بقتل حسين
وفي قتله النار الذي ليس دونها حجاب وملك الري قوة عين ؟

ثم اتى ابن زياد عند الصباح فقال له : انك قد وليتني الري وقد عرف الناس ذلك ، فان رأيت ان تبقى على عهدك فانا طائع .

— ومن نرسل الى الحسين ؟

– عندك من اشراف الكوفة من هو أبعد صوتاً وأعز مقامـــاً مني وانت تعرف قواد الحرب .. وجعل يسمي له الرجال .

فقال : لم يخطر لي ان اشاورك فيمن ارسله الى الرجل ، وانما هي كلمة قلناها لك استخفافا برأيك ، ثم قال والغضب في عينيه : اختر واحداً من امرين ، اما ان تسير بجندنا الى المكان الذي نريد ان تسير اليه ، واما ان تبعث الينا بالعهد .

فرأى عمر انه سيضيع مقامه ويخسر ثقة الامير ، فقال : اني سائر .

– في هذا اليوم ؟.. فحنى رأسه قائلاً : بل في هذه الساعة ..

قال : اذهب وخذ من تشاء من الرجال .

قال : ان جيشي اربعة آلاف .. – خذهم جميعاً .

فسار من يومه ، حتى نزل المكان الذي نزله الحسين ، بعـد ان مر يوم واحد على نزوله .

ثم ارسل الى الحسين رسولا يقول له : ما الذي جاء بك ؟

قال : كتب الي اهـــل الكوفة يسألونني المجيء ، وانا حافظ ما كتبوه ، ولكني عرفت الآن انهم لا يريدون ذلك فانا انصرف .

وكان شبث بن ربعي وعمرو بن الحجاج ، في جيش ابن سعد ... وقد اقبلا مع قومهما يقاتلان سيدهما بالامس .

فقال لهما عمر : ما الرأي ؟

فقال شبث : الرأي ان تفعل ما اوصاك الامير به .

– انه لم يوصني بشيء ولكنه امرني بان اكتب اليه .

– وماذا تكتب ؟ – انقل اليه جواب الحسين كما انتهى الي .

فقال ابن الحجاج : خير لك ان تتعجل في امرك ..

– ليس لي أمر اتعجل فيه ولكني اكتب، ودعا بعبد له فاعطاه كتابه ، فلما قرأه ابن زياد قال :

والآن قـــد علقت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص

ثم كتب الى عمر يأمره بان يعرض على الحسين بيعة يزيد ، وقـــد جاء في

كتابه : اذا فعل ذلك رأينا رأينا فيه ... وعليك ان تمنعه وتمنع اصحابه الماء دون ان تتردد في ذلك !.

فقال عمر : من يمنع الحسين الماء ؟

فقال ابن الحجاج : انا !!

قال : خذ خمسمائة من الرجال وانزلوا على الماء وامنعوه ، ففعل ما أمره به ، وعين الحسين تنظر الى عمرو بن الحجاج ، وهناك عينان تتقد فيهما النار كانتا تنظران اليه هما عينا مسلم بن عوسجة ، فتى الوفاء ، وكان مسلم يقول لولده عبد الرحمن : انظر ، هذا هو الشيعي الصادق الذي لا يخون مولاه .

وخطر له عندئذ ، ذلك الخاطر الذي ذكره للحسين يوم لقيه في « الحاجر » فقال لابنه : تهيأ للمسير الى الكوفة . - بدون اذن الحسين ؟

- لا نصنع شيئاً بدون اذنه .. ابن عبد الرحمن المرادي ؟

- هو هنا وقد رأيته الساعة .

- اذن فاصبر حتى ننظر في أمر هؤلاء الانذال الذين يريدون ان يحولوا بيننا وبين الماء ، وكان رجل ، من اهل الكوفة ، يقال له عبد الله بن ابي الحصين ، ينادي : يا حسين .. أما تنظر الى الماء .. انك لا تذوق منه قطرة واحدة حتى تموت عطشاً !..

فسمعه الحسين فقال : اللهم اقتله عطشا ولا تغفر له ابداً .

« ويقول ابن الاثير : ان هذا الرجل اصيب بمرض ، فيما بعد ، فكان يشرب الماء الكثير ثم يقيء ، ثم يعود فيشرب ، ثم يقيء ، ثم يشرب فما يروى حتى مات » .

فلما اشتد العطش على القوم ، قال الحسين : الماء الماء ..

فقال ابن عوسجة : ليذهب معي من يشاء .

قال : اين اخي العباس ؟

فأقبل العباس بن علي ، فقال له : سر في عشرين رجلاً يحملون القرب ، وثلاثين فارساً ينحون عنهم الناس ، واعلم ان اصحابنا جميعهم ينظرون اليك ..

وقال لمسلم : اركب فرسك يا ابا عبد الرحمن ، وكن عونا للعباس .

فمشوا حتى دنوا من الماء ، ودون الماء ، السيوف والحراب ، ولكن اليأس صير رجال الحسين اسوداً تقتحم الاسنة ، فما هي غير ساعة ، حتى ملأوا القرب ، على رغم عمرو بن الحجاج وجيشه ، وعادوا الى سيدهم وهم يبسمون له .

ثم قال الحسين لعمرو بن كعب الانصاري : اذهب وقل لعمر بن سعد ، قائد الكوفيين ، اني اريد ان أراه الليلة ، في هذا المكان ، وأشار الى موضع بين الجيشين.

فذهب الرجل ، ولم يلبث ذلك القائد حتى أقبل .

فجعل الاثنان يتحادثان . ثم انصرف كل واحد منهما الى خيمته ..

وتحدث الناس فقالوا : ان الحسين قال لعمر بن سعد : اخرج معي الى يزيد ابن معاوية وندع الجيشين .

فقال عمر : اخشى ان تهدم داري . قال : أبني لك داراً خيراً منها ..

قال : وتؤخذ ضياعي . — اعطيك خيراً منها من مالي بالحجاز .

وتحدث الناس ايضاً فقالوا : ان الحسين قال له : اختاروا مني واحدة من ثلاث ... اما ان ارجع الى المكان الذي أقبلت منه ، واما ان اضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى فيّ رأيه ، واما ان تسيروا بي الى أي ثغر من ثغور المسلمين فأكون رجلاً من اهله ، لي ما لهم وعليّ ما عليهم .

وروي عن عقبة بن سمعان انه قال : صحبت الحسين من المدينة الى مكة ، ومن مكة الى العراق لم افارقه حتى قتل ، وسمعت جميع اقواله للناس فوالله لم يقل انه يضع يده في يد يزيد ولا طلب ان يسيروه الى ثغر من ثغور المسلمين ، ولكنه قال : دعوني ارجع الى المكان الذي اقبلت منه ، او دعوني اذهب في هذه الارض الواسعة حتى ننظر الى ما يصير اليه امر الناس ، ثم اجتمع الحسين وعمر بن سعد ، بعد ذلك .

فكتب عمر الى ابن زياد : اما بعد فقد اعطاني الحسين ان يرجع الى المكان الذي جاء منه ، او ان نسيره الى اي ثغر من ثغور المسلمين شئنا ، او ان يأتي يزيد امير المؤمنين فيضع يده في يده ، وفي هذا لكم رضا وللامة صلاح .

فلما قرأ ابن زياد الكتاب ، قال لرجاله : هذا كتاب رجل ناصح لاميره ، مشفق على قومه ، نعم قد قبلت ..

فقام شمر بن ذي الجوشن فقال : اتقبل هذا منه ، وقد نزل بارضك ، والى جنبك ، والله لئن رحل عن بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ، ولتكونن أولى بالضعف والعجز .. ولكن لينزل على حكمك هو واصحابه فان عاقبت كنت أولى بالعقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك .

وسكت قليلاً ثم قال : والله لقد بلغني ان الحسين وعمر يتحدثان عامة الليل بين الجيشين ، ولا يعلم ما يقولان ..

فقال عبيد الله : نعم ما رأيت . وأمر غلامه فكتب الى ابن سعد كتاباً ، ثم قال لشمر : اخرج انت بهذا الكتاب الى عمر فقد أمرته بان يعرض على الحسين واصحابه النزول على حكمي ، فان فعلوا فليبعث بهم الى جبل طيء وان ابوا فليقاتلهم . — وماذا اصنع بعد ذلك ؟

— اذا فعل عمر ما كتبته اليه فاسمع له وأطع ، وان أبى ، فانت الامير عليه وعلى الناس ، واضرب عنقه وابعث اليّ برأسه !!..

وهذا ما جاء في كتابه : لم ابعث بك الى الحسين لتكف عنه ، أو لتمنيه او لتكون عندي له شافعاً .. انظر ، فان نزل الحسين واصحابه على الحكم فابعث بهم اليّ سلما ، وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم لذلك مستحقون .. فاذا قتل الحسين فأوطيء الخيل صدره وظهره فانه عاق ظلوم ، وان انت صنعت هذا ، جازيناك جزاء السامع المطيع والا فاعتزل جندنا وخل بين شمر وبين الجيش والسلام .

فحمل شمر الكتاب وهو يظن ان الارض دانت له . وكان يبغض الحسين بغضاً لا تنطبق الصدور على مثله ، وكان عبد الله بن حزام ، عند ابن زياد في تلك الساعة ، وعمته ام البنين ، احدى زوجات عليّ ، وقد ولدت له العباس وعبدالله وجعفراً وعثمان ، فقال لابن زياد : اذا رأيت ايها الامير ان تكتب اماناً لبني اختنا فافعل . فكتب لهم ذلك الامان ، وبعث به ابن حزام ، مع مولى من

مواليه . فلما رأوه قالوا : لا حاجة لنا الى امانكم ، ان امان الله خير من امان ابن سمية .

وقد انتهى في اليوم نفسه ، ذلك الكتاب الذي يحمله شمر ، الى عمر بن سعد، فلما قرأه قال لحامله : قبح الله ما جئت به ، والله اني لاظن ، انك انت الذي حملت الامير على رد ما كتبته اليه ، وانت الذي افسدت علينا امراً كنا نرجو ان يصلحه الله .. ثم قال : والله لا يستسلم الحسين ابداً وان نفس ابيه لبين جنبيه ...

فقال شمر : ما انت صانع ؟

قال : سأتولى ذلك فهذا ما اراده ابن زياد ، وكان ذلك ، مساء اليوم التاسع من شهر محرم ، والحسين ينتظر الجواب ، وهو لا يستطيع ان يغادر مكانه ...

٣٩

ألم ترَ ابن الحجاج في جيش عمر بن سعد ؟

قالها مسلم بن عوسجة للحسين ، فقال : بلى رأيته وهو الذي اراد ان يحول بيننا وبين الماء ، كما اني رأيت ذلك الوفي شبث بن ربعي .

قال: لقد جاء الآن دور بن الحصين المرادي ..

– ذلك الذي يريد ان يطلب بدم هانيء ؟ – نعم .

قال : لقد نسيت ما خبرتنا به ، فماذا تريد منه ؟

– اريد ان اجعله رسولا الى زوجة ابن الحجاج في الكوفة .

– لقد ذكرت الآن .. وهل تظن انها تستطيع ان تحمل زوجها على ترك ابن زياد ، بعد ان ظهر ما ظهر منه ؟ – من يعلم يا مولانا فقد تستطيع ذلك .

فابتسم قائلا : قلت لي من قبل ان خولة وسلمى تناصران الشيعة .

– واقول ذلك الآن .

– اذن فاعلم ان خولة نهت زوجها عن المجيء مع عمر بن سعد ، ولكنه لم يسمع لها ، وهي لو قدرت على ذلك لما حمل ابن الحجاج السيف ، في ظـــل ابن زياد .. – سأوصي ابن الحصين بان يقول لها كلاما تبلغ به الغاية .

– اذكر لي هـــذا الكلام ..

– ادع ابن الحصين ان شئت فاوصيه وانت حاضر .

– وهل يسير الى الكوفة وحده ؟ – بل يسير معه ابني عبد الرحمن .

قال : يا مسلم ، ترسل عبد الرحمن الى الكوفة وابن زياد فيهـا ؟ انك اذن ترسله الى الموت !..

– بل انقذه من الموت يا مولانا . – وكيف ذلك ؟

– اظن ان عمر بن سعد سيبدأ بالقتال ، عندما يرد عليـــه جواب سيده الطاغية ، امير الكوفة . – واذا فعل ؟

– تشتعل النار عندئذ ، فنخوض ، نحن رجالك المجال ، ولا نرجع ، حتى نظفر بعدوك ، او نموت ...

واشرق جبينه وجعل يقول : ولكننا سنموت يا ابن رسول الله فهذا العدد القليل الذي يحميك ، لا يستطيع ان يثبت في وجه الالوف التي تحيط بعمر بن سعد .

قال : ان الموت يا ابا عبد الرحمن خير من العار .

– نعم يا مولانا وسنموت جميعنا فداء عنك .. ولكن ..

– ولكن ماذا ؟ – لي كلمة لا اعلم كيف اقولها لك .

– قل ولا تخف فانا سامع .. – اريد ان اموت ويبقى عبد الرحمن ..

– سأنهاه عن حمل السيف ، وآمره بان يحرس آل علي عند الخيام .

– ولكنه لا يفعل ، وستراه عندما تغير الخيـــل ، يركب فرسه ويقتحم الصفوف دون ان يبالي بامرك ..

ودمعت عيناه ثم قال : واني لا اطيق ان اظن ان عبد الرحمن سيموت ..

– ومن يضمن لك حياته وهو في الكوفة ؟

– لا خوف عليه وهو في الكوفة ، فالربيع بن شبث في هذا الجيش ، وليس هنالك من يسعى به ... ولا تظن يا مولانا ان حياتــه ، في نظري ، أغلى من حياتك ، ان الارض كلها لا تساوي قلامة من ظفرك ... ولكني اكره ان يموت في ساحة الوغى ، ونار الغرام تتقد في صدره ، وهو بعيد عن امامة ... اجل ، اريد ان يبقى فقد يساعده الزمان ، بعد موت ابيه ، في بلوغ غايته، وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء ..

– ليذهب الآن .. ولكن اذا كنت ترى ان القتال سيبدأ ، فليس من الرأي ان تستعين بخولة على الامر الذي ذكرت ...

قال : ستطول ايام الحرب يا مولانا ، وقد يجيء رسول المرأة قبــل ان نتراجع ، فيعتزل ابن الحجاج جيش ابن زياد ، وهذا ما نرغب فيــه ... اقول هذا وانا خاضع لما تأمرني به .

فقال : يا غلام ، عليّ بابن الحصين المرادي وعبد الرحمن بن مسلم .

فدعاهما فاقبلا . فقال لهما : يخطر لابي عبد الرحمن ان يرسلكما الى الكوفة .

فقال المرادي : اما انا فأسير الى آخر هذا الشرق .

– ولكن عبد الرحمن لا تطيب له الاقامة بالكوفة لان فيها اعداءه ، وهو لا يحب ان يرى هؤلاء الاعداء ...

قال : ان في الكوفة من تعلم يا مولانا ، واني لاحبها ولا اوثر عليها بلداً من بلدان الله ، غير البلد الذي ينزله الحسين بن علي .

قال : الحياة في الكوفة ، والموت في البقاء مع الحسين .

– ليس الناس خيراً من ابن بنت رسول الله ..

قال : اسأل الله ان يحقن الدماء .. أوصيها يا ابا عبد الرحمن .

فقال مسلم : يا ابن الحصين ، ان ابن الحجاج من رجال هذا الجيش ونريــد أن يعــتزله .

قال : فهمت الغاية من قولك . انك تريد ان تدعوه زوجته الى الكوفــة لسبب لا وجود له ...

فضحك قائلاً : لم يبق ما اقوله لك فقد فهمت كل شيء .. ولكن هل تظن انك قادر على هذا ؟

– اعتقد ان خولة ستفعل ما نشير عليها به .

– ومن يخلق السبب الذي ستدعو زوجها من اجله ؟ – انا .

– وسيساعدك عبد الرحمن . – واذا تم لنا هذا الامر فماذا نصنع ؟

– تبقيان في الكوفة ريثما ينتهي اليكما أمر آخر .

فقال عبد الرحمن بن مسلم : أأبقى ، وأنت هنا ، والعدو يهدد مولانا الحسين ويمنعه من الرجوع الى المكان الذي خرج منه ؟

– سيكون لك في الكوفة شأن فأفعل ما آمرك به ، ولا تعرض لمولانا الذي يرغب في بقائك .

فقال للحسين : ما هي الغاية من الاقامة بالكوفة ؟

– لا نذكر لك غايتنا من ذلك ولكن نرجو أن تسمع لابيك .

قال : سمعت فأطعت. فقال ابوه : ولكن احذر ابن زياد ورجال الشرط.

فقال المرادي : سترى اننا أكثر دهاء من هؤلاء .

– وقولا لخولة أن تختار رسولها من بني زبيد ، وليكن من رجـال الرأي الذين جاوزوا سن الكهولة . – وهل بقي شيء ؟

– بقي الرجاء بان يجمع الله الشمل .

ونهض فضم ولده الى صدره وهو يقول : سر يا بني على بركات الله ، واختنق صوته .. فخرج من الخيمة ، كأنه كان يخشى أن تهي عزيمته ، ويستولي عليـه الضعف ، فودع الفتيان الحسين ، ثم انصرفا ، وعبد الرحمن بن مسلم يحس بالالم يغمر نفسه وهو لا يعلم أي شيء هو .

٤٠

هذه هي الكوفة .. ان الرهبة تمد رواقها فوقها ، والذعر ينشر جناحيه .. والناس في الكوفة ، من صبيهم الى شيخهم ، يتحدثون بأمر الحسين ، ويعجبون لجرأة ابن زياد على قتاله وهو ابن بنت الرسول، وقد يقول بعضهم للبعض الآخر الويــل لهذه الامة اذا قتلت حسينا . ولكنهم يقولون ذلك همسا ، ولا يجسر احدهم على ان يذكر الحسين، على مسمع من الناس ! اجل ، كانوا يحبون ابن علي، ويعلمون من هو ، ولو استطعت ان تتبين ما في قلوبهم لرأيت هذه القلوب معه ، ورأيت السيوف في الوقت نفسه ، مع اميرهم الطاغية البطاش ، ذلـــك ما قاله الفرزدق للحسين ، ولم يكذب : اللهم انصر ابن علي ...

هذه كلمة يقولها الرجل منهم ، عندما يخلو الى نفسه ثم يدعوه ابن زياد الى اللحاق بعمر بن سعد ليحارب ابن علي !!. فيحمل سلاحه ويخرج الى حربه دون ان يتردد في الامر !.. انه ابلغ مظهر من مظاهر العجز والضعف ..

والكوفة هادئة ، لا يرتفع فيها صوت ، ولا تسمع في اسواقهـا شكوى ، وقد كانت بالامس القريب، مقراً لرجال السياسة والتفكير في العراق .. وكانت سلمى وخولة ، حزينتين مضطربتين ولم يكن بينهما وبين اليأس غـير ذراع ... الهم يملأ نفسيهما ، والكآبة تغمر القلبين ، قتل هانيء ، وخرج عمرو بن الحجاج على الشيعة ، وزحفت جيوش ابن زياد الى قتال الحسين .. وقد تسقط الدماء غداً على الارض .. فيتلاشى الامل ، ويخيب الرجاء ، وانك لا تستطيع ان تصف حال امامة العاشقة المنكودة الحظ ، التي رأت ، وهي في زهرة العمر ، جميع ألوان الخيبة والشقاء . أحبت عبد الرحمن ، فحمل القدر الجائر سهامـه يرسلها السهم وراء الآخر، وهذه كفه الجانية ملطخة بالدماء . ولكنها استعانت بالصبر كما رأيت ، وعمدت الى وسائل الدفاع ترد بها كيد القدر وجور الزمان ،

على ان هذا الزمان لم يلن ، ولم يرَ ذلك القدر القاسي الا ان يمعن في الجفـــاء.

مسكينة .. استسلمت الى الاحلام فاضمحلت ، وعللت نفسها بالامل فسقط أملها تحت الاقدام، وهذه يد الدهر العبث بالاحلام والمنى، تمتد اليها من جديد، لتخنق هواها الذي تعيش من أجله ، وتسلبها عبد الرحمن ، تحول الحادثات بينها وبينه من قبل ، يدفعها ابوها نفسه بيديه .. ثم يمسي السيف اليوم ، رسولا بين ابيها وأبيه ، وقد ينقشع غبار الحرب، عن جثث مهشمـــة هي جثث الحسين وأصحابه ، بينها جثة الحبيب ! فلهفي عليك يا امامة ، ولهفي على هذا الغرام يمحوه القضاء، وتخمد السياسة والحرب ناره ، بيدين حديديتين لا ترحمان العشاق.

وكانت تقول لامها كل يوم : هذا جناه أبي علي وهذا ما يريده الله عز وجل وتبكي كل يوم حتى يجف الدمع وكانت خولة تقول الصبر يا بنية فقـــد يجيء الفرج من عند الله. ثم تنصرف الى مخدعها ، لتبكي حظ ابنتها الذي يفطر القلوب.

٤١

من الطارق ؟

فخفض ابن الحصين المرادي صوته قائلاً : عبد الرحمن وابن الحصين ، افتحي يا خوصة ، وخوصة جارية من جواري هانيء بن عروة ، فمشت الى الرواق تقول لسلمى : ابن الحصين بالباب .

فقالت النساء الثلاث بصوت واحد : افتحي .

واضطربت امامة اضطرابا شديداً ، وقد حدثها القلب بأنها سترى وجه عبد الرحمن ، في ذلك الليل ، ودخل الفتيان ، والابتسامة على شفتي العاشق ، والهوى ، بروعته ، ولمعانه ، وقوته ، مطل من عينيه . وكان سلام .. وكان بكاء .. ثم هدأت الثورة ، فقالت خولة لابن مسلم : ألست مع أبيـــك ، من

اصحاب الحسين ؟

– بلى .   – بلغنا ان الحسين في كربلاء فهل كنت فيها ؟

– نعم .   – وكيف تركت مولانا وهو بحاجة الى الرجال ؟

– فعلت ذلك بامره .. أتستغربين يا سيدتي وجودي ، في مثل هذه الساعة ، في منزل الرجل الذي نبكيه .

– اجل . واني لالوم اباك ولا اجسر على ان الوم الحسين .   – لماذا ؟

– لانهما اذنا لك في المجيء ، وابوك يعلم ، ان ابن زياد ، لا يطيق ان يرى له ولك ظلاً في الكوفة .   – لا يقدر ابن زياد على ان يرى هذا الظل .

– بل يستطيع ذلك فرجال الشرط في كل حي ، وعند كل منزل من منازل رجال الشيعة ..

– لقد كان ذلك من قبل ، ان الشيعة قد ذهبت ، ومعظم اهل الكوفة مع عمر ابن سعد ، وابو امامة بينهم .   فتمتمت قائلة : نعم انه مع القوم ..

– وكيف خرج الى قتال الحسين وقد كان من انصاره ؟

– الى قتال الحسين ؟!. ومن يجسر على ان يقاتل ابن فاطمة بنت الرسول ، وهو سيد المسلمين ؟

قال : اما سيد المسلمين فهو يزيد بن معاوية الذي يقال له امير المؤمنين .. واما الذي يجسر على قتال الحسين فهو عبيد الله بن زياد .. قولي يا سيدتي اي شيء دعا ابا امامة الى ذلك ..

– انه لم يخرج الى القتال كما تظن ، ولكن ابن زياد دعاه الى اللحاق بالقوم ففعل ، وهو يرجو ان ينتهي الامر الى الصلح .

فابتسم قائلاً : اتريدين ان اقول لك ما أعلم ؟

– اجل ولا تنس شيئاً .

– اذن فاعلمي ان عمراً نفسه ، جعل قومه على الماء ليمنعنا اياه !!

– زوجي؟! – نعم.. وقد أمره بهذا عمر بن سعد. – وماذا صنعتم؟
– ملأنا القرب والسيوف في الايدي، ونحن بين مخالب الموت..
فقالت امامة: لقد كان ابي البادي بالقتال فلا حول ولا قوة الا بالله..
فأومأت اليها امها بان تسكت ثم قالت: وانتهى الامر عند هذا الحد؟
– لا، بل رأى الحسين ان يدعو ابن سعد اليه، ثم اتفقنا على ان يكتب هذا الاخير الى ابن زياد، يسأله ان يأذن لمولانا في الرجوع الى المكان الذي اقبل منه.
– وارسل ابن زياد جوابه؟
– لا نعلم. – ولماذا اتيتما الكوفة؟
– لنسألك باسم ابي مسلم بن عوسجة قضاء حاجة له.
– ما هي؟ – هي ان تحملي عمراً على ترك ابن سعد..
قالت: لقد فكرت في هذا عندما خبرتني حكاية الماء ولكني لا اعلم كيف احمله على الرجوع.
فقال ابن الحصين: انا اعلم. قالت: هات.
– تكتبين اليه كتاباً، يحمله شيخ من شيوخ مذحج، وفي الكتاب هذه الكلمات: احضر فان امامة في خطر..
قالت: الخطر في كتابة الكلمات التي ذكرت. – وكيف ذلك؟
– يجيء عمرو فلا يجد خطراً بل يجد عافية.
– ولكنك تقولين له عندئذ ان الخطر قد زال. قالت: لا اجسر على هذا.
فقالت امامة: سأقول لابي عندما يجيء، اني أصبت باغماء لا اعلم سببه وقد شفاني الله منه. – اما انا فاخشى ان يعلم انا خدعناه.
– ليس فينا من يبوح بالسر. قالت: يا عبد الرحمن، ما هي غاية أبيك.
– له غايتان، احداهما انه لا يريد ان يحارب الرجال الذين كانوا بالامس اخوانا له، وغايته الاخرى ان ينحّي الناس عن جيش عمر بن سعد.
فاطرقت قليلاً ثم قالت: افعل ذلك في سبيل مولانا الحسين وليفعل الله ما يشاء، ثم قالت: من يعرف شيخا من شيوخ مذحج له همة الفتيان؟

فقال ابن الحصين : اعرف واحداً من هؤلاء منزله بالقرب من المسجد يقال له عبد الله .

فنادت خوصة قائلة : ارسلي غلاماً يدعو رجلاً من رجال مذحج يدعى عبد الله يقيم عند المسجد ، وهو شيخ جاوز الستين .

قالت : عرفته ، فهو يجلس نهاره كله بباب الفناء .

وانصرفت فارسلت من يدعوه ، فلما اقبل ، كانت أمامة والفتيان قد احتجبوا وراء الجدر ، فقالت له خولة : لي حاجة اسألك قضاءَها .

قال : على الرأس والعين فما هي ؟

– تحمل كتابا الى عمرو في كربلاء وتقول له ان يتعجل في المجيء فابنته في خطر ، وجعلت تذرف الدموع .. فقال : أمامة الحسناء .

– نعم وأنا ارجو ان لا تخيب الرجاء . قال : ابن الكتاب .

فخرجت الى الرواق ، وكان ابن الحصين قد كتب الرسالة ، فناولها اياها وهو يقول : ليذهب الآن . قالت : في هذه الساعة .

وأوصت الشيخ بان يحمل اليها جواب عمرو اذا أبى ان يجيء ، فمشى حتى انتهى الى الباب الخارجي ، وهو يفكر في ذلك الخطر ، الذي يهدد حياة الفتاة ، وارسل نظرة الى المنزل ، قبل ان يخرج الى السوق فرأى أمامة على باب القاعة التي كان فيها ، اما هي فلم تره .

فجعل يخاطب نفسه قائلاً : كذبت خولة ، فالفتاة تروح وتجيء ، وفي الامر سر ... انها تريد ان يعتزل زوجها حرب الحسين ، وهذه حيلة من حيل النساء ، ولكنه لم يبال ، فالكتاب الذي عهد اليه ، في حمله الى عمرو ، يجب ان ينتهي الى صاحبه ، وليصنع عمرو ما يطيب له ، وعرج على منزله ليحمل اشياءه ويركب راحلته ، وكان القوم في منزل هانيء يتحدثون بامر الحرب .

٤٢

– يا ابن الحصين . ما رأيك في عمر بن سعد ؟

– لا رغبة لابن سعد في قتال الحسين ، ولكنه جبان يتردد في امره ، ويخشى ان يغضب عليه ابن زياد .   – اذن فالقتال لا بد منه .

– هذا ما اراه ، الا اذا كتب يزيد بن معاوية ، الى عامله في الكوفة ، ينهاه عنه .   – ما كان يزيد ليفعل ذلك وهو ابن معاوية .. وما رأيك في الحرب ؟

– ستدور فيها الدائرة على الحسين واصحابه .. ومع ذلك فنحن نؤمن بان الله مع الحق وهو قادر على كل شيء .

فخفقت قلوب النساء الثلاث ، ثم قالت خولة : لو استسلم الحسين لنجـــا ونجت رجاله .

– أجل ولكنه يرى العار في هذا الاستسلام ، ومثل الحسين لا يـنزل على حكم ابن زياد ، ولو قتلوه .

قالت : انصحوا له بان يفعل ، انه اذا نزل على حكم الرجل اليوم ، استطاع غداً ان يجمع شمل الامة .   قال : اذا اراد الحسين ذلك منعه اصحابه .

– لماذا ؟   – لانهم لا يريدون ان يستخف ابن سمية بسيد شباب المسلمين..

فقالت امامة وصوتها يرتجف : عرفنا ان عمر بن سعد خرج من الكوفة على رأس اربعة آلاف من الرجال .   – نعم .

– ورجال الحسين ؟   – اثنان وسبعون رجلاً !

فبكت قائلة : انظروا الى السبعين رجلاً يقاتلهم جيش ... ويلاه ان الحسين سيموت عندما تجول الخيل ، وتحصد السيوف رؤوس قومه ..

قال : الموت خير من العيش في ظل ابن زياد ، وسيعلم المسلمون ان اهل الحق قاتلوا اهل الباطل وماتوا كراماً .

فجعلت تنظر الى عبد الرحمن ، وهي ذاهلة ، والدمع يتساقط على الخدين ، فقالت خولة : ان عبد الرحمن سيبقى في الكوفة .

قال : لقد امرني الحسين بان ابقى ولكني لا افعل ، وحول وجهه ليخفي دموعه .

فقالت : ليس في اهـل الحق من يخالف الحسين ..

– اني مطيع الا في هذا .. – ولكنه امرك بذلك .

– وبذلك امرني ابي وانا لا ابالي !. – اذن ستعود ..

– عند الصباح . – وقد تكون واثقاً بانك ستنقذ مولاك ...

– بل انا واثق باني سأقتل.. – وترجع لتلقي بنفسك بين ذارعي الموت؟

– اجل ، ووالله لا تسقط شعرة من رأس الحسين بن علي ، ورأس مسلم بن عوسجة ، وانا حي !! – انه جنون يا عبد الرحمن .

– قد يكون ذلك جنونا ولكن الواجب والشرف يدفعاني اليه .

فكفكفت دمعها وهي تقول : وامامة ؟

– اما امامة فستعيش وستبسم لها الحياة ..

وتلجلج صوته .. واحس ان الارض تنحدر به ...

فخرجت الفتاة عن هدوئها في تلك اللحظة ، ومدت يديها الى الامام قائلة : أستحلفك بالله ان تبقى ..

فتجلد قائلاً : اتريدين ان يبلغني نعي الحسين واصحابـه وانا هنا ؟! اذن فانت تحبين فتى لا شرف ولا وفاء له ... – ولكني خائفة ...

– اذا كان الله معنا رجعنا ونحن ظافرون بابن سمية وابن معاوية ، واذا قتلنا فحسبنا اننا دافعنا عن الامام ابن الامام سيد هذه الامة .

فرأت ان الصواب فيما يقوله ، وانه ماض في امره ، فقالت : اذن تمكث بيننا يومين اثنين .

وكانت غايتها من ذلك ، ان يشهر السيف في كربلاء ، وينتهي فيهـا امر الحرب ، قبل ان يعود اليها عبد الرحمن، اي انها كانت تريد ان تحفظ حياته...

فقال : عار علي ان امكث بالكوفة يوما واحداً وابي والحسين يخوضان المجال في كربلاء ... قلت اني راجع عند الصباح ، وسأموت فداء شرفي ، حاملاً غرامي ، في اعماق هذا القلب ، الى القبر ، واحس عندئذ ان يدين حديديتين قبضتا على عنقه .

فقال : اني اختنق .

ثم اسودت الدنيا في عينيه ، واغمي عليه .

فاحتضنه الفتى المرادي ، واقبلت النساء يمسحن وجهه ويديه بالماء ، حتى استفاق ، فاذا هو يهذي كما يهذي المجنون ، وقد انشبت الحمى مخالبها فيه .

فحملوه الى فراش في مخدع آخر ، وجلست امامة . وسلمى عند رأسه ، والاثنتان تبكيان البكاء الغزير .

سلمى تبكي زوجها ، القتيل البريء ، وامامة تبكي غرامها الذي صفعته كف القدر ، وحبيبها يصارع الموت .. وعيناها تنظران اليه ...

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١ / ٢
- زينب ملكة تدمر ١ / ٢
- حسناء الحجاز ١ / ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١ / ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



الثمن
٨
ل.ل.